المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الثامن والثمانين

١ فبراير سنة ١٩٣٦ — ٨ ذي القعدة سنة ١٣٥٤

التوسع بالفتح

لا فائدة منه ولا حاجة اليه

قد يستغرب بعض القرّاء ان تجعل فاتحة المقتطف مقالاً اقرب الى السياسة منهُ الى العلم وهو مخالف في الغالب لما درجنا عليهِ حتى الآن . ولكن المشكلات الاجتماعية والاقتصادية ، التي نشأت عن ارتقاء العلم ، وتطبيقه الصناعي ، تمسُّ السران الحالي في صميمهِ ، وتقلق بال الناس في الشرق والغرب ، ولذلك لسنا نقدّم لقرائنا عذراً عن جعل مقالنا الافتتاحي في هذا العدد . فالمشكلة الدولية التي نشأت من النزاع الايطالي الحبشي ، والخلاف بين ايطاليا وجامعة الامم قد اثارت موضوعات اقتصادية اجتماعية لا يسعنا ان نتجاهلها ، وان نمضي مطمئنين ، اذا في تجاهلنا اياها ، نجاري اتجاه العصر ونفهم روحهُ

ففي خلال الشهور الستة التي انقضت على استفحال المشكلة الايطالية الحبشية ، لم يشترك في بحثها وزير من الوزراء او كاتب من الكتّاب ، الاّ واشار في ما قال او كتب الى حاجة ايطاليا الى التوسّع . فالايطاليون يقولون ان حاجتهم الى التوسع ، تحملهم على شهر الحرب لاضافة اراضٍ جديدة الى ممتلكاتهم ، على الرغم من العهود المقطوعة في المعاهدات القائمة . والبريطانيون يقولون ان حاجة ايطاليا الى التوسّع حاجة طبيعية شرعية ، ولكنها لا تسوّغ انتهاك المعاهدات

والهجرة الى الخارج . ولكن الذي لم يقله أحد ، او قاله افراد فذهبت اقوالهم صرخة في واد ، هو ان التوسع بالفتح لا فائدة منهُ ولا حاجة اليهِ ، ولا صلة بينهُ وبين روح العصر . بل لم نطلع ، الا اخيراً ، على بسط وافٍ ، لهذه الحاجة الطبيعية الشرعية — الحاجة الى التوسع — وذلك في مقالٍ نشرتهُ مجلة هاربرز الاميركية للكاتب « ثاناثيل بيفر » وعليه الاعتماد في الصفحات التالية

كان القول بـ « الحاجة الى التوسع » شعار السياسة الدولية في الجيلين الماضيين . باسمه أفقرت الدول الكبيرة نفسها، لكي تكون شاكية السلاح . وعلى مذبحهِ سُحقت الدول الضعيفة وأبيدت الاقوام والقبائل البدائية . وفي سبيل تحقيقهِ قتل الوف الالوف من الشبان في الحروب الكبيرة ، وها هي ذي اوربا الآن وكأنها تسعى الى حتفها بظلفها

ولكن ما هي الحاجة الى التوسع ؟ ما المقصود منه بالضبط ؟ هل تحتاج دولة من الدول الى التوسع حقيقةً؟ وفي اي الاحوال تحتاج اليهِ ؟ واذا اجتمعت لها هذه الاحوال فالى مَ تحتاج ؟

لنسلّم جدلاً ان بعض البلدان لا تستطيع ان تقيم أود سكانها لكثرتهم . وهذا هو في الغالب ما يقصد بعبارة « ازدحام السكان » . ولكن هذه العبارة تكاد تكون لا معنى لها ، في عصرٍ يتجمع فيه الناس في المدن ، ويعتمدون في انتاجهم على الآلات . ولا يمكن لبلاد ، يقوم اجتماعها واقتصادها على الآلة ، ان تضيق بسكانها بحصر المعنى . فالعامل الفاصل ، ليس عدد السكان ، بل مصادر الثروة

يقول بعضهم انهُ اذا تحوّلت بلاد الى الصناعة ، عجزت عن تغذية سكانها . وهذا قول فيهِ رأيان . ولكن لنسلم بانه قول صحيح . فاذا تفعل حينئذٍ ؟ الجواب الظاهر عن هذا السؤال هو التوسُّع . ولكن كيف تتوسّع ؟ اذا جرّدنا لفظ « التوسع » من ملابساته العسكرية والسياسية والصحية ، تبيّن لنا ، ان توسُّع امة من الامم لا يمكن ان يتمّ الاّ باحدى طرقٍ ثلاثٍ : اما ان تغزو بلداناً قليلة السكان فتهاجر اليها من سكان الامة الغازية ، ما يفيض منهم فيها . واما ان تفتح بلاداً لم تبلغ شأواً بعيداً من التقدُّم ، فتجعلها سوقاً لمنتجاتها . واما ان تستعمر بلداناً غنيةً بمصادر الثروة الطبيعية والمواد الخام اللازمة للصناعة . وليس للدولة التي تبغي التوسع طريقاً رابعة اليهِ . فاحداها او جميعها معاً هو كل ما يقصد « بحق التوسع »

***

لننظر الآن في الطريق الاولى ، أي مهاجرة سكان البلاد المزدحمة ، الى بلاد قليلة السكان. إن المثل الذي تضربه لنا ايطاليا في هذا الصدد من ابلغ ما يكون . فقد انقضت خمسون سنة ، وايطاليا تبذل طاقتها أو ما هو فوق طاقتها، تتنوز بامبراطورية استعمارية ، ورغبةً في تخفيف ضغط

السكان في ايطاليا ، على ما قيل . فقد اشتركت مع الدول الاخرى ، بعد سنة ١٨٨٠ في السعي الى الفوز بمستعمرات في افريقية . وحاربت في الحبشة ، في اواخر القرن الماضي ، وفي طرابلس الغرب في أوائل هذا القرن ، ولما عجزت عن الاتفاق مع فرنسا وانكلترا ، على اقسام افريقية انتظمت في نظام المحالفات الاوربية التي افضت الى الحرب الكبرى ، فلما نشبت الحرب ، كان من سخرية الاقدار ، ان انقلبت ايطاليا من فريق الى فريق ، في سبيل هذا الغرض كذلك

فلما كانت سنة ١٩١٤ ، ونشبت الحرب الكبرى ، كان عدد الايطاليين في مستعمرات ايطاليا الافريقية ، نحو ثمانية آلاف ايطالي . ولو اخذت بقعة صغيرة من احد احياء نيويورك لوجدت فيها حينئذ ما يزيد على ثمانية آلاف من الايطاليين . بل ان عدد الايطاليين في ولاية نيويورك وحدها ، كان يبلغ حينئذ اربعمائة الف ايطالي او يزيدون . واني اقول ، وأنا واثق كل الثقة ، انه اذا تم لايطاليا في اول سنة ١٩٣٦ اخضاع الحبشة بأسرها ، ووافق ذلك الغاء قيود المهاجرة الى اميركا ، لبلغ عدد الذين يهاجرون الى اميركا قبل سنة ١٩٣٧ خمسمائة ايطالي ازاء كل ايطالي يسافر لاستعمار الحبشة . او خذ مثلاً آخر . ان الرغبة في انشاء امبراطورية استعمارية ، والفوز بمكان في الشمس او تحتها ، حملا المانيا على تحدي سيادة بريطانيا البحرية في مفتتح القرن العشرين ، وكذلك اصبحت مسألة نشوب الحرب الكبرى ، مسألة وقت يطول او يقصر ، لا اكثر ولا اقل . فلما كانت سنة ١٩١٤ ونشبت الحرب الكبرى التي كانت شهوة الاستعمار من بواعثها الاولى ، كان في جميع المستعمرات الالمانية في افريقيا — وتبلغ مساحتها ٩٠٠ الف ميل مربع — ٢٢ الف الماني . وفي جميع المستعمرات الالمانية في اماكن اخرى نحو الفي الماني ، مع ان عدد الالمان بين الثلاثين ٨٠ و ٩٠ في مدينة نيويورك يزيد على ذلك وعددهم في ولاية نيويورك يزيد على ٦٠٠ الف . ولو فتح باب المهاجرة غداً الى اميركا ، ووافق ذلك استعادة المانيا لجميع مستعمراتها القديمة وأضافت اليها بلداناً مساحتها مليون ميل مربع ، لبلغ عدد المهاجرين الى اميركا مائة الماني ازاء كل الماني يذهب الى المستعمرات

ثم هناك مثل ثالث يضرب في هذا الصدد . وهو ازدحام السكان في اليابان وحاجتها الى التوسع لكي تخفف الضغط عن بلاد لا يسعها ان تقيم اود سكانها

فقد ظفرت اليابان من روسيا سنة ١٩٠٥ بجنوب منشوريا ووفّت ثمن هذا الربح بحياة ثلاثمائة الف من جنودها . وها هي ذي الآن في تلابيب مغامرة اخرى ، قد تجرها الى حرب مع روسيا السوفيتية او اميركا او معهما كليهما ، وغرضها ان تملك الصين او ان تشرف عليها اشراف المالك على ملكه . ويقول اليابانيون انه مضت سنون وسكان اليابان يزيدون من ٦٠٠ الف نسمة الى مليون نسمة كل سنة . ولكن في سنة ١٩٣٠ ، أي بعد انقضاء ربع قرن على ظفر

اليابان بجنوب منشوريا ، بلغ عدد اليابانيين الذين استعمروا أو استقرُّوا هناك مائتي الف نسمة ، أي نحو ثلثي الذين قتلوا في الحرب الروسية اليابانية ، أو نحو ثلث الزيادة السنوية في سكان اليابان . وعلى الرغم من القيود الثقيلة التي تقيد هجرة اليابانيين الى أميركا ، بلغ عدد اليابانيين في ولاية كليفورنيا وحدها سنة ١٩٣٠ مائة وخمسين الف ياباني . ومع ذلك يقال ان من أهم البواعث على حملة اليابان الى منشوريا سنة ١٩٣١ كان السعي الى تخفيف ضغط السكان في اليابان !

لحجة الاستعمار ، على أنه وسيلة لتخفيف الضغط عن البلدان المزدحمة بالسكان لا تستقيم . انها لا تصلح الاَّ للكتابات في الصحف التي غرضها إلهاب الشهوات الوطنية ، والدعاية لتأليف الجيوش الكبيرة وإعداد الاساطيل القوية . فالاحصاءات تدلُّ على أنه اذا هاجر سكان بلادٍ ما ، فانهم في الغالب لا يهاجرون الى مستعمرات بلادهم ، بل الى بلادٍ مأهولة ، ولو اضطرُّوا الى التخلي عن رعويتهم الاصلية ، وهم يفعلون ذلك لان معظم البلدان التي تتألف منها الامبراطوريات الاستعمارية لا تصلح لسكنى السلالات البيض . فبلدان أفريقية وآسيا ، غير المزدحمة بالسكان ، كالصين والهند ، لا تواتي سكنى البيض واستقرارهم فيها ، من حيث الاقليم والمناخ . والراجح انهُ يندر بين الايطاليين من يرغب او يستطيع أن يتحمل اقليم شواطىء أفريقية الشرقية . ومن سخرية الاقدار ، أن البيض الذين يرفضون او على الاقل يرغبون عن الذهاب الى هذه البلدان للاستقرار فيها ، يرسلون اليها قسراً للموت في غزوها . فالبلدان التي تعتقد انها شديدة الازدحام بالسكان ، تستطيع ان تفوز بكثير من هذه المستعمرات ، من دون ان يخفَّ ضغط السكان فيها

يضاف الى هذا ان معظم البلدان التي تشكو من ازدحام سكانها ، هي في الغالب التي تدعو الى زيادة النسل ، وتجيز الوالدين الذين يكثر ولدهم ، فاذا تمَّ لها ذلك ، مالت الى الاعتداء والغزو مسوِّغةً عملها بكثرة السكان

* * *

اما غزو البلدان لجعلها اسواقاً لمصنوعات البلاد الغازية ، فلهُ في تسويغه اقوال ، هي على ضعفها ، أقوم مما يقال في تسويغ الفتح بحجة التخفيف من ازدحام السكان . وقد كان في الماضي ، اقوى باعثاً على التوسع الامبراطوري من « ضغط السكان » واصاب نصيباً اوفر من النجاح . فقد احرزت بريطانيا ، في القرن التاسع عشر ، سيادتها العالمية ، او هكذا يقال . ولكن هل احرزت بريطانيا سيادتها ، لان الشمس لا تغيب عن ممتلكاتها ، او لانها سبقت سائر البلدان الى ميدان الصناعة الآلية ؟ هذه مسألة ، فيها ما يقال . والغالب ان يسلِّم الناس بالشق الاول من هذا القول وان يتغاضوا على الثاني ، مع ان الثاني في الراجح اقرب الى الصواب

فالعلاقة بين السيادة التجارية والاقتصادية من ناحية ، والتوسع الامبراطوري من ناحية

اخرى ، كانت في الراجح ، علاقة اتفاق ، لا علاقة مسبّب وسبب . فبريطانيا ، كان لا بدّ لها ان تفوز بقصب السبق في ميادين التجارة والاقتصاد ، في القرن التاسع عشر ، ولو لم يكن لها مستعمرات . فانها كانت تفوق جميع الامم الاخرى ، في وسائل الانتاج الصناعي ، وبراعة الاساليب التجارية ، وسبّقها الى جمع الثروة ، مما جعل عاصمتها مركز العالم المالي ، والحاكمة فيه بأمرها

فدراسة تاريخ بريطانيا قد يسفر عن القول بأن امتلاك المستعمرات اقصر السبل الى انشاء اجتماع صناعي ، ولكنهُ لا يفيد امة بعينها . وصحة هذا القول — اذا صحّ — مقتصرة ، على كل حال ، على القرن التاسع عشر فقط

فلنفرض الآن ، ان امة تسعى الى التوسع بغزو بلاد اخرى ، او لضمها من دون حرب ، لكي تجعلها سوقاً لمصنوعاتها . ولكن بريطانيا مثلاً واقيًا على ذلك . فلسنا نعرف امبراطورية اكثر اتساعاً واشدّ رسوخاً واغنى مستعمرات من الامبراطورية البريطانية . فالهند بمثابة مستعمرة بريطانية ، وهي بلاد مساحتها مليون ميل مربع ، وسكانها ٣٥٠ مليون نسمة . هل ثمة سوق في العالم ، للمصنوعات البريطانية ، او لمصنوعات اية امة صناعية مستعمرة ، افضل من هذه السوق ؟ ولكن اليابان آخذة في غزو السوق الهندية ضدّ انكلترا . ثم ان شبه جزيرة ملايا من المستملكات البريطانية . ومع ذلك فاليابانيون أرسخ قدماً في سوقها من الانكليز

ان احدى الثمار التي جنتها بريطانيا من الحرب الكبرى ، كانت انتزاع المستعمرات الالمانية الافريقية من المانيا ، وتحقيق حلمها القديم بانشاء طريق من القاهرة الى الكاب يمرُّ في بلدان بريطانية او تحت اشراف بريطانيا . وها هي ذي المستعمرات الالمانية سابقاً قد اصبحت بريطانية . فاذا كانت النتيجة ؟ ان تسعاً وتسعين في المائة من الحرير الصناعي الذي تستورده تنجنيقا يأتيها من اليابان . ولقاء كل ذراع من المنسوجات البريطانية التي تستوردها كينيا ، تستورد ست اذرع من المنسوجات اليابانية . ولا يخفى ان اساس عظمة بريطانيا التجارية في القرن التاسع عشر قام على تجارة المنسوجات مع الهند . ولكن في سنة ١٩٣٣ فاقت صادرات اليابان الى الهند من المنسوجات صادرات بريطانيا اليها . فعلى الرغم من سبق بريطانيا الى الهند ، ووسائلها المالية فيها ، والحواجز الجمركية التي انشئت لصدّ تيار المنسوجات اليابانية ، ترى اليابان قد فازت في ميدان المنافسة

ولا يعيينا العثور على امثلة اخرى ، من هذا القبيل في تاريخ البلدان المستعمرة الاخرى اذا تحمّسنا مؤونة البحث . فجاوى وسومطرا من ممتلكات هولندا . ولكن مقدار تجارة اليابان فيها تفوق مقدار تجارة هولندا فيها . وقد تفوز ايطاليا باخضاع الحبشة ، ولكن اليابان في الراجح — او المانيا او الولايات المتحدة — ستفوز باكبر نصيب من تجارتها

واذا شئت الايجاز قلنا ان امتلاك المستعمرات ، عاد لا يكفل ضماناً للتفوق التجاري فيها للامة المستعمرة . فالتجارة في هذا العصر لا تتبع العَلَم . كانت تتبعهُ من خمسين سنة . ولكن الحال تغيَّرت الآن . فالسيادة السياسية في القرن العشرين ،قد تكون من قبيل الترف الفني ،والدليل على المجد القومي ، ولكنها لا تخلق عملاً للمال المتعطلين ولا تملأ البطون الطاوية . حتى الحواجز الجمركية ، والسيطرة على الاعتمادات المالية ، وتدبير العملة المتداولة ، ليست العوامل الفاصلة ، في النجاح التجاري . فالروبية الهندية ، مرتبطة بالجنيه الاسترليني ، ولكنها تستمد في توفية ثمن ما يستورد من اليابان

ان العوامل التي تسيطر على ميدان المنافسة في التجارة الدولية كثيرة ومعقدة . وحصة الاسد ، لا بدَّ ان تكون من نصيب المنتج الكفؤ ، اصفرَ كان ام ابيض ، في اليابان انتج ام في منشستر . والكفاءة في هذا الموضوع تعني ، المقدرة على عرض بضائع تساوي بضائع الغير جودة وتقلُّ عنها ثمناً ، وفي احوال يمكن التجار من سهولة التعامل . ولما كان مجموع هذه العوامل، يوافق اليابان لقربها من اسواق الشرق ، تراها وقد فازت على التجارة البريطانية فيها ، حالة ان القوانين والاحكام توضع وتنفذ باسم التاج البريطاني

فالعهد الذي كان فيه التوسع الامبراطوري سلاحاً اقتصاديًّا قد انقضى ، وقد تكون هناك وسائل اخرى ، للفوز بالاسواق ، والسيطرة عليها ، ولكن الاستعمار ليس احداها حتماً

***

بقي التوسع للفوز بمصادر المواد الخام التي لا غنى عنها للبلدان الصناعية . وقد تكون اقامة الحجة ، على تأييد هذه النزعة اسهل مما تقدم

فاحتكار الحديد والفحم والنفط والذهب والنحاس والمطاط والفضة في منطقة ما ، باعث قوي للتوسع القومي ، لان هذه المواد ، وغيرها من المواد الخام لا غنى عنها للانتاج الصناعي. فامتلاك مستعمرة ما ، يمنح المالك حق التقدم ، على غيره في استغلال مصادر ثروتها الطبيعية ، فيجني ربحاً من هذا الاستغلال . ولكن هذا الربح هو كل ما يجني . فامتلاك المستعمرة واستغلال مواردها، لا يجديان في حل المشكلة الاقتصادية الاساسية التي تعانيها البلاد المستعمِرة. انهما لا يمهدان السبيل الى تغذية شعب ، لا يستطيع ان يقيم اوده في مسقط رأسه . ان امتلاك المستعمرات يمنح المستعمرة حق التقدم ، لا حق الاحتكار . لانه قلما يتاح لدولة من الدول ان تحتكر صنفاً من المواد الخام، وان تتصرف به تصرف المحتكر الطامع، الا وتثير عليها بلداناً اخرى فترد على صنيعها بمثله.فهذه تحتكر المطاط، وتتصرف به تصرف المحتكر الطامع ، فترد عليها اخرى

باحتكار النيكل وتحجزها عن عملها بمثله . وليس ثمة دولة واحدة في العالم ، الا وتحتاج الى مادة او اكثر ، من المواد التي مواردها في بلاد اخرى . فحاجتها الى هذه المواد ، موطن الضعف فيها ، ولا بد لها من ان تأخذ وتعطي . وهذا ما وقع فعلاً في تجارة المطاط ، فبريطانيا تكاد تكون مسيطرة على تجارته محتكرة له ، ولكنها اضطرت ان تتفق مع الاميركيين . يقابل هذا ان اميركا لا تنتج في بلادها مطاطاً ما ، ولكن صناعة السيارات فيها اكبر صناعة من نوعها في العالم ، والولايات المتحدة الاميركية اكبر مستهلك للمطاط في العالم . وكون الزراع البريطانيين في الشرق الاقصى ، مسيطرين على انتاج المطاط في مستعمراتهم لا يحول دون فوز الاميركيين بما يريدون

فامتلاك موارد المواد الخام اللازمة للصناعة ، ذو شأن كبير ، ولكنه لا يكفي . بل انه لا يفيد او قلما يفيد ، الا اذا كان مصحوباً في البلاد المتلكة بنظام اقتصادي صناعي دقيق ، ومنافذ للمصنوعات في الاسواق العالمية . واذا كانت بلاد ما تملك هذا النظام الاقتصادي ، فان شراء المواد الخام لا يعسر عليها ولو لم يكن لها مستعمرات . وقلما نجد مادة من المواد الخام محصورة في بلاد واحدة ، ولذلك تقرر اسعار هذه المواد في السوق العالمية ، وفقاً لعوامل العرض والطلب . فالسيطرة على موارد المواد الخام ، لا تجعل دولة صناعية ما مستقلة من هذا القبيل ، الا اذا ملكت كل ما تحتاج اليه في بلادها او في مستعمراتها . وقل من الدول دولة تملك كل ما تحتاج اليه داخل حدودها الاصلية ، حتى ولا روسيا والولايات المتحدة الاميركية على ما نعلم . اما اذا شاءت ان يكون كل ما تحتاج اليه في مستعمراتها ، فيجب عليها حينئذ ان تملك جميع مستعمرات الارض . وهذا متعذر لشدة المنافسة بين الدول الكبيرة

* * *

فالمستعمرات التي يمكن ان تفوز بها ايطاليا والمانيا لا تجديهما نفعاً كبيراً . اما اليابان فحالتها خاصة ، لانها في اكتساحها الصين تكتسح قارة ، لا تملك مستعمرة . ومع ذلك لا بد من تقييد هذا القول ببضعة قيود . فالثمن الذي قد تدفعه اليابان في محاربة الصين ، او في محاربة بعض الدول الاخرى قبل استثمارها الصين ، قد يكون أفدح من الثمن الطبيعي التي كان عليها ان تدفعه لو اشترت المواد الخام من الصين ، بالاساليب التجارية السوية . والواقع ، ان طريق الشراء ، هي في آخر الامر ، احدى الطرق وارخصها الى المواد الخام التي تطلبها دولة صناعية . فالفتح الاستعماري ، فادح النفقة ، ووسيلة غير امينة لما تثيره من الاحقاد والحزازات وما تؤوله على الدول الغازية من الامم والحكومات

الحق والحسن

لعبد الرحمن شكري

في هذه القصيدة تساؤل عن الحسن في الطبيعة والفنون والاحياء، هل هو يلهي المرء عن ازالة نقائص الحياة واختلال نظمها وأوزار النفس من اجل انه يجعل الحياة كما هي مقبولة لذيذة فتفتر هم الناس ورغبتهم في اصلاحها ام انه يعين على استئناف الجهاد في سبيل صلاح الحياة وانه لولاه لا تتفت اسباب الحياة فلا رغبة في اصلاح ولا رضاء بغير ولا بحال من احوالها . لا مراء ان للحسن هذين الأثرين وصلاح الحياة في ان يأخذ الناس بأسباب الاثر الثاني كي يعين الحسن على استئناف الجهاد في سبيل اصلاح الحياة وان يخلص الناس من الأثر الاول قدر المستطاع كي لا يكون الحسن كالمخدرات في الحياة فيلهي المرء بالحياة عن الحياة المنشودة في المثل الاعلا [الناظم]

عصيت الحسن من هم وحس ... يفيض على الورى في الطارقات

وقلت الحق خير منه عفي ... وأولى بالنفوس السامیات

وقلت أيا رواء انزهر بعداً ... ويا سحر العيون الساحرات

ويا مُلَحَ الخمائل لا تكوني ... حبائل قانصات آخذات

ويا شمس اخبئي ضوءا صحيحاً ... يغازل حسنه حسن النبات

أليس الناس في عثر وشرّ ... سلي الايتام والمترملات

سلي أهل الشقاء وما دهاهم ... وهل طابت لهم خُدع الحياة

رمى بالنبل للآفات طرًّا تشاوى لذة لا الواجبات
وقالوا النبل فرض اي فرض جديرٌ بالنفوس المؤمنات
ديار الحسن كالجنات حسناً لدى العشاق فيها والهواة
وزنبق في مناقع آسنات ألف مع الغرام من الفرات
وحيث ترى نعيم الحسن داءً ترى فقد النفوس الآيات
وهل ترجوه لاستصلاح أمر صريع عقار حسن الفاتنات
فان الحسن يلهي المرء عما يحاول من صلاح الحادثات
ولولا سلوة للحسن عيشت حياة في حضيض الهاويات

***

فقال الحسن هل انا غير سلوى تعين على كفاح النائبات
أنا الأمل الذي لولاه كانت حياة المرء شرٌّ من ممات
أنا الحق الذي تبني جبداه وتنشد كونه في الكائنات
أنا المثل الأجل إليَّ مرقى خُطَا الراقين من ماض وآت
أنا الحادي الذي يحدو نفوساً فتطرب طربة المستوفزات
أنا الصبر الذي يودي بنحس ويُسعد في الهموم المضنيات
أنا الحب الذي لولاه كانت وجوه الكون أشبه بالرفات

***

فلما أنْ تبدّى منه سحر أضاء بنوره وجه الحياة
ولما ان تبدى منه سحر أعاد النفس في مثل السبات
خشعت وما ملكت قياد نفسي وقلت الحق حسن لو يؤاتي
وإن لم يَزْوِ نفس المرء عما يحاول من صلاح الحادثات

الغاز الحربي الكامل

صفاته وخواصه واستعماله

لضابط حربي كيماوي
— في مجلة السينتفك اميركان —

في جدول المواد البسيطة التي يعرفها الكيماوي مئات من المركبات ، ولكن ما يصلح منها للاستعمال في الحرب ، يعد على اصابع اليدين . إلاّ انّ العواد من الناس بوجه عام يستكرون هذا القول ، لان الراسخ في اذهانهم مما تنشره بعض الصحف ، غير العلمية ، ان في محفوظات الوزارات الحربية المختلفة ، وصفات متنوعة ، لغازات وسوائل فتاكة ، يخرجها القواد عند ما يستشعرون دنو الحرب ، ويركبونها في المصانع ليستعملوها في الميدان

ولكن العواد على خطإ في اعتقادهم هذا إذ ليس بالامر اليسير ، اضافة مادة كيمائية جديدة الى المواد الصالحة للاستعمال في الحرب . وليست الصعوبة في ذلك ايجاد المواد ، بل اجتماع جميع الصفات والخواص التي تجعلها صالحة للحرب . فالمادة الكيمائية الحربية يجب الاّ تكون سامة فقط ، او مهيجة للاغشية ، إذا كانت منتشرة انتشاراً يسيراً في الهواء . بل يجب ان تتصف بخواص كيمائية وطبيعية معينة ، وان تكون مما يسهل صنعه ونقله وتقل نفقته

فالبحث عن مادة كيمائية تجمع هذه المزايا عمل كبير . والعثور عليها يكاد يكون متعذراً . فالمادة الكيمائية الحربية المثلى لم توجد بعد ، وقد لا توجد مطلقاً

في السنوات الاربع التي انقضت بين أول هجوم استعملت فيه الغازات الحربية سنة ١٩١٥ وسنة ١٩١٩ عندما عادت معامل البحث العلمي الحربي الى حالتها في ابان السلام ، بحث العلماء في ٣٠٠٠ مادة كيمائية بغية التثبت من صلاحها للاستعمال في الحرب او عدمه . فظهر ان ثلاثين مادة منها فقط تصلح لذلك ، وان عشر مواد او خمس عشرة مادة فقط يمكن استعمالها استعمالاً واسع النطاق . وقد كان العلماء الذين اقبلوا على هذه الناحية من البحث ، من اكبر علماء الكيمياء في العالم . وكانت الرغبة في انتصار الامم التي ينتمون اليها تحثهم وتدفعهم الى الابداع .

ولم تتوقف مباحثهم عند عقد الهدنة وابرام معاهدات السلام ، بل مضوا فيها ، وعلى الرغم مما اشارت اليه الصحف من استنباط الغاز الحربي الكامل ، ليس ثمة ما يدل على ان هذا القول له ما يؤيده . وقد دل البحث في هذه الاقوال ، ان الغازات التي اشارت اليها الصحف ، كانت مما تناوله البحث قبلاً ، فاهمل ، لانه لا يتصف بالصفات والخواص الاساسية التي يجب ان تتوافر في كل مادة كيائية حربية

وقبل ان نصف للقارىء ما يجب ان تمتاز به المواد الكيائية الحربية ، لا بدّ من كلمة نقولها في طبيعة الغاز الحربي

فأولاً من الخطإ تسمية هذه الطائفة من المواد « بالغازات السامة » والاكتفاء بذلك فمعظم المواد الكيائية المستعملة في الحرب ، سوائل او جوامد في حالتها السوية . وهي تبث في الهواء بوسائل مختلفة . يوضع بعضها في قنابل تتفجر فتنشر الجامد او السائل قطيرات دقيقة في الهواء . وبعض الجوامد منها ، يصعّد بالحرارة فينتشر بخاراً لطيفاً ، وبعضها يحمل في الطائرات ثم يلقى منها فيقع فوق الارض في قطيرات او ضباب لطيف . واغلب هذه المواد التي تلقى من الطائرات سوائل ، وانما يمكن ذرّ الجوامد المسحوقة بالطريقة نفسها . اما ما كان طيّاراً منها ، فيوضع في الغالب في انابيب او اسطوانات ، تخرج منها عند فتح صمام خاص فتكون من ابخرتها غيوم تحملها الريح . وسواء دعوا هذه المواد جميعاً بالغازات السامة او الغازات الحربية او المواد الكيائية الحربية ، فهي جميعاً مواد تؤثر بتفاعلها الطبيعي السويّ تأثيراً ضاراً في الجسم ، وتحدث حجاباً كثيفاً من الدخان ، او حريقاً يدمر مواد الحرب خاصة

ومن الواضح انه اذا وجب البحث عن مادة كيائية للاستعمال في الحرب ، وجب ان تكون مفيدة من الناحية العسكرية . بل ويجب ان تؤدي هذه الفائدة العسكرية ، على وجه اوفى مما تؤديه مادة اخرى معروفة أو سلاح آخر متداول . ولذلك تقسم المواد الكيائية الحربية الى اقسام على أساس فائدتها العسكرية . فقد يستعمل بعضها للفتك بالاعداء ، او لمرقلة اعمالهم ، او لحجب الجيش الذي يستعملها عن عدوه ، او لاحداث حرائق ولكن هذا التقسيم ليس فاصلاً . لان بعضها قد يستعمل لتحقيق اكثر من غرض واحد من هذه الاغراض . فالمواد التي تستعمل للفتك بالاعداء ، غرضها احداث الوفاة في من تصيبه او شلّه وتحتم نقله الى المستشفى . والمواد التي تستعمل لمرقلة غرضها اضعاف الجيش بالزامه ان يلبس الكمامات الواقية . والمواد المستعملة للحجب ، غرضها الحيلولة دون تمكّن العدوّ من مراقبة حركات خصمه واحكام القاء القنابل عليه . والقسم الاخير يستعمل لتدمير الذخيرة ومؤونة الحرب بوجه عام

وهناك تقسيم آخر للمواد الكيائية الحربية اساسه فعلها الفسيولوجي في الجسم . فهيجات

الرئة تؤثر في جهاز التنفس والفوسجين اهمها واشدها فعلاً . وهيجات الجلد تؤثر في الجلد وتنشىء فيه فقاطات وأهمها غاز الخردل ، بل انها تؤثر في أغشية العين وفي جهاز التنفس كذلك. وهناك الغازات المدمّعة لتدمع العين وتضعف البصر واهمها غاز « الكلورو اسيتوفينون » . وهناك مهيجات أغشية الانف تحدث انعطاس الشديد والدوار والضعف الذهني . واهمها غاز « الدايفنيل كلورو آرسين » . وأخيراً هجد المواد التي تسمّ الاعصاب وتشلّها وأهمها غاز الايدروسيانيك فهو يؤثر تأثيراً مباشراً في الجهاز العصبي ويليه غاز اول اكسيد الكربون فانه يؤثر في الدم ويحول بينه وبين نقل الاكسجين الى نسج الجسم

الاّ ان البحث لم يسفر حتى الآن عن وسيلة عملية تمكن الجيوش من استعمال الغاز الذي يسمّ الجهاز العصبي ، او يؤثر في الدم . نعم ان غاز اول اكسيد الكربون الذي يتولد عند انفجار القابل الشديدة التفرقع يقتل بكميّن ولكننا لا نستطيع ان نحسب هؤلاء القتلى صرعى الحرب الكيائية

ويختلف الغاز الحربي عن القابل في ان القابل تنطلق في خطوط مستقيمة فاذا اصابت احداً في خط مسيرها قتلته والاّ فانها تضيع سدًى حالة ان الغاز الحربي ينتشر في الهواء ويتغلغل احياناً في المنخفضات فيمتدّ فعله فوق مساحات كبيرة من الارض

والغازات أنواع من حيث استمرار فعلها بعد انطلاقها من اسطوانتها . فالغاز الذي يتبدّد فعله بعد بقائه في الجوّ عشر دقائق عند ما تكون سرعة الريح عادية ، يقال انه غاز غير مستمرّ الفعل Non-persistent والغاز الذي يستمرّ فعله بضع ساعات بعد انطلاقه يعرف باسم الغاز المستمر الفعل Persistent . فغاز الفوسجين مثال على النوع الاول لانه عند انطلاقه يتبخر ويتبدّد مع الرياح . أما غاز الخردل فغاز مستمرّ فيبقى فعله بعد انطلاقه ساعات أو اياماً . فهذه الصفة من الصفات التي يحسب لها حساب كبير عند البحث عن مادة كيائية حربية

يتضح مما تقدم ان البحث عن الغاز الحربي الامثل محدود باعتبارات عسكرية وفسيولوجية وطبيعية وكيائية . ثم يضاف الى هذا الاعتبارات الاقتصادية ، لانه من العبث استنباط غاز يكلف صنعه نفقة كبيرة ترهق الدولة التي تصنعه وتستعمله . وأذن فلا بدّ من البحث عن غاز وسط ، يجمع كلّ ما يمكن جمعه في الغاز الحربيّ من الصفات اللازمة ، لان الغاز الحربيّ الامثل مستمر فعلاً . ولكن ذلك لا يمنع ان نبيّن الصفات التي يجب ان يتصف بها هذا الغاز ليكون هدفاً يتطلع اليه الكيماوي العسكري

***

في المقام الاول يجب ان يكون هذا الغاز فعّالاً اذا وجدت مقادير قليلة منه منتشرة في مقادير

كبيرة من الهواء . والمقادير القليلة هنا تعني وجود اجزاء يسيرة من الغاز الحربي في ملايين الاجزاء من الهواء . لانه اذا كان الغاز غير فعّال عند ما توجد منه هذه « المقادير الصغيرة » في الهواء فهو لا يصلح من الوجهة العسكرية . اذ لا يخفى ان عدد الاسطوانات المحتوية على الغاز التي يمكن نقلها الى صفوف الجيش الامامية ، محدود ، فالارطال القليلة التي تطلق منها يجب ان تكون فعّالة في تحقيق الغرض العسكري منها وهو الفتك بالعدو او عرقلة اعماله

ويرى الدكتور رودلف هانسليان الثقة الالماني في موضوع الحرب الكيمائية ان الفوسجين يحدث تهيجاً شديداً في اعضاء التنفس والعيون اذا وجد منهُ ٤ اجزاء من مائة جزء من الاوقية (٤ ر من الاوقية) في الف قدم مكعبة من الهواء ، اي اذا وجد منهُ جزءاً في مائة جزء من الهواء (١/١٠٠) . بل اذا وجد منهُ في الهواء مقادير اقل من المقادير المتقدمة ، واستنشقهُ الانسان بضع دقائق متوالية ، فقد يقضي استنشاقهُ الى تسمم مميت

اما الغاز المدرّ للدمع فيفصل فعلهُ اذا كانت مقاديرهُ في الهواء اقلّ مما تقدم . ويقول الدكتور هانسليان أن وجود ثلاثة اجزاء من عشرة آلاف جزء من الاوقية (٣ . . . ر) في الف قدم مكعبة من الهواء كاف لتهيج الغشية المخاطية للعين واستدرار دموعها ، ومن هذه الغازات مركبٌ يدعى (برومبنز لسيانيد) يؤثر في العين تأثيراً اليماً جدًّا بعد التعرّض لهُ ثلاث دقائق ولو كان المقدار المنتشر منهُ في الهواء ٨ . . . ر من الاوقية في ١٠٠٠ قدم مكعبة من الهواء . ولتقريب هذا المعنى الى القارىء ، نقول تصوّر انك اخذت اوقية (Ounce) من هذا الغاز وقسمتها الى عشرة آلاف جزء ثم اخذت ثمانية اجزاء منها ووضعتها في صندوق من الهواء طولهُ عشر اقدام وعلوهُ عشر اقدام وعمقهُ عشر اقدام (اي غرفة متوسطة) ووقفت فيه ثلاث دقائق فقط فستدثر تشعر في عينيك بألم لا يطاق . وهذا النوع من الغاز لا يميت ، ولكن انتشارهُ يضطرُّ الجندي الى لبس كمامة الواقية في الحال ، ولبسها يعرقل عملهُ ويضعف كفاءته العسكرية فاذا كانت الخطة العسكرية تقتضي عرقلة اعمال العدو وتأخيرها فقنبلة واحدة من هذا الغاز تكفي . وقد ادركت بعض الامم قيمة هذا الفصل من الناحية العسكرية ، وهي تضع الخطط الآن لبثّ قليل من هذا الغاز في كل قنبلة متفجرة تطلق

وغاز الخردل كذلك فتّاك شديد الفتك . فالجرعة القاتلة منهُ تختلف من ٦ . . ر الى ٢ ر من الاوقية في الف قدم مكعبة من الهواء . وذلك يتوقف على مدّة تعرض المرء لاستنشاقه . ولكن وجود جزء من الغاز في اربعة عشر مليون جزء من الهواء يكفي لتهيج الغشية المخاطية للعين . ويمكن استرواحهُ اذا وجد جزء منهُ في عشرة ملايين جزء من الهواء . ومع ذلك احترق جلد بعض الذين جلسوا على ارض لصقت بها آثار من هذا الغاز من دون ان تشمّ رائحتها ، اي ان مقدارهُ

كان اقل من جزء في عشرة ملايين جزء من الهواء الملاصق للارض

ولا بدَّ من الاشارة في هذا المقام الى ان مقدار تركيز الغاز في الهواء عامل واحد في قياس فعل الغاز ، وان العامل الثاني هو مدى التعرض لهُ

***

والصفة الثانية التي يجب ان يتصف بها الغاز الحربيّ الامثل ، صعوبة الوقاية منهُ اي انهُ يجب ان يخترق الوسائل التي يستعملها العدوّ للوقاية منهُ او اضعاف فعلها على الاقل. فلا يخفى ان جميع الدول قد صنعت وسائل متقنة للوقاية من الغازات الحربية . فاذا كان الغاز الحربيُّ عاجزاً عن التغلب عليها فقد كلَّ قيمته الاَّ اذا اطلق على العدوّ على غرّة منهُ اي عند ما يكون الجنود غير لابسين الكمامات الواقية . وهذا غير كثير الاحتمال لان الجنود يمرَّنون تمريناً دقيقاً على استعمال الكمامات بسرعة . نعم ان استعمال الكمامات يعرقل الجنديَّ المكمَّم ، ولكن ذلك ليس كل ما ينبغي من استعمال الغازات الحربية

فالغاز الحربيُّ الامثل لا يكتفي فيهِ بحمل جنود الاعداء على التكمُّم ، بل يجب ان يؤثر في اجزاء الجسم المختلفة اي يجب ان يهيج الاغشية في الرئتين والعينين والانف والجلد لان تغطية الجسم كلهِ من الرأس الى اخمص القدم ليس بالامر السهل . وغاز الخردل يتصف من هذه الناحية بهذه الصفات . فالوقاية منهُ تقتضي ان يرتدي الجندي رداءً مصنوعاً من قماش لا يخترقهُ الغاز ، وهذا الرداء اذا غطى الجسم تغطية تامة أرهق لبسهُ الجندي وجعل القتال وهو مرتديه متعذراً اكثر من بضع دقائق

واذا كان الغاز الامثل لا يؤثر في جميع اجزاء الجسم فيجب ان يكون مما يخترق الكمامات. ولكي يتصف بهذه الصفة يجب ان يكون غازاً لا يتفاعل مع غيره من المواد ولا تمتصهُ المواد التي توضع في الكمامات للوقاية من الغاز ، ولا يحجبهُ ذلك الجزء من الكمامات المعروف بالمصفاة والغرض منها منع الدقائق الجامدة والسائلة من الوصول الى جهاز التنفس

فالكلور وهو من اشدّ الغازات فتكاً ، لا يصلح من هذا القبيل لانهُ شديد التفاعل مع غيره من المواد ، فالوقاية منهُ من اسهل ما يمكن . ان قطعة من القماش مغموسة بالصودا اذا وضعت على الانف تمنعهُ من الوصول الى الرئتين . ويقابل هذا غاز يعرف باسم الكلورو بكرين ، وهو من الغازات التي يصعب جدًّا الوقاية منها

والصفة الثالثة التي يجب ان يتصف بها الغاز الحربيّ هي سهولة صنعهِ . فقد يفوز الكيماوي بصنع غاز متصف بجميع الصفات الكيائية والفسيولوجية في المعمل ، ولكن اذا كان صنعهُ صعباً

او يقتضي نفقة كبيرة فلا فائدة منه . فقد قلنا أن قليلاً من الغاز الحربي الكامل يجب ان يكون كافياً للفتك بجندي من جنود العدو او شله عن العمل ، ولكن الخطط العسكرية ، قد تقتضي احياناً استعمال طن منه للتأكد من وصول هذا القليل الى العدو

فقد وصف اصحاب الخيال من الكتاب بضع طائرات مجهزة بقنابل من الغاز في مكنها ان تطير فوق مدن كبيرة فتبيد الحياة منها بما تلقيه عليها من الجو . وهذا غلو لا مكان له من الحقيقة . نعم ان طائرة تستطيع ان تحمل من الغاز القتال ما يكفي لابادة سكان مدينة آهلة ، ولكن هذا لا يتحقق إلا اذا وصل كل جزيء من جزيئات هذا الغاز الى سكان تلك المدينة فالاصل في عمل الغاز وصوله الى من اطلق عليهم . وهذا قد يقتضي اطلاق مقادير كبيرة منه قبل الفوز بما يرام

واذن كائناً فعل الغاز ما كان ، فلا بد من تجهيز مقادير كبيرة منه . وكون العالم يستطيع ان يجهز بضع اوقيات منه في معمل البحث لا يعني أن المهندس الكيماوي يستطيع ان يصنع منه الوفاً من الاطنان . فالانتقال من الانتاج العلمي الى الانتاج العملي التجاري ، عمل قلما يكون سهلاً . ويقال ان الانكليز عرفوا غاز الخردل قبل الالمان وأدركوا فائدته الحربية ولكنهم عجزوا عن صنعه صنعاً تجارياً ، فسبقهم الالمان الى ذلك واستعملوه اولاً

ثم ان الغاز الحربي الكامل يجب ان يكون رخيصاً . وهذا الشرط ينطبق بوجه عام على جميع الذخائر الحربية . فاذا كانت المتفجرات او المواد الكيمائية غالية الثمن وجب البحث عن غيرها مما هو ارخص منها ليحل محلها ، فالمال عصب الحرب ، او هو احد اعصابه الرئيسية وقد تسخو الحكومات عند اشتداد الازمة حيث كانت تحرص ، ولكن الانفاق له حدود ، لا تستطيع اية حكومة ان تتعداها . فاذا كان لدى حكومتين مادتان حربيتان قريبة احداهما من الاخرى في الفعل ، وكانت اقلهما فعلاً ارخصهما ثمناً ، فالغالب ان الحكومة تؤثر الرخيصة على الغالية . فغازنا الحربي الكامل لا يكون كبير القيمة إذا كان غالياً . لان قتل العدو مسألة قروش وملاليم !

***

والصفة الرابعة التي يجب ان يتصف بها الغاز الحربي الكامل هي ان يكون صنعه ممكناً من مواد خام تكثر في البلاد التي يصنع فيها ، فلا تحتاج في صنعه الى استيراد مواد من الخارج قد ينقطع ورودها في اثناء الحرب . بل يجب ان تكون هذه المواد الخام ، مما لا يكثر الطلب عليه في صناعة الذخيرة الحربية بوجه عام ، لئلا تفضي كثرة الطلب الى غلائها فغلاء الغاز الحربي

الذي يصنع منها . فالمكلفرا مثلاً صعب عليها بعض الشيء في خلال الحرب الحصول على عنصر البروم لصناعة الغاز المدر للدموع لذلك استنبط رجالها مركباً آخر يدخل اليود في تركيبه وهو المركب المعروف باسم « اثيل ايودراسيتات » . ولكن بعد الحرب استنبطت وسائل جديدة لاستخراج عنصر البروم من ماء البحر

ويجب ان يكون نقله سهلاً . فمشكلة النقل في اثناء الحرب مشكلة كبيرة وكل ما يتوفرها ويجعل النقل صعباً يضيف الى متاعب القوّاد . بل يجب كذلك ان يكون نقله غير محفوف بالخطر . فكل مادة يصعب حصرها في انابيب او اسطوانات او تأكل الاسطوانات التي توضع فيها بتفاعلها الكيائي معها ، غير مرغوب فيها بوجهٍ عام . فمادة « البرومبنزلسيانيد » تأكل الصلب والحديد وتفقد فعلها الفسيولوجي ، ولذلك يتعذر وضعها في القنابل او الاسطوانات العادية كغاز الخردل ، بل يجب ان توضع في اسطوانات من زجاجات او اسطوانات معدنية مطلية من الداخل بالميناء . وهذه امور تضيف الى نفقة صنع الغاز ، وتزيد ثقل الادوات التي تحتويه

ويجب ان يكون مستقر التركيب اذ لا فائدة من غاز تصنعهُ وتضعهُ في اسطوانات ثم اذا انقضت عليهِ ايام او اسابيع تحلل الى مواد لا تضر احداً اذا اطلقت عليهِ . ولا يخفى ان كل جيش من الجيوش ، يحتاج الى الناد الحربيّ عند بدء الحرب ، اي ان عدتهُ من المواد الحربية الكيائية ، يجب ان تكون مجهّزة قبل بدء الحرب . فاذا كانت من المواد غير المستقرة التركيب ، كان لا فائدة منها على الاطلاق ، وكان كل مال ينفق على صنعها واعدادها مالاً مضاعاً . وافضل مثل على ذلك « سيانيد الايدروجين » . فهو يتصف بصفات تجعلهُ غازاً حربيًّا فعّالاً ولكنه غير مستقر التركيب . وغاز الخردل يفوقهُ في هذه الناحية ، فان كاتب هذه السطور رأى اسطوانات مملوءة بغاز الخردل سنة ١٩١٩ وفتحت من عهد قريب فاذا الغاز الذي فيها لم يطرأ على تركيبه تغير ما

واخيراً يجب ان يكون الغاز الحربي الكامل مما يصعب تبينهُ اي يجب ان يكون لا لون لهُ ولا رائحة ولا طعم . ولا اعرف الا غازاً واحداً متصفاً بهذه الصفات وهو غاز اول اكسيد الكربون . ولكن هذا الغاز لا يتصف بجميع الصفات الاخرى . وغاز الخردل يفوقهُ من هذه الناحية كذلك كما يفوق معظم الغازات الحربية من نواحٍ اخرى . فغاز الخردل في حالته البخارية لا لون لهُ ، ومع انه قوي الرائحة ، الا انه بعد استنشاقه دقيقة من الزمان يشلّ عصب الشمّ

***

وعلى ذلك يرى القارىء ان بلوغ الكمال في الغاز الحربيّ متعذر تعذره في سائر اعمال الحياة ونواحيها ، ولكن غاز الخردل هو اقرب الغازات التي امتحنت الى الكمال على ما يعلم

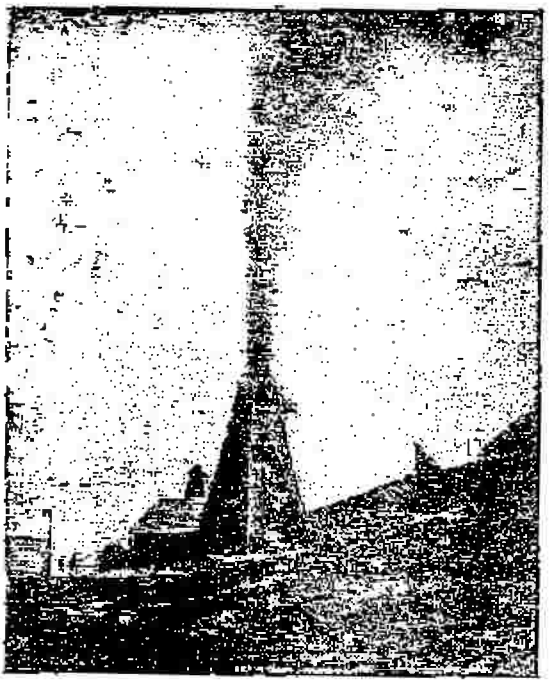

صورة لمن النفط وقد انطلق النفط منها بقوة عظيمة

صورة المحطة العمومية ببناء الغردقة وفيها تظهر الصهاريج الخازنة والمضخات
التي تشحن ناقلات البترول

البترول والحضارة

بين الطبيعة والاستنباط

حبيب اسكندر
ناظر القسم الثانوي بجامعة القاهرة الاميركية

البترول كلمة لاتينية مركبة من كلمتين معناها زيت الصخر وسمي كذلك لانه سائل كالزيت ينبع من بين بعض الصخور . وهو وان كان معروفاً قبل مطلع التاريخ عند قدماء المصريين والصينيين واليابانيين وهنود اميركا الاصليين الاَّ ان استخدامه في غايات نفعية راجع الى العصور الحديثة . فصناعة تكرير البترول ظهرت في عالم الوجود اولاً في باكو سنة ١٨٢٥ أي منذ ١١٠ سنين وصناعة البترول في الولايات المتحدة التي تقدر رؤوس اموالها بنحو ٩٠٠٠ مليون ريال (اي نحو ٢٠٠٠ مليون جنيه) بدأت سنة ١٨٥٩ اي منذ ٦٧ سنة لا غير . ثم ان زيت القطر المصري اكتشف سنة ١٨٨٦ ولم يبدأ العمل في استخراجه الاَّ بعد عام سنة ١٩١٣

ومع حداثة هذه المادة في العالم الصناعي فقد تبوأت مقاماً سامياً قد لا يباريها فيه الاَّ الحديد وأصبحت من الحاجات الضرورية التي لا غنى للانسانية عنها والتي تزداد الحاجة اليها يوماً بعد يوم . وذلك لاستخدام مستخلصاتها في جميع الاجهزة الحديثة ولولاها لشلت حركة السيارات والطائرات ووقف دولاب كثير من الآلات والقاطرات والسفن التجارية والحربية . وبصرف النظر عن استخدامها في الوجوه السابقة المدونة فقد وجد فيها الكيماويون أرضاً خصبة للبحوث العلمية ولتركيب مواد كثيرة نافعة كالكحولات ومشتقاتها والكاوتشوك الصناعي وغيرها من المواد التي تختلف في طبائعها عن البترول والتي نستحضرها من مصادر اخرى

(امتكشاف مناطق البترول وإستخراجه من الارض) : ليس من السهل الاستدلال على مناطق البترول لان دور تكوينه غير مفهوم وفيه مجال واسع لتضارب الآراء ثم لانه سائل لا يستقر في مكان تكوينه كالفحم بل يميل إلى الهجرة . فيوجد أحياناً فوق طبقات جيولوجية حديثة وأحياناً فوق طبقات قديمة جداً . كذلك يوجد احياناً في تلال تكسوها الغابات كما في بنسلفانيا بامريكا . وأحياناً في صحارى قاحلة كما في ساحات كليفورنيا ومصر

ويصحب البترول غالباً ماء ملح وغازات قابلة للالتهاب تحت ضغط شديد وهما من أهم العوامل التي تساعد على صعود الزيت إلى سطح الارض . وقد توجد احدى هذه المواد الثلاث من دون الاخرى فقد يخرج ماء ملح فقط أو غاز فقط عند ما يتوقعون خروج الزيت

لذلك يعاني رواد البترول مشقة عظيمة في سبيل كشف مناطق الزيت وحفر الآبار وتحطيم صخورها وازالتها بالآلات البخارية ويتكلفون نفقات طائلة . وبعد ذلك لا يعثرون على شيء من الزيت . فالعمل فيه أشبه شيء بالمقامرة . ففي مصر مثلاً حصلت جماعات مختلفة من الحكومة على ١٥٠ رخصة للبحث عن البترول في مناطق مختلفة وكان نصيبها من النجاح قليلاً بدليل ترك أصحاب الرخص في أغلب الحالات جهات امتيازهم. وقد قدرت الاموال التي صرفت في البحث عن زيت البترول بغير جدوى قبل الحرب بثلاثة أرباع المليون من الجنيهات . وقيمة هذا المبلغ في ذلك الوقت ثلاثة أو أربعة أمثال قيمتها في الوقت الحاضر

وعند ما يراد حفر آبار البترول يقام اولاً برج من الخشب مثلث القاعدة يسمى Derrick وفي نظري ان أحسن ترجمة لها المثلثة لانها سميت باسم جلاد في اوائل القرن السابع عشر كان يسمى (Derrick). يبلغ ارتفاع البرج ٧٠ قدماً ومساحة قاعدته ٢٠ قدماً مربعة ومساحة قمته ٤ أقدام مربعة ثم يركبون على قمته عجلة او بكرة يمر عليها حبل مربوط بمثاقب من الفولاذ يختلف شكلها باختلاف نوع الصخر ثم يتصل طرفه الثاني بمحرك بخاري لرفع المثاقب وخفضها في انبوبة حديدية متينة في الارض . ثم ترفع المثاقب وتخفض مرات متتالية لتثقيب الصخور كما يشاهد في بعض المبارات وبعد ذلك تزال الصخور المفتتة بمضخات خاصة . وتختلف اعماق الحفر في ساحات البترول المختلفة . ففي مصر يتفاوت العمق بين ٢٨٠٠ الى ٧٠٠٠ قدم وهم الآن يستخرجون هذا المعدن النفيس في امريكا من اعماق تفوق ٤٠٠٠ قدم ويقال ان هناك بئراً في ساحات Athens من اعمال California تخرج زيتاً من عمق ٧٣٠٠ قدماً (١٣/٤ ميل) وهي مسافة لا يستهان بها إذ كانت تحت الارض وناهيك ما يكلف حفرها الناس من مال وتعب . وقد يزدهر العمل في بعض الساحات فيحفر فيها عدد كبير من الآبار وتظهر هذه الابراج بشكل غريب يستوقف النظر

* * *

وتكثر ساحات البترول في امريكا وفي روسيا حول سواحل بحر قزوين وفي جاليسيا ورومانيا والمجر وبلاد العجم والعراق وفي مصر حول سواحل البحر الاحمر في ساحات جمسا والغردقة . وقد حفرت في ساحة جمسا ٢٢ بئراً نجح منها ست ونضب منها ثلاث . وأما ساحات الغردقة فأهم من ساحات جمسا واوسع نطاقاً واكثر انتاجاً فقد حفرت فيها ٤٦ بئراً حتى شهر اكتوبر سنة ١٩٢٦ وبلغ مقدار ما تنتجه ساحات مصر ٦٥٠ طناً في اليوم . ويقدر البترول المستخرج من

منطقة الغردقة بنحو ١٤ مليون من الاطنان في ١٣ عاماً. وفي منطقة جمسا ٠٠٠ر١٨٢ طن واعظم مقدار من البترول استخرج في سنة واحدة هو ٠٠٠ر١٨٠ طن . والتزام استخراج الزيت في هاتين الساحتين معقود للشركة المصرية الانجليزية لمناطق البترول وهي الشركة الوحيدة التي نجحت في اعمالها وامكنها الاستفادة من استغلال المساحات المؤجرة لها . ولا تزال التجارب قائمة بقرب سواحل البحر الاحمر ومناطق سيناء . ولم تتحقق نتائجها بعد . ويقرر الخبيرون أن السواحل المصرية تحتوي كثيراً من آبار البترول الغزيرة . وقد بلغت المساحة المخصصة لاعمال البحث عن البترول في سنة ١٩٢٢ نحو ٦٦٠ كيلو متر مربعاً والمساحة المؤجرة لاستخراجه ١٤ كيلو متراً مربعاً

﴿ انفجار ينابيع البترول ﴾ أشرنا في كلامنا السابق الى ان الطبقات الارضية او مناطق البترول مشبعة بغازات مضغوطة وقد يحدث عند حفر بعض الصخور ان ينفجر ينبوع الزيت بقوة ضغط الغاز ويتدفق منه الزيت بقوة عظيمة . فقد حدث مرة في سنة ١٨٨٢ أن انفجر ينبوع بترول في ساحات باكو وفار منه الزيت والرمل بقوة هائلة وزئير مخيف سمع على بعد بضعة أميال من مكان البئر . وانخلع من جراء هذا الانفجار سقف البرج وتصدعت جوانبه وكان ارتفاع النافورة الزيتية ٣٠٠ قدم ثم طغى الزيت على الارض المجاورة فغمرها بركاً وغطى الرمل المقذوف جميع الابنية والحوانيت المجاورة . وقد قدّر متوسط ما أخرجه هذا البركان الزيتي الثائر بمليوني جالون من الزيت يومياً . وبدأ الانفجار في أول سبتمبر وفي منتصف نوفمبر كان لا يزال متدفقاً بمعدل ٢٤٠ الف جالون في اليوم . ويقال ان هذه البئر كانت ملكاً لشركة أرمنية صغيرة لم يكن لها ملك حول البئر لعمل صهاريج لحفظ الزيت ولذلك طغى الزيت على الاملاك المجاورة ولم يستفد أصحاب البئر شيئاً

ولقد حدث شيء من هذا في مصر فقد انفجر ينبوع بئر من آبار جمسا سنة ١٩١٤ فخرج منها في اليوم الاول ٤٠٠ طن طفحت الى البحر الاحمر وطمت على ما جاورها من التلال وأودت قوتها بحياة عامل ولم يفلح أي سعي في التغلب على تيارها الجارف

﴿ البترول الخام ﴾: سائل يشمئز منه الناظر يطفو فوق سطح الماء لا يصلح للاستعمال في المصابيح لتزوجه وتلوثه بمواد غريبة . ويستعمل أحياناً وقوداً في القاطرات والسفن وهو يختلف كثيراً من حيث خواصه الطبيعية والكيائية . فبينما تجد بعض الزيوت ثقيلاً أسود اللون لزجاً إذا بعضها سائل خفيف ذو لون أصفر باهت ويحتوي على نسب مختلفة من البنزين والكيروسين والمواد الثقيلة . وليس هذا الاختلاف قاصراً على الزيوت في بلاد مختلفة بل كثيراً ما يلاحظ في الزيوت المستخرجة من جهات متقاربة من بلد واحد بل وفي آبار تستمد زيتها من نبع واحد . وقد يختلف نوع الزيت الذي يستخرج من بئر واحدة باختلاف العمق . اما زيت جمسا فصنفه جيد وثقله

النوعي خفيف . وهو يحتوي على ٢٠ ٪ من البنزين ويعدل أجود أنواع البترول في العالم . ومن آبار الفردقة ما تنتج الآن زيوتاً تختلف بعض الشيء عما كانت تنتجه من بضع سنين

ومن الوجهة الكيائية يعد البترول مزيجاً من مركبات كيائية عديدة كلها مركبة من عنصري الايدروجين والكربون واسمها في الكيمياء «ايدروكربونات» منها السائل ومنها الغاز ومنها الصلب ومنها المشبع وغير المشبع . ويخالط هذه المركبات مقادير قليلة من مركبات الكبريت والازوت والاكسجين وبلوثه ماء وملح ومواد أرضية

تنقسم أنواع البترول الى ثلاثة أنواع رئيسية وهي : —

(١) بترول قاعدته البرفين — وهو البترول الذي يحتوي على قليل من الاسفلت وكثير من مركبات الكربون والايدروجين التابعة لسلسلة البارفين والتي قانونها الكيماوي $C_n H_{2n+2}$ والتي تكون المواد المعروفة بشمع البرافين والزيوت التي من هذا النوع أثمن أنواع البترول من وجوه كثيرة

(٢) بترول قاعدته Napthene وهو الذي يترك بقية ثقيلة من الاسفلت — القار — وتمتاز في هذه الزيوت الايدروجينات الكربنة التابعة للسلسلة Napthene التي قانونها الكيماوي $C_n H_n$

(٣) بترول قاعدته خليط من القاعدتين السابقتين

﴿ تقطير البترول وتكريره ﴾ : قلنا ان البترول الخام عند استخراجه من آباره لا يصلح للاستعمال وهو في حالته الطبيعية بل لا بد من تعريضه للسلسلة من عمليات التقطير والتكرير لكي يمكن تجزئته الى المواد البترولية المعروفة مثل : البنزين والكيروسين وغيرهما

وتشيد مصانع التكرير غالباً بالقرب من السواحل بعيداً عن ساحات الآبار . وينقل الزيت الخام بضخات في انابيب ممتدة من فوهات الآبار الى خزانات فرعية فخزانات اساسية ثم الى الخزان العام القريب من مصنع التكرير ويبلغ مجموع أطوال هذه الانابيب في بعض الجهات مئات الاميال . ففي ساحات مصر يبلغ طول الانابيب الممتدة ١٥٠ كيلو متراً . وفي الولايات المتحدة يبلغ مجموعها في جميع الساحات نحو ١٠٠٫٠٠٠ ميل يمر فيها بالضغط ١٠٠٫٠٠٠ برميل يومياً

ويكرر البترول غالباً بالتقطير المجزىء في اسطوانات كبيرة من الحديد سعة الواحدة منها تتفاوت بين ٥٠٫٠٠٠ الى ٦٠٫٠٠٠ جالون ثم يمر البخار الخارج في انابيب التكثيف المعرضة للماء البارد . وتستقبل السوائل التي تنفصل عند درجات الحرارة المختلفة في مستودعات منفصلة ثم تنقى اولاً بالحامض الكبريتيك ثم بالصودا الكاوية والماء

وهاك اسماء الاجزاء الرئيسية لتقطير البترول في درجات الحرارة المختلفة

(١) بين درجتي ٤٠ م و ٧٠ م يخرج منه سائل شديد التطاير يسمى اثير البترول يستخدم

مخدراً في العمليات الجراحية وذلك بتبريد السطح المراد اجراء العملية الجراحية فيه

(٢) بين درجتي ٧٠ م و ٩٠ م يخرج الجازولين

« « ٨٠ م و ١٢٠ م يخرج البنزين

والجازولين والبنزين سائلان عديما اللون يستخدمان وقوداً لمحركات السيارات والطائرات ثم يستعملان في تنظيف الملابس واذابة كثير من المواد التي لا تذوب في الماء كالصمغ والزيوت والكاوتشوك

(٣) بين درجتي ١٢٠ م و ١٥٠ م يخرج سائل يسمى زيت النفط او زيت التنظيف الذي يستعمل في التنظيف ثم يقوم مقام زيت التربنتينا في عمل الورنيش

(٤) بين درجتي ١٥٠ م و ٣٠٠ م يجهز زيت الكيروسين وهو زيت الاحراق المعروف بالجاز وفائدته معروفة للخاص والعام

(٥) والاجزاء التي تجمع فوق درجة ٣٠٠ م يحضر منها زيوت الوقود وزيوت التشحيم والفازلين (الذي يستعمل في حفظ الحديد من الصدإ وعمل المراهم الطبية) وشمع البرافين الذي يصنع منه بعض انواع الشمع العادي

(٦) ويبقى بعد ذلك مادة فحمية كالقار تستخدم في فرش الطرق وعمل الاسفلت

اما مصنع التقطير في السويس فيكتفي فقط بتحضير البنزين والكيروسين واما ما يبقى بعد ذلك فيباع باسم المازوت او زيت الوقود ويبلغ مجموع ما تكرّره الشركة في السويس ١٠٠٠ طن في اليوم نصفها ٥٠٠ طن من المازوت وربعها ٢٥٠ طناً من الكيروسين والربع الآخر ٢٥٠ طن من البنزين وفي الولايات المتحدة نحو ٢٦٧ مصنعاً تكرر البترول تقطر يومياً نحو مليون وميل من البترول

كان الكيروسين فيما مضى أهم مستخرجات البترول الكثيرة الطلب وكانت الجهود تبذل للاكثار منه. اما اليوم فقد اصبح البنزين او الجازولين مطلوباً اكثر منه لازدياد عدد السيارات لذلك دعت الحاجة الى الاكثار من إنتاجه وابتكار طرق لتحويل المواد البترولية الثقيلة الى بنزين. ونقد توصل الكيماويون الى هذه الغاية وتمكنوا بعملية تسمى « تجزئة الزيت » Cracking of oil من تحويل المواد البترولية الثقيلة الى مواد اخف. وتلخص عملية التجزئة هذه في رفع درجة الحرارة للمادة التي تحت التكرير الى درجة اعلى من المطلوب عادة مع زيادة الضغط على السائل فينتج من ذلك حل جزيئات المواد الثقيلة الى غيرها اخف منها. ولقد افادت هذه العملية صناعة البترول فوائد اقتصادية عظيمة فبها الآن يحصلون على جازولين بعادل ٣٣٠/٠ من الزيت ويؤملون بعد عشر سنوات او نحو ذلك أن تزيد هذه النسبة حتى تصل الى ٧٥ ٪ بفضل ما يدخلونه على عملية التجزئة من ضروب التحسين والاتقان

﴿ البترول والبحوث العلمية الحديثة ﴾ ان ما يجعل للبترول مقاماً كيائياً عليًّا هو أنه مزيج من عدد عظيم من الايدروكربونات منها الغازات الذائبة والسوائل الخفيفة والثقيلة والاجسام الصلبة — ومنتجات التقطير التي أشرنا اليها ما هي الاَّ خلطات مركب كل منها من مواد كثيرة تمزج بعضها ببعض . فهو أشبه شيء بقطران الفحم الحجري من حيث كثرة ما فيه من المواد . ويؤمل العلماء أن اليوم الذي يصير فيه البترول كالقطران مصدراً لصناعات كيائية بات قريباً لاهتمام الحكومات والافراد بتشجيع تجاربه العلمية . فقد تبرع روكفلر الاميركي « وشركة انتجة الزيت العمومية » بنصف مليون ريال لترقية الابحاث العلمية المختصة بالبترول في اميركا . والفت جمعيات واقيمت مؤتمرات خاصة لدرس هذا الموضوع من جميع الوجوه العلمية والجولوجية والكيائية — وتمكنوا من صناعة كثير من انواع الكحول من البترول ومن الكحولات يستطيع الكيماوي تحضير عدد كبير من الحوامض والمركبات المختلفة . ثم من منتجات البترول توصلوا الى عمل مواد مارنة كالمطاط تستعمل بدل الكاوتشوك الطبيعي . ولقد أتيح لهم تحويل معظم البترول الى ايدروكربونات غير مشبعة واضافة عناصر أخرى كالكلور والاكسجين اليها والحصول على كثير من المواد النافعة بعضها معروف وبعضها لم يعرف من قبل

وبالاختصار يتوقع العلماء مستقبلاً باهراً للبترول في ترقية الصناعات الكيائية ونشر وسائل المدنية وانزال أثمان كثير من كماليات المعيشة وزيادة رفاهية الانسان . ولكي تدرك ما يرجى لهذه الابحاث العلمية نترجم لكم ما قاله في هذا الصدد المستر Morris رئيس الجمعية الكيائية الاميركية في أكتوبر سنة ١٩٢٦ في عبارة شعرية لا تخلو من التسلية قال :—

« هل لي أن أطمع في عفو القارىء اذا سبح فكري في بحر الخيال وأنا أتأمل في مستقبل البترول كمصدر للكمالات الحيوية

« ليتصوَّر القارىء نفسه في عصر يوم عليل النسيم جوه صافي الادهم فقرَّ رأيه على أن يخرج للنزهة في سيارة يجوب الخلوات . فيفحص مستودع سيارته فاذ به غير مملوء وليس به الاَّ القليل من السائل الذي يستمد منه الوقود ولكنه سيكفي حتماً بفضل التضغط ونوع الوقود الذي يكفي الجالون الواحد منه السير لاميال طويلة . ثم يرجع ببصره كرَّة الى الزيت الذي تشحم به أجزاء العربة فيجده وافياً بالمرام على أنه لم يلتفت الى تغييره منذ أشهر . ثم ينظر نظرة أخرى الى طلاء السيارة ولمعان أدهانها فلا خدش فيها فهي مرنة ومتماسكة الى الحد المطلوب . والاصل في كل ما ذكر البترول . ثم ينظر الى اطارات العجلات وكيف انَّ مطاطها لا تظهر عليها آثار البلى والقدم بالرغم من انها قطعت مسافات طويلة . الاَّ ان أصلها البترول . ثم يتكىء بيده على مقاعد العربة وقد خمت من الجلد الصناعي فاذ هو مرن ناعم أملس قابل للَّي والطيّ مقاوم للحرارة

والشمس وكثرة الاستعمال والاصل فيه البترول . ثم يدير وجهه يمنة ويسرة وأمامه وإلى الوراء وينظر خلال منافذ العربة الشفافة وموانع الهواء التي تحلت بكل ميزات الزجاج وبرزت عليه في أنها لا تتشقق ولا تتكسر . والاصل فيها البترول . ثم ينظر في اللوحة المركبة عليها آلات التسجيل وكيف ان مرآها أشبه شيء بمصقول الابنوس . والاصل فيها البترول

«وهبه قد رأى شحماً على أجزاء سيارته فكشطه بيده فعلق بها وأراد أن يزيل اللوثة عنها فلا خير له من ذلك الصابون العجيب الذي يحضر من البترول

« وبعد يمتطي سيارته ويلقي عصا التسيار الى واد كمنعرج اللوى فيرى النعلة وهم مخدون في توسيمه وفي حاجة الى مفرقعات يقتلعون بها عاتي الصخور . فلا يسعفهم الا مستخرجات البترول

«ثم اذا هو في طريقه يرى مصنعاً قائماً به معدات تحضير الاوشاذر الضرورية لتسميد الارض والسماد قوام خصبها والايدروجين اللازم لتلك الصناعة الحيوية . الاصل فيه البترول

«واذا طالت به النزهة واحس بوعثاء السير وشعر بالحاجة الى مرطب فيقف عند مخزن ادوية او عطار فيطلب شراباً منعشاً فيه طعم الفاكهة ونكهة ألذ الثمار فيعطى شراباً مزاجه بترول . واخيراً يسترسل في المنشات فيطلب مثلوجاً به قشدة يجدها لذيذة حلوة ناعمة ملساء أصلها البترول

«ثم ينكر قليلاً كما ينكر الكيماوي فيما كشف او ركب حديثاً من العقاقير التي يحسن ان يلجأ اليها كل من كان مستقبلاً لازمة مجهدة لجسمه او عقله او من كان متعباً من ارق فبات ليله مسهداً واصبح في أشد الحاجة الى منوّم او من تملكه داء الكر — وقانا الله شره — فاحتاج الى دواء يصد به هجمة ذلك الداء . او رام مطهراً خفيفاً يناسب المطالب المنزلية — او احب ان يزيل بقعة دهنية من نسيج دقيق رقيق لا يحتمل شديد الملك والتنظيف او رغب في ملين داخلي . او بالاجمال طلب المئونة من وجوهها الكثيرة التي يلجأ فيها في عصرنا الراقي المتمدين الى مخزن الادوية . فانه مهما توجه او دار واقع لا محالة على ما الاصل فيه البترول

«حتى اذا ما قضى لباناته عاد فوثب في سيارته الجميلة فوطئت قدماه ما قد غطى به ارضها من مادة متينة تقاوم وطأ الاقدام مهما اشتد رأى البترول مبث تلك المتانة

« وبعد كل ذلك يرى الوقت قد حان الى تناول لفافة من التبغ (الدخان) يستطيب طعمها لأن تبغها قد احتوى القدر المناسب من الرطوبة بفضل ما اودع منه من مادة تخص ما يحتاج اليه التبغ من الماء بالقدر المعلوم واصل تلك المادة البترول . ثم قد يمر بمستشفى فيدور بخلده ما هنالك من مخدرات يستعين بها الاطباء في عملياتهم فلا تترك في المرضى الآثار الوبيلة التي يتركها الكلوروفورم أو الاثير ، الاصل فيها البترول

«وقد يمضي اليوم كله على ما قدمنا وانت بحاصرك من جميع جهاتك كما رأيت صاحبنا البترول»

﴿ اصل البترول ﴾ : يهتم الكيماوي كثيراً بالبحث عن اصل المواد ونشوئها وكيفية تكوينها في الطبيعة وفي هذا البحث فوائد جمة من الوجهتين العلمية والصناعية لانه ينير الطريق امام المشتغلين بالعلوم ويساعد على كشف مصادر جديدة وطرق نافعة في الحياة العملية . فالفحم الحجري الذي نستخرج منه كل عام نحو ١٫٥٠٠ مليون طن أصله نباتات كانت تعيش في الازمنة الجيولوجية القديمة . ثم سقطت وتراكمت عليها طبقات ارضية وتعرضت لضغط وحرارة عظيمين مدة آلاف من السنين فحصل فيها تحلل كيماوي انتهى بها الى المادة المعروفة بالفحم الحجري . وجميع العلماء تقريباً مجمعون على هذا الرأي

أما البترول الذي نستخرج منه سنوياً نحو ٧٢ مليون طن فلا اجماع على اصله ونشوئه فقد اختلفت في تعليل تكوينه الآراء . فمن العلماء من يقول إن اصل البترول مواد معدنية ومن قائل أن اصله مواد عضوية

فيقول بعض انصار المذهب الاول ان اصل زيت البترول وجود مركبات الكربون والفلزات — كربورات الفلزات — مثل كربور الحديد والمتجمع في بطن الارض على درجة عالية من الحرارة . ثم حدث ان طرأت على القشرة الارضية في بعض الجهات تغيرات سببها تفلصها فتسرب الماء الى هذه المركبات السابقة وتفاعلت معها تفاعلاً كيمائياً . ونتجت كربورات الايدروجين التي تكاثفت واختلط بعضها ببعضها منتجة البترول . ومن انصار هذا المذهب مندليف العالم الروسي واضع الترتيب الدوري للعناصر . وحجته في ذلك وجود الزيت في بعض طبقات أرضية تابعة لعصور يتعذر علينا فرض مجمع مواد عضوية فيها تكفي لتكوين زيت البترول

وهنالك رأي آخر لعالم كيماوي مشهور وهو المسيو Sabatier صاحب طريقة تصلب الزيوت بالايدروجين الذي نال من اجلها جائزة نوبل المشهورة . يفرض هذا العالم وجود فلزات قلوية كالصوديوم والبوتاسيوم ثم كربورات هذا الفلزات في بطن الارض ولما تسرب الماء الى هذه الفلزات وكربوراتها تفاعلت معه وانتجت الاولى ايدروجين والثانية استلين اختلطا أحدهما بالآخر وبمساعدة بعض فلزات اخرى مثل النيكل والكوبلت والحديد الموجودة طبعاً في باطن الارض اتحد الايدروجين والاستلين اتحاداً كيمائياً وكوّنا البترول الذي هو مخلوط من الايدروجينات الكربونة

هذا وانصار المذهب العضوي يقولون ان اصل البترول من مواد حيوانية ونباتية تجمعت في الازمنة الجيولوجية الغابرة ثم تعفنت وتحللت وحصل فيها ما حصل للنباتات عند تكوين الفحم الحجري وحدث بعد ذلك أن ارتفعت درجة الحرارة فخرج من هذه المواد البترول والفلزات المختلطة به . والذي يعزز رأيهم هذا تمكنهم اخيراً من عمل سائل كالبترول الخام من فعل الحرارة

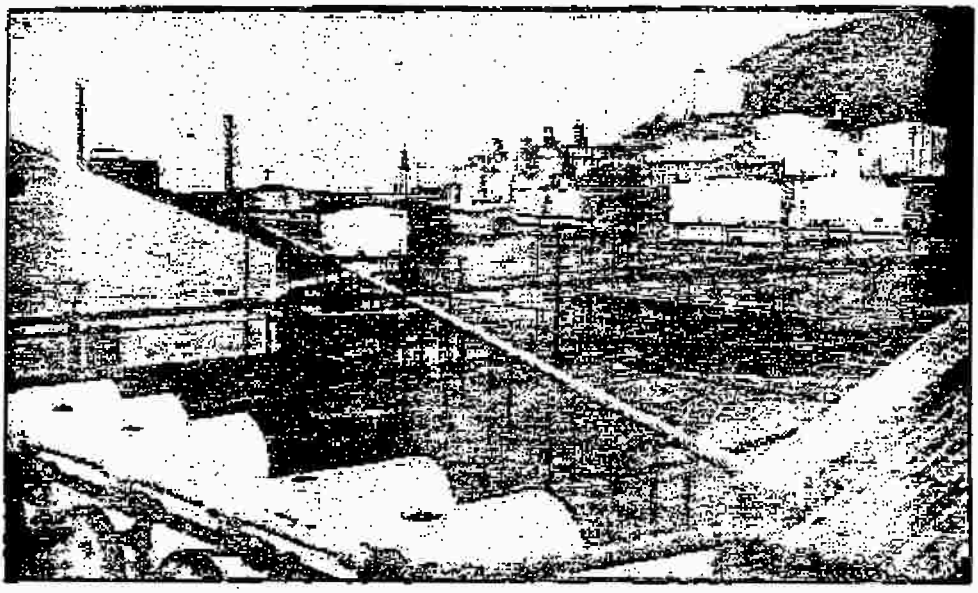

منظر عام لاجهزة فصل المياه عن البترول في المردقة وفيها يستعمل
التيار الكهربائي العالي الضغط

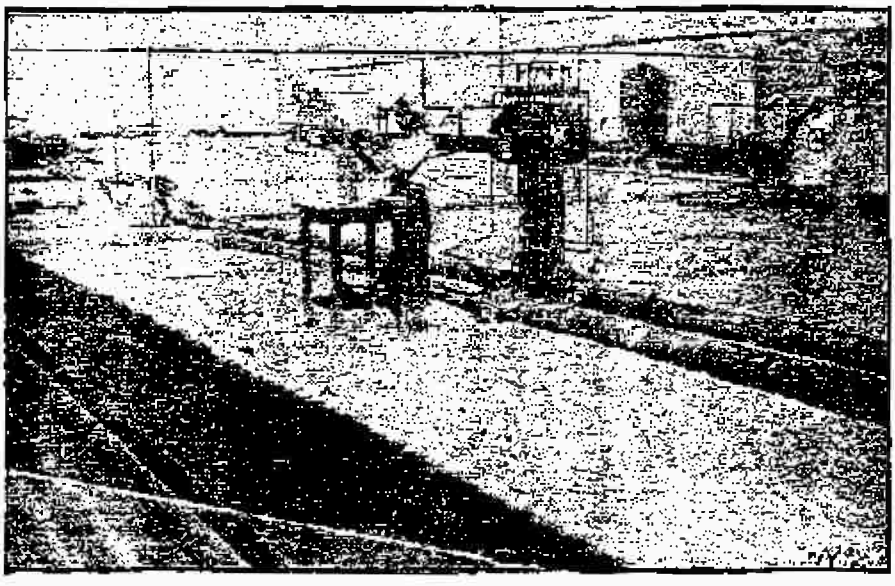

شاب مصري في المردقة يقيس الكثافة النوعية للغاز الذي يستخرج الجازولين منهُ
ويستعمل بعد ذلك وقوداً

في الفحم الحجري . ومن احدث الآراء في نشوء البترول الرأي الآتي : —

عند درس فعل اشعة الراديوم الكيماوي وجدوا ان الاشعة الفا تحول غاز البرك (الميثان) الى مخلوط من المركبات يشبه البترول الخام . فهذا حدا بالبعض الى الظن ان اصل البترول مواد عضوية تحولت اولاً الى غاز البرك ثم تحول هذا المركب الى البترول بفعل الاشعة الفا المنطلقة من المواد المشعة في الصخور . والذي يعزز هذا الرأي وجود الهليوم في كثير من الصخور

(البترول كمصدر من مصادر القوة) : ان مكانة البترول في الوقت الحاضر تكاد تنحصر في توليد القوة والطاقة عند استخدامه كوقود سائل . فان ٢٢ ٪ من القوة التي يستخرجها العالم المتمدن مشتق من البترول و ١٧ ٪ منها مشتق من الفحم الحجري واكثر ما تستخدم المواد البترولية في تسيير حركة النقل بالسيارات والسفن والطائرات . واقل واحدة منها تستنفد مقادير هائلة منه

خذ السيارات مثلاً التي تسير بالبنزين . فقد دل الاحصاء الحديث ان عدد السيارات في العالم في اول يناير سنة ١٩٣٦ يعادل ٢٤٥٨٩٢٤٩ منها ١٩٩٥٤٣٤٧ في الولايات المتحدة فقط أي ٨٠ ٪ من سيارات العالم ويليها بريطانيا العظمى ٨١٥٩٥٧ ثم فرنسا ٧٣٥٠٠٠ ثم كندا ٧١٥٩٦٢ ثم المانيا ٣٢٣٠٠٠

ونسبة الاشخاص للسيارة الواحدة في الممالك الكثيرة السيارات كالآتي : —

الولايات المتحدة	٦	فرنسا	٥٣
كندا	١٣	بريطانيا	٥٥
نيوزيلاند	١٤	المانيا	١٥٠
استراليا	٢٠	مصر	٨٥٠

وهذه النسبة ستنقص طبعاً بمر الايام اي ان عدد السيارات سيزيد بتقدم الحضارة ويقول الثقاة ان عدد السيارات في سنة ١٩٥٠ سيصير ٤٥ مليوناً اي بزيادة ٥٠ ٪ لكل ٥ سنوات وهذا يتطلب ١٩ مليون جالون من الجازولين

ويقدر ما استنفد من الجازولين (البنزين) سنة ١٩٢٥ (٩١٦٥ مليون جالون)

والسؤال الطبيعي الذي يدور في خلد كثير من الناس والذي يهم الكثير من الدول هو : هل يوجد في الارض مقادير من الوقود تكفي حاجات العالم المتزايدة ؟ . . يتفق كثير من العلماء على أن مقادير الفحم الموجودة تكفي الوفاً عديدة من السنين . اما موقفهم ازاء البترول فيختلف عن موقفهم ازاء زميله الفحم اختلافاً عظيماً . من السهل على العلماء الطبيعيين تعيين مناطق الفحم وتحديدها وتقدير سمكها ومعرفة مقدار ما فيها كما انه لا خوف على الفحم اذا ترك مكانه للحاجة المستقبل بخلاف ذلك البترول فكما ذكرنا انه من الصعب العثور عليه وتحديد مناطقه ومعرفة

مقداره . ثم اذا عثرنا عليه في منطقة ما لا يمكن تركه لحاجة المستهلك لانه بطبعه نزاع الى الهجرة فربما يهرب ولا نعثر عليه ويكون البعض أن موارد البترول ستنضب بعد مدة تختلف من عشر سنوات الى ٧٥ سنة وهذا لا شك أجل قصير لمادة من افيد المواد اللازمة للحضارة . لذلك يتحتم بذل الجهود من الآن للاستعاضة عنه بمصادر اخرى صناعية والا شلت يوماً ما حركة النقل من جراء قلة البنزين وزيوت الوقود اللازمة لمحركات السيارات والسفن والطيارات

هذه اكبر مشكلة اقتصادية يواجهها العلماء الكيماويون محاولين حلها فترى بعضهم يبحث هل يمكن اختراع وقود سائل من خامات نباتية لتحل محل البترول — واول ما اتجهت انظار هؤلاء الى الكحول والزيوت النباتية — وقد ثبت بعد البحث والتحري أن الكحول يصلح للاستعمال بعد خلطه ببعض السوائل كالبترول او البنزين نفسه إلا انهم لم يصلوا الى طريقة اقتصادية لمجاري الزيوت النباتية والامل قوي في الوصول الى حل مرضٍ . وان مصر لتنتظر غاية الانتظار اذا نجحت هذه الطريقة لان خامات الكحول متوافرة في بلادنا الزراعية بمقادير وافرة في قصب السكر وغيره

هناك مصدر آخر لاستحضار البترول يمكن ان يلجأ اليه عند الحاجة هو الطفلة الزيتية وهو نوع من الطبقات الارضية ، بتقطيرها كما نستقطر الفحم نحصل على سائل هو نوع من البترول

هذا وقد ولى بعض الكيمائيين وجوههم شطر الفحم الحجري لتحويل هذا الوقود الصلب المتوافر الى وقود سائل يسد مسد البترول . وليست هذه أول مرة اتجهت فيها انظار الكيماويين الى تحويل الوقود من حالة الى حالة . فقد حولوا قبلاً الفحم الى وقود غازي وهو غاز الفحم المستعمل في كثير من المدن للاضاءة والتسخين . والآن تتطلب الحضارة منهم تحويل الفحم الحجري الى سائل يقوم مقام البترول وزيوت الوقود المعرضة للنفاد

وقد اهتدى الكيماويون في اوربا وامريكا الى اربعة طرق مختلفة لتحويل الفحم الى بترول وسنتكلم على اثنتين منها لضيق الوقت

ولقد قدر الخبيرون من اهل العلم أن طبقات الطفلة الزيتية تعادل ٣٩٤ مليون طن في الولايات المتحدة واذا استخرج ما فيها انتجت ١٣٥ مليون برميلاً من زيت الطفلة على معدل جالون لكل طن الا انها تكلف كثيراً

***

﴿ طريقة برجيوس Bergius Process ﴾ وجد برجيوس الالماني ان نسبة الكربون (ك) الى الايدروجين (يد) في الفحم = ١٨ : ١ ونسبة ك : يد في الزيت البترولي = ٨ : ١

فتحويل الفحم الى زيت يجب زيادة الايدروجين

وتلخص هذه العملية في أن يسحق الفحم سحقاً ناعماً جداً ويوضع في زيت ما . ثم يعالج بعد ذلك بغاز الايدروجين المضغوط في درجة ٤٥٠ م من الحرارة فيتحول جل الفحم الى زيت . بهذه الطريقة يمكن برجيوس من تحويل جميع انواع الفحم الى زيت وأقام لذلك مصنعاً في المانيا والزيت المجهز بهذه الطريقة يحتوي على : —

٣٠ ٪ من الجازولين لتسيير السيارات

٣٠ ٪ من المازوت لتحريك ماكينات دزل

ويقول برجيوس ان ما ينتجه هذان المصنعان سيكون مليون برميل سنوياً من منتجات البترول المختلفة و ٣٠ ٪ من الزيوت الثقيلة المستعملة في التسخين ولتشحيم الآلات والتي يمكن بعملية التجزئة التي ذكرناها من تحويل معظمها الى جازولين

وهذه العملية لم تثبت بعد على اسس تجارية رابحة ولكنها تتقدم بخطى واسعة نحو هذه الغاية . ويقال ان هذا العالم الالماني ظل سنين طويلة يبحث ويجرب حتى توصل الى هذه الطريقة تشد ازره شركة كبيرة يبلغ ما أنفقته على اتعابه وابحاثه ١٤ مليون من الجنيهات ولا تستغلن ذلك على الامة الالمانية فقد سبق وساعدت احدى الشركات الالمانية Bayer الكيماوي مبلغ مليوني جنيه حتى كشف طريقة عمل النيلة الصناعية وأخيراً تكللت اعمالها بالنجاح واحتكرت هذه الصناعة وجنت منها الملايين العديدة من الجنيهات

***

طريقة فيشر (Fischer's Process): — هذه طريقة اخرى المانية اخترعها عالم الماني يدعى Franz Fischer وهي تختلف في طبيعتها عن السابقة وان اتحدت معها في الغاية ألا وهي تحويل الفحم الى بترول — وتتلخص هذه الطريقة في تحويل الفحم الحجري اولاً الى غاز مائي بتسخينه وامرار بخار الماء عليه ثم تحويل الغاز المائي الى بترول بامراره على اكاسيد بعض الفلزات كالكوبلت والحديد والكروم التي تعمل عمل العوامل الوسيطة فتساعد على تحويل الغاز الى بترول من غير ان يصيبها تغير كيماوي

هذه العملية كما بينا بها يمكن تحويل الفحم الى زيوت وقود الا انها تكلف كثيراً

هذا ولا ينكر أحد اهمية تحويل الفحم الى زيت بطريقة اقتصادية ناجحة من الوجهتين الاقتصادية والسياسية . فقد قيل حقاً ان البترول هو النقطة الحساسة في السياسة الدولية في الوقت الحاضر ومستقبل السلام معقود على حل هذه العقدة . ولذا كانت الحال كذلك كان تحويل الفحم الى زيت بالطرق الكيماوية أفيد للعالم من مؤتمرات السلام ومؤتمرات نزع السلاح والمعاهدات الدولية التي تنتهي في آخر الامر الى احاديث خرافية او قصاصات ورق

بورجيه وكبلنغ

فن بورجيه

—

فلسفة كبلنغ

فن بورجيه

مات منذ بضعة أيام الكاتب الفرنسي بول بورجيه فانطفأت بموته شخصية تكاد تنفرد بطابعها بين رجال الادب الفرنسي المعاصر. فقد كان بورجيه بين الكتاب الاحياء أحد أولئك النفر القليلين الذين بحكم حياتهم الادبية المديدة قد عاصروا الجيل الحاضر والجيل الذي قبله. ذلك أن بورجيه الذي ولد عام ١٨٥٢ قد أخرج للناس اول كتاب له وهو في الحادية والعشرين من عمره أي منذ ثلاثة وستين عاماً. فتاريخ الادب قد ذكر اسمه بين كتاب القرن التاسع عشر الذي قضى فيه ما يقرب من خمسين عاماً من حياته قبل أن يذكره المؤرخون الحديثون في عداد الكتاب المعاصرين. وكما كان بورجيه بحكم شيخوخته الادبية ليس أديباً معاصراً فقط، كذلك كان بحكم تفكيره مفكراً لا يعيش في العصر الذي نعيش فيه. لقد ظل بورجيه حتى موته يحيي بأفكاره في شبه عزلة. يستمد لها الوحي والالهام من كتب القرون الغابرة. ظل حتى موته يؤمن بالملكية المطلقة وسلطة رجال الدين ويدعو إلى العودة اليهما في شعب جرت مبادىء الديموقراطية في دمه وروحه .... من هاتين الناحيتين يختلف بورجيه عن ذلك العدد الزاخر من الكتاب المعاصرين الذين ترعرعوا في ظلال العصر الجديد فهم من احتفظ في آدابه بفكرة (الفن للفن) وبقي بعيداً عن محيط الحياة الصاخب. ومنهم — وهم الغالبية — من أبت شدة احساسه وقوة شخصيته أن يعيش الى النهاية على هامش الحياة. فعزل الى معتزلها. ولما زلزلت آذانه صرخات الصرعى وأوجاع المتألمين في مجتمع يعج بالتناقض تردد الصدى في فنه الخالد واذا القلم بين يديه كالمعول يهدم به الطالح ويبني الصالح

على أن بورجيه كان يتفق والكتاب المعاصرين — بل كان في طليعتهم — من حيث اقامة فنه القصصي على أساس علمي محض . فقصصه جميعاً تدور حول تحليل العواطف الانسانية المتضاربة وغرائزها الاولى وخصوصاً الغريزة الجنسية وهو في فنه دقيق الملاحظة ، عظيم القدرة على التعمق في خفايا النفس مما قلّ ان نجد له نظيراً . ولعلّ هذا هو السبب في أن القارىء الذي لم يرزق طول الاناة والصبر على قراءة القصص التحليلية لا يلبث ان يشعر بالملل والسأم . لان إنتاج بورجيه القصصي رغم غزارته ما هو الاّ وصف وتحليل حالات متنوعة من النفس البشرية

بدت ظاهرة التحليل النفسي الطاغية على فن بورجيه في أول اعماله الادبية حين بدأ حياته الكتابية بنشر مجموعة شعرية سماها (على شاطىء البحر) Au bord de la mer (١٨٧٣) ثم اتبعها بأخرى عنوانها (الحياة القلقة) La vie inquiète (١٨٧٤) في كلتا هاتين المجموعتين وما تبعهما حاول بورجيه أن يظهر ما وراء ذلك الطلاء الاجتماعي الذي يستر طبيعتنا الاولى من نزعات حياشة ورغبات لاتحمد فأصاب في محاولته نصيباً وافراً من التوفيق . على أن الشعر وما فيه من تكلف وتقييد لم يكن يتفق وأدبياً من نوع بورجيه ، يسعى لتمزيق الحجب التي كست بها المدنية الشخصية الانسانية ، يحاول أن يتغلغل الى ما وراء الصدور . يكشف الذّات والاحساسات الغامضة الملتوية . ثم يعمد الى تحليلها والوقوف على مبعث وجودها . إن هذه الموهبة لهي اكثر صلة بطبيعة (الناقد) ومهمة (القصصي) . لذا سار بول بورجيه في هذين الاتجاهين . وبلغ فيهما شأواً عظيماً

ففيما يتعلق بالناحية النقدية من فنه فقد بدأها بورجيه بكتابة دراسات عن كتّاب القرن التاسع عشر وهو القرن الذي عاش فيه النصف الثاني بأكمله . وكان من بين هؤلاء الكتّاب الذين تأثر بهم بودلير وستندال وتين . ولا تزال هذه الدراسات حجة ومرجعاً في تحليل من كتب عنهم . أما فيما يتعلق بفن بورجيه القصصي فقد بدأه بعد زيارته لانجلترا عام ١٨٨٤ بقصة (الذي لا يُصلح) L'Irréparable (١٨٨٤) وهي اولى قصصه القصيرة التي كتب منها العدد الوافر . أما قصصه الطويلة فقد بدأها بقصة (لغز قوس) Cruelle Enigme (١٨٨٥) وتلتها (جريمة حب) Un Crime d'amour (١٨٨٦) ثم (أندريه كورنليس) André Cornélis (١٨٨٧) ثم (أوهام) Mensonges (١٨٨٧)

لم يكن بورجيه الى ذلك الوقت قد بلغ بعد الشهرة التي أعدها له القدر حتى ظهرت قصته (التابع) Le disciple (١٨٨٩) ثم تلتها (المرحلة) L'Etape (١٩٠٢) ثم (طلاق) Un divorce (١٩٠٤) وعندئذ ذاع اسمه ذيوعاً كبيراً وكثر تحدث الاندية الادبية والنقّاد به . ولقد كان الباعث على ذلك أمران : الاول عمق التحليل الذي اثبت نبوغ بورجيه كعالم نفسي إلى جانب براعته

كقصاص : والثاني أن في هذه القصص الثلاث أوضح بورجيه آراءه الاجتماعية والسياسية بصراحة لا لبس فيها ولا مواربة بعد أن كانت تجول في صدره — من دون ان تجلى تماماً — مدى عشرين عاماً

***

ومما لا شك فيه أن الآراء الاجتماعية والسياسية التي يؤمن بها مفكر من المفكرين أو كاتب من الكتاب إنما هي قبل كل شيء آخر وحي نفسيته الخاصة التي تولد معه وتجري مع دمه . فمن الناس من يولد وفي طبيعته ميل غريزي الى الاستبداد ونزوع الى الظلم والسيطرة على الضعفاء . بينما يولد آخرون واسعي الصدر مجبين للمساواة ، تسود أحكامهم عاطفة العدل . أما أثر البيئات وضروب الثقافة فيقع في المرتبة الثانية من قوة التأثير ولا يمكن أن يطغى طغياناً كاملاً على الطبيعة الانسانية . وإذا كان لهذا الاثر من قوة ظاهرة فعلة هو حين يكون موافقاً لطبيعة الشخص وميوله الغريزية فتتذر يسوقها الى الامام ويسيها على المضي في طريقها حتى النهاية

كانت نزعة بول بورجيه الرجعية تبدو منذ اوائل أعماله إذ كان فنه قاصراً على وصف الطبقة الارستقراطية والاعتزاز بها والدفاع عنها . وقد يكون السبب الذي منعه من أن يدعو لافكاره جهاراً في أدبه هو فهمه لطبيعة شعبه الفرنسي الذي يقدس مبادىء الحرية والمساواة . على أن هناك سبباً آخر كان يحول بينه وبين تسخير فنه لبث فكرته السياسية . ذلك انه كان هناك ما يشبه التقليد بين الكتاب الفرنسيين خلال القرن التاسع عشر وهو أن يكونوا في فنهم بعيدين عن التأثر بالمشكلات الاجتماعية والسياسية فكان لكل منهم رأيه الخاص من دون أن يكون لذلك الرأي أثر ظاهر في أدبه الذي بقي فنًّا خالصاً . على أنه في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حدثت في فرنسا حوادث سياسية مخزية كفضيحة بنما ومأساة دريفوس زعزعت عند عدد من الكتاب الثقة في النظام الجمهوري وجعلت مبادىء الثورة الفرنسية الكبرى التي هي أساس هذا النظام موضعاً للمناقشة والتفنيد . على أن الغالبية العظمى من الكتاب بقيت مؤمنة بقيمة النظام الجمهوري وفائدته مرددة أن ما حدث ما هو إلا طوارىء عارضة وان إصلاحها يسير . ولا يمكن مطلقاً أن تكون سبباً في قلب نظام قام على تضحيات مئات الألوف من الفرنسيين . ولقد كان الكتاب الساخطون على النظام الجمهوري في إثر الفضائح السياسية فريقين متناقضين كل منهما يطلب نظاماً اجتماعيًّا يختلف كل الاختلاف عن النظام الذي يطلبه الفريق الآخر ويرى فيه الصلاح والقضاء على الفوضى القائمة . فالفريق الأول كان يرى في النظام الاشتراكي خير ضمان من عبث العابثين وكان زعماء هذا الفريق أناتول فرانس وجان جوريس ورومان رولان . أما الفريق الثاني فكان يطلب رجعية تعود بفرنسا إلى ما قبل الثورة الكبرى أي إلى حكم الملوك المطلقين

رودرد كبلنغ
Rudyard Kipling

پول بورجيه
Paul Bourget

آخر صورتين لهما قيل وقالها من مجموعة جريدة الاهرام الغراء

ورجال الدين . وزعماء هذا الفريق بول بورجيه وموريس بارس وشارل موراس . ومنذ ذلك الوقت جعل كل من الفريقين فنه ميداناً للدعوة لعقيدته لخرج ادبهم من أن يكون فنًّا للفن إلى معالجة مشكلات المجتمع ومحاولة إصلاحه بالطريقة التي يراها كل فريق منهما

ولقد كان هذا الذي حدث نقطة تحوُّل هامة في طابع الآداب الفرنسية فيما بعد . فقد ساعدت نكبة الحرب الكبرى وما سببته من أزمات اقتصادية لا نهاية لها وبؤس جاثم على صدور ملايين البشر على ازدياد أنصار الفريق الأول — فريق فرانس وجوويس ورولان — ازدياداً عظيماً نلمسه الآن في أعمال أعاظم الكتَّاب الفرنسيين من شيوخ وشبان . بينما وقف الفريق الثاني وعلى رأسه بورجيه عند نقطة ابتدائه . لم يزله أقل تقدم . بل ازداد ضعفاً بابتعاد الحوادث التي سببت هذه الرجعية وعلى ضوء الحقائق الملموسة

في كل من القصص الثلاث (التابع) و (المرحلة) و (طلاق) نرى بورجيه يتمسك بأمرين يدعو لهما ويعدد ما يراه فيهما من فضائل : الامر الاول نظام الحكم الملكي القديم . والامر الثاني التقاليد الدينية قبل ان يدخلها الاصلاح والتطور . فبينما نراه في قصة (التابع) يوغل في امتداح الطبقات الارستقراطية ويعتبر التصويت العام خطراً قوميًّا . نراه أيضاً في قصة (المرحلة) يحاول أن يثبت ان هناك حدوداً لا يجب أن تتعداها الطبقات الفقيرة وأن (المرحلة) التي تفصل بين هذه الطبقات والطبقات الارستقراطية لا يمكن ان تعبرها الطبقة الاولى دفعةً واحدة

وقد جعل بورجيه بطل قصة (المرحلة) — ويدعى فكتور فيران — أحد أساتذة الجامعة المشهورين في فهم الفلسفة الكاثوليكية . وهو حين يصفه لنا يقول (إنه ليس تقليديًّا في الدين فحسب بل في السياسة أيضاً . وهو لا يتكلم عن الثورة الا ليذكر العقائد الجامدة الفاسدة في ثورة ٨٩) فإذا سمعنا الاستاذ فيران نفسه يتكلم رأيناه يعلن ان (جميع القوانين التي نعيش في ظلها منذ مائة عام هي قوانين الغرور والكبرياء) ثم حين يقف فيران في صف أعداء دريفوس — وهم كما نعرف قاليون بالقياس الى انصاره — لا يتردد بول بورجيه في ان ينسب ذلك إلى (عبقريته الوضاءة الرزينة) ويدعم ذلك بتأييد آرائه فيقول (إن فرانسا تغرق نفسها في نظام برلماني عظيم التطرف . نظام يقوده أفراد انتخبوا بواسطة التصويت العام . وبعبارة أخرى تقوده أغلبية من المشعوذين أرسلتهم أغلبية من الجهلاء)

وفي قصة (طلاق) نرى بورجيه يقف فكرتها على الدعوة للكنيسة الكاثوليكية . وفيها يعتبر أن الطلاق مهما كان سببه جالب للكوارث والنكبات

***

من ذلك نرى أن فن بورجيه تقليدي محض . ينكر كل تطور في السياسة والدين أتجه

الافكار الديمقراطية الحديثة . والحق أن طغيان هذه النزعة الرجعية الجامدة على فنه منذ ظهور قصة (التابع) قد أساء اليه إساءة ليست يسيرة . وخصوصاً الى الناحية القصصية منه

لقد كان بورجيه أديباً ومفكراً . ونحن الآن بموته لم نفقد فيه ذلك المفكر الممتاز الذي كانت تُعدّه وعلى نظرائه الآمال لأنه يمثل روح العصر الحاضر كما كانت الحال مع معاصره أناتول فرانس مثلاً . ذلك أن الأفكار التي كانت تطبع أدب پول بورجيه لا تمت الى الفلسفة الاجتماعية الجديدة بصلة . وهي لذلك لم تكن هزيلة في فرنسا فحسب بل في العالم المتمدن أجمع . والانسانية التي تسير كل يوم إلى الامام خطوة جديدة ليست في حاجة الى الافكار التي تعود بها الى الوراء قروناً . . . انما الذي فقدناه حقاً بموت بورجيه هو بورجيه الاديب . بورجيه الناقد وبورجيه القصصي الذي كان بدقة وصفه وعمق تحليله من اعظم كتّاب فرنسا في تاريخها الحديث

مصر علي فاضل

فلسفة كبلنغ

وبعيد وفاة بورجيه فقدت الآداب العالمية بوجه عام والادب الانكليزي بوجه خاص روديرد كبلنغ فقدت به الامبراطورية البريطانية لسانها البليغ والادب القصصي قصّاصاً بارعاً ومفرق خرافات طالما ادخلت النشوة على نفوس الصغار الذين قرأوها . واذا كان التحوُّل الذي يصيب الحضارة من شأنه ان يفضي الى اهمال النزعة الامبراطورية في ادب كبلنغ فان براعته في تنميق هذه الخرافات ستخلد ما زال في الدنيا صغار يقرأون اللغة الانكليزية

كان كبلنغ ملكاً من ملوك الكلام المنظوم والمنثور ينشىء القصص الطويلة (اشهر قصصه قصة كِم) والاقاصيص وينظم القصائد ، فيقرؤه الوف الالوف من الناس الذين يقرأون الانكليزية في مشارق الارض ومغاربها . يقرأونه مختارين مسرورين دهشين ، لا لبلاغة خاصة في اقواله تجري مجرى الاساليب المدرسية البليغة في الادب الانكليزي ، بل لانه يقول لهم ما يودّون سماعه ، ويصف لهم طبائع الناس واحوال الزمان والمكان وصفاً ينطبق على الحقيقة او على ما يحسبه السواد من الناس حقيقة . فانه كان يقول لهم في مستهلّ حياته الادبية : ان البيض ارباب الشعوب الصفر والسود فعليهم ان يتسلطوا عليها ويعتوا بها كما يتسلط الله على عباده ويعتي بهم ، وان الكون لا ينتظم بالحرية والاباحة ، بل بالقانون والنظام والطاعة . واي ملك لا يرضيه هذا القول ، واي متسلط لا يودّ نشر هذه المبادىء

فقد قال في قصيدة عنوانها « حمل الرجل الابيض » : — احملوا حمل الرجل الابيض

وأضرموا حروب السلام الطاحنة . اشبعوا ثم الجوع وضعوا حدًّا للامراض . فاذا اقتربتم من محجركم اغمدوا سيف القناعة والجهل لثلاّ يقضي على ما امتلكتموه

« احلوا حمل الرجل الابيض . ولا ترضوا بما هو دون ذلك . ولا تملّوا عملكم وتحاولوا ستره بستار الحرية . إذ بكل ما تروونه أو تهبون فيه او تعلمونه او تحملون عنه ، ستضعكم هذه الشعوب الصامتة ، أنتم وربكم في ميزان الحكم »

وقد سددت سهام النقد اللاذع الى هذه القصيدة ، فقال احدهم فيها انها قصيدة رياء وعارضها بقصيدة اجراها على لسان السود مخاطباً البيض ، وجعل آيتها التذمر والترنم بفتح البلدان التي يقطنها السود واباحتها للسموم والخمور وغيرها من الملابسات المدنية الحديثة التي تهبط بالنفوس الى الدرك الاسفل ، على نحو ما مثلت هذه الاوزار في شريط « الاشباح البيض » . ولا ريب عندنا في انه لو نظم كبلنغ او غير كبلنغ مثل هذه القصيدة الآن ، لاهمت كل الاهمال . فالحال قد تغيرت ، وأصبحت الصورة السائدة لعلاقة البلدان الحاكمة بالبلدان المحكومة ، علاقة تعاون بين الاخ الاكبر والاخ الاصغر ، لا علاقة السيد بالمسود . وإذا كانت هذه الصورة لم تتضح كل الاتضاح بعد ، فلانّ نفراً من الحكام ، لا يزال متأثراً بتلك الصورة الباهرة الالوان ، التي رسمها كبلنغ وتغنى بها

***

كان كبلنغ يخاطب الشعوب المتكلمة باللغة الانكليزية بوجه خاص ، والشعوب البيض بوجه عام نثراً ونظماً ، غير متوخ غريب الالفاظ ومهجور التراكيب ، حتى ولا اساليب الكتابة الكلاسيكية بل كان يعمد الى اللغة المحكية المتعارفة . فكان اذا ادخل في قصة من قصصه كنّاساً انطقه بما ينطق الكنّاسون واذا ادخل فيها بحريًّا انطقه بما ينطق البحّارة . بل ان طائفة من اشهر قصائده كتبها بلغة الجنود في الثكنات وهي التي اسمها (Barrack Room Ballads) . وقد أبدع كل الابداع في وصف نفسيتهم فيها . وكانت كثرة الحوار في قصصه واقاصيصه ، وبراعته فيه ، مما يقتضي هذا الضرب من الكتابة ، ليسبغ على القصة او الاقصوصة ظلال الحقيقة . وكذلك يشعر القارىء وهو يقرأ كتابات كبلنغ كأنه يرى هؤلاء الناس ويسمع كلامهم الذي يتكلمون به عادة ولا يقرأ في حوار كلمة يستغرب صدورها منهم . وهذه الصفة تجعل ترجمة كتاباته متعذرة اوصعبة كل الصعوبة على الاقل . وكان يتصف بذاكرة قال بعض أخدانه فيها انها « ذاكرة مصوّرة » اي ان المشاهد كانت ترتسم في ذهنه بحذافيرها ، فاذا وصف مدينة في اميركا ، او قرية في بلاد الهند ، او غابة من الغابات الملتفة في المناطق الاستوائية ، او سفينة في عرض البحر ، حسبته مصوّراً يصوّر لك ما يريد وصفه بألوانه الطبيعية وينفخ فيه نسمة الحياة

كان ينظر الى العالم نظرة الرجل العملي فيقبله كما هو بما فيه من مساوي وحسنات وحقائق واوهام تتقاذف الانسان في تيارها المصطخب وتبتلعه في غالب الاحيان . ومن العبث في رأيه ان يحاول الانسان تغيير المجرى الذي تجري فيه صروف الاقدار . فهو من هذه الناحية شبيه بهاردي . ولكنه على طرف نقيض منه في ان كبلنغ يأخذ الارض كلها مسرحاً لابطال رواياته وبطلاتها ومصدراً لاشعة فكره وخياله في حين ان هاردي يقنع بان يدرس منطقة ضيقة من مناطق الريف الانكليزي فيصف دقائقها ويخلص منها إلى النتيجة نفسها . وكبلنغ يرى انه اذا كان في امكان انسان من الناس ان يزيد الثروة الانسانية برأي او مذهب او استنباط وحاول أن يفعل ذلك في غير الزمن المعدّ له ذهب عمله ادراج الرياح . لذلك رسم في كتابه « دبتس وكردتس » Debits and Credits صورة كاهن من كهنة العصور الوسطى حطّم مكرسكوبه لانه جاء قبل اوانه . وقص في كتابه « رويردز آند فايرز » Rewards and Fairies حكاية مختار في عصر الملكة اليصابات تخلّى عن فكر خطر له وهو انشاء سفن مدرعة بالحديد لان زمن المدرّعات لم يكن قد جاء بعد . ولكن الانسان يجب ألاّ يتبرّم . لذلك ينطق احد ابطاله بقول مأثور : « حتى ! انا لن أذهب باكياً حتى امام هذا او امام ذاك كأني لا استطيع ان اطالب بحقوقي . حقوقي ! بحق الله العظيم انا رجل ! » . وقوله على لسان احد ابطاله من رجال العمل في الهند : « شكراً للربّ ، ليكن المصير ما كان . فاني كافحت مع رجال »

فهذه السمة التي يتسم بها ابطال كبلنغ ، هذه الشخصية الانوفة المترفعة المعتمدة في حسنها هي اساس الارستقراطية التي يمدّها اهم العناصر في « لعبة الحياة »

وقد وقف قصيدته المشهورة « اذا » If على وصف الصفات التي يجب ان يتصف بها الرجل الرجل ، واليك بعضاً مما جاء فيها : « اذا كنت قادراً ان تحتفظ برباطة جأشك حين يضطرب كل من حولك . اذا كنت تثق بنفسك حين يرتاب فيك الناس . اذا كنت قادراً ان تحلم وألاّ تكون عبداً للاحلام . وان تفكر من غير ان تجعل الافكار غايتك . اذا كنت تستطيع ان تواجه الفوز والاخفاق وتعامل ذينك الدجالين على السواء . اذا كنت تستطيع ان تجمع كلّ ما كسبته وتغامر به مستعدًّا ان تخسره وتبدأ من جديد من غير ان تنبس بكلمة واحدة عن خسارتك . اذا كنت قادراً ان تمشي الجماهير من غير ان تتخلى عن فضيلتك ، وان تمشي مع الملوك من غير ان تفقد اتصالك بالجمهور . اذا كنت تستطيع ان تملأ كل دقيقة لا تفترسين ثانية من الدأب . فالملوك والارباب والحظ والنصر خدم لك طائعون والارض لك وكل ما فيها . وما هو اكثر من ذلك ، كنت رجلاً يا ابني »

فالارستقراطي في رأيه مهما يكن جنسه او عقيدته رجل كامل . فهدف الفلاح

ارستقراطي صميم وهو يبسم بسمته التي تنم على معرفة وازدراء حين يرى الملاك يتغيرون من رومان ونورمان وسكسون والارض ثابتة لا تحول . هذا وغيره من ابطال كبلنغ ارستقراطيون في رأيه لانهم لا يعنون بأشخاصهم قدر عنايتهم بالمبادىء التي تمثلها اشخاصهم ، لانهم اسياد كرام يقبلون على لعبة الحياة وملء افواههم الابتسام لا يطلبون عون احد فيها ولا ينتظرون جزاء احر حين تكلل اعمالهم بالفوز . بل في النادر ما تقع على بطل من أبطال كبلنغ يتحدث او يباهي بما فعل . «فالانسان يجب ان يتأمل اولاً ثم يجب ان يتعلم عمله ثم يجب ان يتعود تلك الكرامة التي تجلبها المعرفة» : هكذا يقول كبلنغ

وكبلنغ ليس رجلاً يتعلق بأهداب المذهب المحدود والعقيدة الخاصة . فهو القائل اذا خلا الانسان في محراب الليل اصبحت كل العقائد في نظره سواء . انه لا يجعل مذهباً الا بقدر ما يخلق ذلك المذهب في صدور معتنقيه من الفضائل التي يجلها ويعليها . وهو يقول «ان الايمان الذي يحمل الانسان على التعلق به ولو خسر نفسه هو الايمان الجدير بالاعتناق»

ورأيه في المسيحية ليس مما يعلي شأنها لانه يزعم انها لم تنزل من عقول المسيحيين «الخوف من الغاية» وان العالم الغربي يتمسك بالخوف من الموت اكثر من تمسكه بالرجاء من الحياة ! ولكنه يعطف على عقيدة كل انسان اذ يرى ان لا بد في هذه الحياة من رادع او وازع لذلك تراه يكتب في وصف هيكل من هياكل برما «كن عطوفاً حين يصلي الوثني لبوذا في كاماكورا» وهذا يعود بنا الى ما قدمنا عليه الكلام في مفتتح هذا المقال من علاقة كبلنغ بالامبراطورية البريطانية . لاننا حين نذكر دين كبلنغ نذكر دين الامبراطورية البريطانية اذ يتعذر فصل كبلنغ الشاعر والمؤلف عن الامبراطورية البريطانية . وقد قال فيه روبرت غريفس «ان كبلنغ هو الناحية الادبية من الامبراطورية» . فكأن رسالته في الحياة كانت ربط اجزائها برابط متين من الاخاء . كذلك لا نستطيع الا ان نقول ان مشهد الامبراطورية بهره بلدانها المترامية الاطراف في كل انحاء المعمور واساطيلها الضخمة البحرية والتجارية تربط هذه الاجزاء بروابط المصلحة والثقافة . إلا ان رأيه في الامبراطورية ونظره اليها ليس نظر رجل سياسي كل همه ان يرى بقعة حمراء جديدة في خريطة العالم . ولكن بريطانيا في نظره الآلهة يجلها ويعتبرها كرجل متفان لانها تحتم على اتباعها ان يتصفوا بصفات العمل والصبر وانكار الذات والامانة والكرامة التي يطلبها هو في الرجل الارستقراطي ويضفيها على اعظم ابطاله في رواياته واشعاره

***

لذلك يدعو الى تأييد الامبراطورية ليس لان بناءها عمل عظيم بل لانها اداة فعالة في حشد قوى الانسان لمغالبة الكون وترسيخ قدمه في فضائه

عجينة تحقيق الشخصية

النيجاقل او المولاج

لعوض جبري

تشرفت يوم الجمعة ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٣٥ بزيارة الطبيب النطاسي «محمد عمارة» الاستاذ المساعد للطب الشرعي في كلية الطب الملكية المصرية ، وغيرها من معاهد العلمية ، وذلك في داره العامرة تجاه مستشفى الدكتور بابايانو في الدقي بالجيزة . واتفق ان كان بيدي حينئذ جزء من مجلة «الميكانيكا العامة الأمريكية» ، التي اعتدت قراءتها . وما لمحها في يدي ، حتى قال « لعلّ هذه المجلة تحوي شيئاً ذا علاقة بالطب الشرعي ، اذ اذكر اني قرأت فيها ذات مرة خبراً خطيراً وهو : — « يعتقد بعض الباحثين في المانيا أن شبكيتي عيني القتيل ترتسم عليهما صورة قاتله »

فدفعت المجلة اليه ليفحصها . فما لبث أن اطلع على فهرسها حتى ألفاه يحوي بحثاً قويماً خاصاً بتحقيق الشخصية مما يعنى به حضرته فقرأه . وما فرغ منه حتى سألني . . الا تعرف النيجاقل ؟؟ فقلت : أجل . وقد قرأت عنها في شهر ابريل من سنة ١٩٣٠ وذلك في مجلة العلم العام الامريكية ثم كتبت فيها وقتئذ بذة ، نشرتها مصورة ، احدى المجلات الطبية

والنيجاقل Nugacollo هو العجينة الفرنية التي تستعمل لالتقاط آثار المجرمين وتحقيق شخصية المجهولين من الموتى والقتلى . وسألته ما رأيك يا استاذ في تلك العجينة الحديثة ؟ ؟ فقال : —

« كنت في فينا منذ خمس سنين فسمعت خبرها ، وقرأت تفصيلات مناقبها ، فلم يسعني الاّ ان كتبت الى مخترعها فبعث اليّ بمقادير منها استعملتها في تحقيق الشخصية ، فنجحت . وهأنذا استعملها في كلية الطب » ثم فتح خزانة كتبه وتناول منها صندوقاً من الورق المقوّى فأخرج منه نموذجاً من النيجاقل وأراني فاذا به كتلة أشبه بشمع عسل النحل الاصفر وأخذ يشرح لي طريقة استعمالها . ثم عرض عليّ تمثال كفّ بشرية متحجة ، مصنوعة من النيجاقل ، فرأيتها وفق الاصل البشري تماماً ، فشكرت له رائع بيانه ، وجم أدبه وحسن استقباله لزائريه واصغائه

للاحظاتهم، ووعدته بالكتابة في هذا الموضوع في المقتطف، حامل قبس العلم والمعرفة في الاقطار الشرقية لقراء العربية منذ ستين سنة. فأقول:

تقنع اللصوص بوجوه مستعارة، ستراً لقسماتهم، واخفاء لشخصياتهم، فيفرون من شراك العدالة، ويهربون من غيابات السجون، وعلى النقيض من ذلك، عدت الوجوه المستعارة، المتباينة الانواع، وسيلة من وسائل تحقيق شخصيات الجناة، وذريعة من ذرائع اداتهم. ومما يذكر في هذا الصدد الوقائع الآتي بيانها: —

سطا لص من عهد قريب على دار في ولاية ميسوري من اعمال ولايات امريكا المتحدة، باذلاً جهد استطاعته في اجتناب ترك أية بصمة من اصابع يديه في اي مكان او على اي اثاث، لئلا تتم عليه فتوقعه في قبضة العدالة. بيد انه نسي بصمات قدميه فلم يكترث لها، فكان ذلك النسيان، الذي لم يكن في الحسبان، سبب اثبات جرمه، وزجه في السجن. ذلك ان الخبر عمى الى المحققين فخفوا الى مكان السرقة، باحثين عن اي أثر من آثارها، فلم يهتدوا الى شيء ذي بال في تلك الدار غير انهم عثروا، في فنائها بالتربة اللينة على بصمة كعب ولعل حذائي السارق فاستدلوا بهما عليه وانزلوا به العقاب الواجب

ولو وجد المحققون دليلاً كهذا منذ بضع سنين، لما كانوا يستفيدون منه الفائدة التي يستفيدونها الآن، اذ كان مستحيلاً عليهم الاحتفاظ به، اما في هذا الحين فقد تغيرت الحال باختراع العجينة التي تلتقط بصمات الأصابع والاقدام بل كل أثر من الآثار حتى الشعر، وفقاً لأصله

وحدث في تلك السرقة أن التقطت بصمة نعل الحذاء وكعبه ثم حفظت في اضبارة التحقيق وسرعان ما ضاع ذلك الأثر من الارض واستمر التحقيق والبحث والقبض على الاشخاص المشتبه فيهم فكانوا ينكرون تهمة السرقة المعزوة اليهم. فلم يرَ المحققون محيصاً عن فحص احذيتهم حتى عثروا على نعل لأحدهم فتبين انها مطابقة من كل الوجوه للبصمة التي التقطتها العجينة من الطين فووجه المتهم بتلك البينة فلم يسعه الا الاعتراف بالسرقة

وعثر الشرطة في غابة بضواحي نيس على جثة شاب قتيل، زرقاء اللون، منتفخة الاوداج، انتفاخاً يعادل ضعفي حجمها الطبيعي، وشرحوا الجثة فظهر لهم ان القتيل مات موتاً اسود (مختوقاً). وشاهدوا بصمات اصابع القتلة، جلية على حلق القتيل. فنقلوا الجثة الى معرض الجثث المجهولة حتى يتعرفها اعضاء أسرته. وعندئذ عمد الشرطة الى التليفون حيث خاطبوا احد المختصين بتحقيق الجنايات، فوافاهم رجل طويل القامة، عريض المنكبين، ملتحٍ، اذ دخل ذلك المعرض وعاين الجثة ثم شرع في عمله بكل هدوء وسكينة فأخرج من كيس كان معه، حقاً محتوياً على مادة كأنها الحلم في لونه مفروم فسخنها ثم بردها حتى صارت لينة فالصقها بخفة على وجه

الميت وعنقه ، وجاء بمحقنة واسعة الفوهة فملأها من تلك المادة ورشها على رأس القتيل وعنقه وقضى في عمله هذا نصف ساعة ثم أمر بدفن الجثة في عصر ذلك اليوم نفسه

وفي صباح اليوم التالي وصل الى مقر الشرطة تمثال نصفي للقتيل ، آية في الاتقان فلم يمض اسبوع واحد حتى تمكن اهل القتيل من تحقق شخصيته عند رؤية ذلك التمثال النصفي . وبعد بضعة أيام أتيح لضباط الشرطة القبض على الجاني ، متوسلين الى ذلك بسمات اصابعه التي تم عليه . فكانت تلك التجربة الناجحة ، الاولى من نوعها ، في حسم التام عن الجرائم وتحقيق شخصيات القاتل والمقتول بتلك الحجة التي اخترعها الدكتور الفونس بورتيون Dr. Alphonse Pollet استاذ علم التشريع في فينا . ثم جعل شرطة الحاضرة النمسوية يستخدمون تلك الطريقة بدلاً من طريقة « برتيّون » لتحقيق الشخصية بسمات الأصابع

وقد سماها نيجاقل وهي صالحة لصنع تماثيل الاحياء والاموات . وهي مادة لا يزال مخترعها محتفظاً بسر تركيبها . ويتاح لصقها بعد تطريتها بالتسخين على اجسام الاحياء والموتى بسهولة ولذلك اصبح معرض صور المجرمين في مدينة فينا متحفاً حقيقيًّا مملوءاً بتماثيل دقيقة الصنع لكثير من المجرمين والاشرار . وقد تسنى ايقاع عدة مجرمين في حبائل الشرطة بتلك النماذج . والنيجاقل تفضل من كل الوجوه ، الطين الخزفي والمصيص وغيرهما من المواد المستعملة لصنع النماذج لان تلك الحبائل تتطلب عملاً طويلاً متعباً قد ينجم عنه سد مسام جسم الشخص المزمع صوغ نموذج لوجهه فيختنق ، بينما نستطيع بالنيجاقل صنع نموذج طبق الاصل في نصف ساعة . ولا يخفى ان تمثال الميت قد يدل على شبه تقريبي له . ومن المستحيل ان يوضع فيه الشعر والقذال (مؤخر العنق) كما يجب . اما النيجاقل فليونته الشديدة تسهل صوغ شبه متقن للشخص المراد تشبيهه حتى شعره ، واحدة فواحدة ، وكل خط من اسارير وجهه او كفه حتى اصغرها . واذا صفت كل منها بالملداد نشأت عنها بصمات مضبوطة . وقد صنعت من النيجاقل نماذج لاصابع فتبين فيها تجويف كل ريشة من ريشها . فاذا شاء المرء عمل شبه من النيجاقل لرأس انسان حيّ ، اجلسه على كرسي تجاه مرآة ثم جاء بالنيجاقل الذي يكون قد طبخها قبل ذلك وبردها حتى تصبح فاترة . فيتناولها من وعائها ويأخذ في فرك الرأس بها : مواصلاً ذلك ، حتى يتكون من السائل الكثيف ، الذي يشبه المسل الاسود ، على رأس الشخص المدلوك به ، طبقة تخالها نصف عقدة (بوصة) على ان يبدأ الصانع عمله من تحت الذقن ويتدرج منها الى ما فوقها فلا ينقضي ربع ساعة حتى يجف ذلك المثال ويتصلب فينسى حينئذ رفعه عن الجسم الاصلي مرة واحدة . وهذا ما يسمى بالصورة السلبية التي تملأ فيما بعد بالمادة الراتينجية ذات اللون المرغوب . اما القذال فيؤخذ شبهه مطابقاً لاصله على النمط السابق ، بينما يؤخذ نموذج الآذان كل واحدة على حدتها . ثم تصب فيها

بعد في قالب واحد مؤلف من شقين . وقد بلغ من شدة مرونة النيجاقل انه يستطاع مط نموذج الاذن الذي يصاغ منها ، بالايدي ، كما يمط القفاز الصغير . أما أم الرأس ، فيستعمل لرش النيجاقل عليها محفة واسعة الفم كما سبق القول . وهذه من شأنها ألا تسرح الشعر ولا تؤثر فيه الا تأثيراً طفيفاً لا يعدو انبساطه قليلاً عند رفع النموذج الصلب عنه

ويصاغ النموذج الكامل للكف بدسها في وعاء مملوء بالنيجاقل المحلولة ثم ابقائها فيه حتى تتجمد النيجاقل حولها . فاذا سحبت اليد من الوعاء بعناية ، تركت فيه قالباً معداً لصوغ يد مثلها . اما اذا اريد صوغ نموذج لظهر اليد ، فتوضع النيجاقل فوق ظهر اليد وهي مبسوطة على مائدة حتى تتجمد فتنزع مرة واحدة . ومما يجدر ذكره ان القائل الفسوي المشار اليه لما قبض عليه تمكن الدكتور بولار Potter من صوغ مثالين رائعين لراحتي كفيه وظهريهما

واذا اريد صوغ صورة ايجابية ، يملأ القالب أما بجص ، واما بمادة جديدة تسمى (هوميليت) وهي المادة الراتينجية السابق ذكرها وهذه من مستحدثات الدكتور بولار ايضاً . وهي ذات الوان شتى ويتسنى استعمال نماذج النيجاقل مرة ثانية او إمالتها لتصنع منها اشكالا جديدة . وقد ثبت من استعمال النيجاقل انها نافعة لاغراض كثيرة عدا صنع اشكال الوجوه او اصلاحها

ومما يروى في هذا الصدد ان جماعة من اللصوص سطت على متجر من متاجر مدينة فينا . وبينما كان رجالها يعالجون فتح خزانة حديدية باغتتهم مباغت فولوا أدبارهم فلم يسع الشرطة وقتئذ الا الاستعانة بالدكتور بولار لصنع مثال من النيجاقل لباب الخزانة ظهرت فيه صورة طبق الاصل لبصمات أصابع اولئك اللصوص فلم تمض ايام قليلة حتى وقعوا في شرك الشرطة

واليك حادثاً آخر وهو : — وقعت عدة سرقات في مدينة من اعمال ولاية ايلينوى وكان اللصوص في كل سرقة منها يستبيحون بقعة ، على فتح نوافذ البيوت ، فعاين المحققون مواضع الفتح والتقطوا صور الآثار التي تركتها النعلة في اماكن عديدة . وفتشت مساكن المتهمين فوجدت عند أحدهم علبة تحتوي على علامات كانت ثابتة في الحجيات فثبتت التهمة عليه ثبوتاً حاسماً فاعترف بجريمته من فوره

وسرقت طائفة من السيارات في مدينة اخرى في احدى الولايات الوسطى الغربية ، وعمد سارقوها الى طمس معالم الارقام الرسمية المثبتة عليها وذلك ببردها بالمبارد وأبدلوها بارقام مزورة فتمكن الشرطة من استعادة بعضها ولكنهم لم يستطيعوا ادراك ، هل كان السارقون عصابة واحدة أو عصابات . فصنعت قوالب للارقام من النيجاقل ثبت ان مجموعة الآلات التي استعملت في بصم الارقام على السيارات جميعها واحدة فقط

وسرقت دار من دور الريف وترك السارق ، عند هربه ، آثار قدميه في الوحل ، فالتقطت آثار حذائه بالنيجاقل ثم عرضت القوالب على الحيران . فما اطلع عليها احدهم حتى تذكر انه كان عنده

اجير يتعل حذاء ذا نعل وكعب من الصمغ المرن ، يشبهان القوالب كل الشبه، فقبض عليه ولكنه اصرَّ على انكار التهمة حتى فتش بيته فوجد فيه حذاء يشبه القالب تماماً . ومما تقدم يتضح جلياً كيف يستخدم المحقق العلمي الجنايات قوالب التيجاقل والاوجه المستعارة المصنوعة منه للحصول على البينات التي تحل معضلات الجنايات وتساعد على تحقيق شخصيات مقترفيها

وان طريقة عجينة التيجاقل لمن اضبط الوسائل التي أتمرها العلم لالتقاط صور الاشياء الحية وغير الحية وفق أصولها، من أدق الاشياء ، مثل باطن انبوب البندقية الى اكبرها ، مثل بصمة اطار عجلة سيارة مغروزة في التراب . وذلك بمئة قوالب لا تلاشى تصنع توًّا بنفقات زهيدة

ويقضي بالتيجاقل صنع وجوه مستعارة لوجوه الاحياء والاموات على السواء. وتكون الوجوه المستعارة التي تصاغ بتلك الطريقة مضبوطة بحيث تحتوي على الاسارير الاصلية والعلامات البدنية الدقيقة. ومن الميسور اذا مست الحاجة، عمل عشرات من التماثيل نقلاً عن القالب الاصلي واستعمال الوجوه المستعارة في اشغال الشرطة في حل معضلات الجرائم ، أقل منها في الاستدلال على شخصيات المجهولين. ومثال ذلك انه إذا اصيب امرؤ بطارىء من الطوارىء، فتوفي على الاثر تم التقاط صورة وجهه بالتيجاقل ، قبل دفنه ، فان هذه الصورة العجينية تبقى ردحاً من الزمن بعد دفن الجثة ، كوسيلة من الوسائل العتيدة التي تدل على شخصية المصاب المتوفى عند اللزوم . اذ تكون تمثالاً حقيقيًّا للحياء يفوق الصور الفوتغرافية. وكذلك اذا اصيبت يد أو ساق فطبعت صورتها على التيجاقل واحتفظ بها فانها تظل دليلاً قاطعاً عند القاضي، يوضح للمحققين مبلغ الاصابة عند وقوعها لصاحبها. والتيجاقل لا تضر الجلد ولا الشعر فضلاً عن سهولة نزعها عند برودتها لانها لا تلتصق بشيء منهما لانكماشها عند برودتها . وبقليل من التمرين يقضي حفر تحتي العينين وتزويقهما ، ها والشعر بلونيهما الطبيعيين. وكذلك صبغ البشرة والشفتين لكي تجعل الصورة طبق الاصل البشري تماماً . ولذلك كان صنع القوالب الخاصة بالاشياء غير الحية اسهل كثيراً من صنع قوالب وجوه الاحياء . ويستعمل لتلك الغاية مادة لتجميد التراب قبل صنع قوالب بصمات لأطر عجلات السيارات وما شاكلها من الادوات التي تترز فيه او في الوحل

وللتيجاقل الآن منافع جمة في غير دوائر الجنايات وتحقيق الشخصية اذ تستعمل بنجاح في طب الاسنان والجراحة والحيولوجيا وعلوم النبات والآثار والزراعة، وفي صوغ النماذج التي تلزم متاحف الآثار ؛ لان كثيراً من الناس يؤثرون احراز وجوه مستعارة ملائمة للاصول على غيرها من الصور التي تمثل ملامح الوجوه فقط . لان نموذج الوجه او الرأس الذي يصنع بعجينة التيجاقل تتبين فيه الصفات القابلة للتلاشي مثل نسيج الجلد وسمات الوجه وتدل على الطول والعرض والسخانة . وهذه كلها أشياء يتعذر على الرسام والحفار رسمها ونقشها [1]

(١) عرضت على الاستاذ عمارة فأشرها للنشر في المقتطف وشجعني على مواصلة الكتابة في هذا الموضوع

فلسفة التاريخ

ومكانتها في فهم الانسانية

فؤاد نعمان

إن درس الطبيعة ، على جلالة قدره ، وارتباطه بمصالح البشر الاقتصادية والاجتماعية ، هو درس ناقص اذا لم يكمله درس التاريخ . ذلك ان درس الطبيعة دون درس التاريخ ليس الا شذرات مبعثرة لا ترابط بين اجزائها ولا غاية تنتهي اليها

والانسان بحسب افلاطون عالم مصغّر « Microcosm » او كون صغير ، فدرس الانسان يوضح معنى الكون ، وأما درس الكون فلا يوضح معنى الانسان . لذا كانت فلسفة التاريخ اكمل الدروس البشرية وأوفرها لذةً ، وأشدها تأثيراً في تنوير العقل ، وارتياحه الى الحقيقة الجميلة التي تهواها النفوس . وهي — اي الحقيقة — غاية النفس ، كما جوع العين الى النور ، والاذن الى الصوت ، وانقلب الى الحب . فمن لم يطلع على فلسفة التاريخ كانت ثقافته ناقصة مهما يحرز من العلوم والاختبارات

والانسان والطبيعة قرينان ، بل هو ابن الطبيعة ولبابها ، ورسم جوهرها ، وتاجها . فدرس الانسان درساً كاملاً ، هو كناية عن درس الكون بأجمعه . لذا كان قول الحكيم سقراط « إعرف نفسك » من جوامع الحكم . فالقضايا المختصة بالمجموع الانساني ، كالافعال والجهود والسياسات والعادات والشرائع والفنون والفلسفات ، هي أشياء حقيقية كالاجرام السموية والمظاهر الجوية والالفة الكيمية والاشعاع والجاذبية ونحو ذلك من الموضوعات الطبيعية

إن الميل لاستخراج اسمى الصور بواسطة ادناها هو هو في الانسان كما في الطبيعة . والمنهج القويم في درس هذا الكون هو الابتداء بالانسان . والتدرج منه الى الطبيعة . لان الاعلى يشتمل على الادنى ويفسره . ولذا صحّ ان تاريخ الانسان هو استمرار الخليقة لزم عن ذلك ان القوة المبدعة لا تزال عاملة ، وان تلك القوة ، وعلاقاتها بصور الخليقة الراقية ، يمكن درسها في تاريخ الانسان بأوفر سهولة وأتم وضوح من درسها في ميدان الطبيعة . فالقوة المتصرفة في الطبيعة

هي العقل ، والعاملة في الانسان هي الارادة . من هنا تكشف لنا الفكرة المركزية في فلسفة شوبنهور : الكون ارادة وتصوُّر : يعني ان القوة التي هي الكون بأجمعه تتجلى في كل الاوساط الآلية وغير الآلية بحلى واحد مختلف الاسم والصيغة ، ففي المواد الآلية وغير الآلية تبدو لنا « جاذبية ملاصقة » ، و « ألفة كيمية » . وفي الاحياء امتساك بالبقاء ، وفي الانسان ارادة وتصوُّر . فهي عروس واحدة تغير اثوابها في هذه الحالات الاربع

وتتجلى لنا هذه الفكرة في فلسفة سبنسر المركبة ، التي قضى اربعة وثلاثين عاماً في تأليفها . بدأ بها بالطبيعة والنواميس الحاكمة فيها . ثم تدرَّج منها الى الحياة — بيولوجيا — وأبان ان تلك النواميس هي نفسها عاملة في الاحياء عملها في الجوامد ، مع تنوُّع الصيغة . ثم ارتقى من ذلك الى علوم النفس — سيكولوجيا — فأوضح فعل الناموس ذاته هنا كما هو هنالك . وانتهى بالاجتماع — سسيولوجيا — فكان الناموس — او القوة — خيطاً ذهبيًّا يحوك شبكة متسلسلة ذات مراتب متفاوتة هي المادة والآلية والحياة والنفس والاجتماع

وفي فلسفة سبنسر نفسها قاعدة عامة هي : تطبيق الحي على الوسط الذي يعيش فيه . وذلك التطبيق او الملاءمة هو العامل في توليد الانواع . وبعبارة اوضح اقول ان اول حوائج الانسان لدرس الطبيعة كان جعل المحيط ملائماً لنشؤون الاحياء . أعني ان الانسان ملزم طبعاً بدرس الطبيعة واستكناه نواميسها ليتمكن بذلك من تحصيل قوته الذي يأكله والمنزل الذي يسكنه . وكان على الانسان ان يدرس احوال النهر الذي يفيض في جوار مأواه ليتقي اضرار الفيضان ، وان يدرس طبيعة الشمس التي ترسل اشعتها على جسمه الآلي من علٍ ، وان يدرس القمر والنجوم ليهتدي في سراه . فلم تكن ثمة ندحة عن مجس الانسان في هذه الموضوعات . ماذا تعني ؟ : ومن اين هي ؟ : وما هي ماهيته هو كانسان ؟ : ولماذا كان في وسط هذا المشهد قصير الاجل ؟ : وماذا سبقه ؟ : وماذا سيليه ؟

فكانت الاجوبة والتفاسير التي جمعها الانسان هنا وهناك ، الكتلات التي ألفت النظم العلمية والفلسفية والدينية وتبين الانسان في ختام البحث المستفيض انه هو — الانسان — اهم موضوعات البحث العقلية واوسعها مجالاً . وانه وهو في الرحم جنيناً كان عالماً واسع النطاق ولا ذرَّة فيه دون تاريخ ، ولا جزيئة بلا وصف واسم . بعد ذلك ولد الانسان في اسرة ، في مدينة او قرية ، في دولة او جمهورية ، في حقبة من الدهر ، فتحتم عليه ان يدرس اسرته ووطنه وعصره ، وما ارتبط بذلك من موضوعات البحث كالاجناس البشرية واللغات المنوَّعة من فردية المقاطع ومتعدّدة المقاطع . قد بلغت امته مرتبة معينة في المشهد الانساني ، فما هي نسبتها الى اخواتها الامم الاخرى وما مقامها في المجموع ، اقتصاديًّا وعلميًّا وخلقيًّا وعسكريًّا واجتماعيًّا ، وما هو ماضي تلك الامة ، وكيف توصلت الى موقفها الحالي ، وماذا يتوقع منها في المستقبل ؟

وكما ان الفرد الواحد من الاحياء لا يموت لمجرّد موت — او انحلال — الخلية الواحدة في نسيجه الخلوي، هكذا الجنس البشري لا يموت بموت الفرد الواحد من الناس كائنة ما كانت منزلته ومقامه

ان فلسفة التاريخ تصوّر لنا الوحدة والنظام فماذا تعني هذه الوحدة ؟ وما معنى هذا النظام ؟

الجواب عن الاول، ان تلك الوحدة تعني وحدة الاصل والعلة، وحدة الطبيعة، وحدة الروح او الذهن، تتجلّى تلك الوحدة في جميع الافراد، وفي جميع العقول. فترى العقول كافة تخضع لحكم الناموس الواحد في الطبيعة وفي الرياضة. وتبادل التفاهم مبني على تلك الوحدة ولولاها انعدم الاجتماع وانعدمت العلوم والاشتراع. على ان تلك الوحدة لا تقاوم الصفات الثانوية او العرضيّات كاللون والاقليم. وهي تميل الى كونها وحدة في اقتسام المنافع، وتمثّل الالتزام والاشتراك في ناموس المتانة الاجتماعية او التماسك الاجتماعي. فالمرء صغير بذاته قويّ بقومه، وذلك الناموس — ناموس المتانة الاجتماعية — يجعل خير الفرد خير الجماعة. ولا اعرف اسماً اجدر بتلك الوحدة من كلمة « انسانية ». فهو اسم يشتمل على المعنى الجنسي والاخلاقي في الفرد وفي المجموع لانه يعرب عن الحقيقة الذاتيّة، والفعل المباشر الذي به تتصف الافراد في مجموعها

يتبع ذلك ما ندعوه وحدة « الغاية » التي تجعل تقدم الانسان اجتماعيًّا عبارة عن تحقيق الذهن والترابط في الحالات الاجتماعية والصبغات التي ابتدعها الانسان في اوضاعه النفسية والاخلاقية والفنيّة والدينية، تلك الصبغات التي بها هو « انسان ». واذا درسنا عادات الانسان ولغته ولغاته وذياناته وفنونه وآدابه ومسارحه ودرجات مدنيته بدا لنا درساً ظاهريًّا بعيد الآفاق. ورأينا ان تلك الاشياء تعرب عن تباينات شتى في شتى الامم وشتى العصور والاماكن، مع ذلك هي تعرب عن وحدة عقلية ناشئة عن ارتباطها بالعقل الذي هو مصدرها. واذا تفلسفنا ألفيناها تسعى الى وحدة في طبيعة العلة الفاعلة، التي ابرزتها. وانها مطاوعة لشرائع كائن، ومتأثرة بعوامل خارجية، وبحكم ذلك الكائن وهذه العوامل جرى الانسان في كل عصر وفي كل مصر على نظم العائلة وتأليف العشيرة، وعلى ضم العشائر بعضها الى بعض لتكوين الامة، ومجموع الامم تؤلف الانسانية او النوع الانساني مجلى الوحدة في كل الدنيا

فلم تنشأ الشرائع والنظم الاجتماعية في كل امة بحكم الصدفة والعرض، كلاّ، انما نشوء تلك النظم المتماثلة يفرّ عن وحدة الاصل الفاعل في كل هذه الاوساط. ومع ان تنوعها يعلي تباين احوالها، فاتفاقها يبدي وحدة اصلها. كذلك الصناعة والفن، وهي جهود اختيارية، نشأت عن عمل الذهن متأثرة بالوسط الجغرافي. قس على ذلك التجارة والمال والاحوال الاقتصادية، فانها كلها راجعة الى نواميس الاصل الواحد وتأثيراته

ومن هذا القبيل آداب اللغة. فهي واحدة في اصلها، متنوّعة الصبغة والاعراض الثانوية

تؤلف هنا اقاصيص خاصاً ، وهنالك اشعاراً عامية ، وهنالك خرريات وروائيات ومُلَحاً ونكات ومعلقات وخطباً رائعة فتانة، على انها في كل تلك الصيغ تعبّر عن حال القوم الروحية والدينية اهم ما يعرب عن حال الامة الداخلية فهي مقياس عقلهم وضابط مصيرهم . وكما ان الماء لا يرتفع عن مستوى مصدره كذلك الامة لا يمكنها ان ترتفع عن مستوى ديانتها والافراد الانسانيون كالخلايا الفسيولوجية، متعاونة ، متبادلة المنافع ، متصرفة في تراث السلف ، مورثة جهودها للخلف ، فحياة الانسانية واحدة ، وخيراتها ملك مشترك للعموم . واذا كانت الوحدة عسيرة فالتشعب أعسر . لان العواصف ، وتنازع القوى الطبيعية ، لا شيء اذا هي قيست بثورة العواطف الانسانية ومنازعات الارادة وتضارب المصالح والاهواء . ومتى كانت الذات مركزاً فلا مندوحة عن التصادم بين الافراد والجماعات . وان حروب الامم الهمجية عمل لطيف ، الاثر صغير ، بالقياس الى حروب الامم التي بلغت منزلة عالية من الثقافة والعلوم ، وبعثت ارقى ذرى المدنية والاختراعات العصرية

في وسط هذه الفوضى تلمح آثار النظام . واذا لم يكن هنالك من ناموس ونظام في التاريخ فليس في حياة الانسان الاّ الصدفة العمياء . واذا انعدم الناموس في الانسان افيمكن تصوُّر وجوده في الطبيعة ؟ واذا تصوَّرنا هذا الناموس في طبقات الكون الدنيا دون العليا فأي كمال أو رسوخ يمكن ان يكون في الكون ؟ فان العقل المضطرب لا يمكن استقراره في طبيعة متكاملة النظام ، وافتراض نواميس طبيعية لا تتخلّف في عقل غير مرتبط بنظام هو امر غير معقول كافتراض حروف هجائية معينة في آداب لغة غير منظمة ولا مفهومة

لذا كان من رغبات المفكرين ان ينشدوا الناموس والنظام في التاريخ كما تجلى لهم في الطبيعة واستجلاء ذلك الناموس هو فلسفة التاريخ . على ان بحثهم هنا هو ابطأ ، وأملهم بالفوز هنا أقل منه هناك . لانه لا يسع الانسان ان يتصوَّر كوناً تسوده المشيئة الالهية والعقل فيه فوضى . وبدون ذلك الرابط تكون التواريخ حوادث مبعثرة من دون ناموس ولا مصير ولذا وجب الايمان بالناموس في التاريخ كما في الطبيعة حوله . وهذه الفكرة تؤدي بنا الى علوم الكلام فتجعل مجرى الكون خاضعاً لمشيئة الله . فالحرية تسود السماء والضرورة والقدر الاعمى الارض . هذه هي قاعدة لاهوت اوغسطينوس واكويناس وفلسفة سبينوزا وليبنتز

ولكن فكرة النظام ، وهي ضرورية في كلا الوسطين ، الطبيعة والتاريخ ، تراها مع ذلك جلية في هذه ، غامضة في ذاك . ففي الطبيعة قوّة ثابتة لا تتخلّف ولا تكلّ . اما في التاريخ فالعلة الفاعلة هي ارادة متقلبة متعارضة . فالنواميس التي تسود التاريخ هي عقلية لا طبيعية ، اقناعية لا ارغامية . وهي في التاريخ بوعان ، جاذبة ودافعة ، وما يبدو لنا من التذبذب في حياة الدول ليس الاّ ايماناً تحوّل الى حقيقة في بعض الارادات والعقول . وذلك يوضح لنا ان النظام في التاريخ عقليّ

لا مادّي . وعليه فحركة النظام في التاريخ هي تقدّم . وهي كناية عن جهد العقل لتحقيق ذاتيته ، وامتلاكه الحرية من صولة المادة ، وبالتالي تحرّره من القيود الطبيعية والسياسية والاجتماعية ، تلك القيود التي تؤخر ارتقاءه او تعارضه

ان تصورنا النظام في التاريخ يقتضي تصوّر علته ، وعلته هي العقل او الذهن او الفكر ، تلك القوة المبثثة في الطبيعة ، واللابسة ثوب الشخصية في الانسان

الانسان مطية النظام ، فيعيش في النظام وبه يلوذ . وليست العقلية المذخورة في الطبيعة هي العامل الوحيد في الانسان . بل ان هنالك عاملاً آخر فيه هو الهيئة الاجتماعية . ولا يكون الانسان انساناً دون هيئة ونظام . وكلما تقادم عهد الجنس ازداد تقوذ السلف في الخلف . ولا يعيش الجنس بمعزل عن اصله ومصدره . فبأي منهج ، وبأي عامل ، بلغ تصور النظام حياة الانسان ، اولاً في المشاتر البدوية ، ثم في القوميات ، وأخيراً في صورة دولية — عامة — ؟ وكيف تغلب التقدم الجنسي على ما في صدر الانسان من النفسانية ؟

الجواب : — إن في تيّار الهيئة الاجتماعية ميلاً الى خلق النظام ، واستبدال الغيرية من النفسانية . لان انتظام الهيئة ، وحرية حركتها لبلغ ارقى ذراها يستلزم الافلات من قيود الاستئثار الفردي فتتمكن الهيئة من توزيع المنافع على الافراد . وجهود الهيئة انما هي محاولات لادراك افضل حالات النظام الضامن الانصاف في ذلك التوزيع . فالاجتماع خلق الغيرية . والغيرية آخر ملجأ يلوذ به الانسان لضمان كيانه وسعادته

وفي نفس الانسان غريزة حب البقاء . وحب البقاء يستلزم العدول عن العوامل الوحشية في النفس لانها تتحوّل مع ارتقاء الانسان الى عوامل انقراض وفناء . فالانسان لكي يبقى ، مضطرٌ أن يعدل عن الحروب . لان الانسانية تحتمل الحروب وشن الغارات في اطوار طفولتها وصبوتها . اما في حال ارتقائها ورشادها وبلوغها ارقى ذرى العلوم والاختراع فيتعذر عليها احتمال الحروب . فترى امامها احد مسلكين لا ثالث لهما اما السلم او الفناء . والسيادة العظمى في الهيئة الراقية للمثل الاعلى Ideal والتصورات المتصلة بتلك النزعة العالية هي افضل العوامل في تدرّج الانسان في معارج الارتقاء

فالنزاهة ، واحترام المصلحة العامة والتضحية بالمصلحة الفردية في سبيل المصلحة العامة ، تلك الكمالات الروحية ، هي غاية مسير الطبيعة في الانسان ، وفيها تحقيق احلام المفكرين والشعراء من عهد افلاطون حتى الساعة . وانكار ذلك علينا هو خلل ادّى الى حصوله النقص الملابس الانسانية والعقلية الفردية في عهد طفولتها ، وستمرّ الدهور وعشرات القرون ، قبلما يتمكن الانسان من بلوغ المنزلة السامية التي تسعى الانسانية الى بلوغها . تلك الغاية السامية هي اثر الله في الطبيعة واثره تعالى في الانسان ، وفي الاجتماع

النباتات المصرية

القديمة : الفواكه

للدكتور حسن كمال

﴿حدائق الفاكهة﴾ كانت المعابد المصرية القديمة الملحقة بالمقابر وكذا صور العظماء تحوي في أغلب الاحيان تكاعيب العنب (الكرم) . اما الفلاحون فكثيراً ما زرعوا الكرم بالقرب من منازلهم وفي حقولهم ليستريحوا في ظله من عناء العمل وقت الظهيرة . ومما يشير الى شدة عناية القوم بالفواكه ما ورد في خطاب لناظر زراعة سجّل به محصول حديقة الفاكهة التابعة لمعبد رمسيس الثاني (١٢٩٢ — ١٢٢٥ ق . م .) من ان اشجاره الملكية انتجت ١٠٠٠٠ قفة من فاكهة الرمان و ١٠٠٠٠ قفة من العنب . وجاء في موضع آخر انه تمكن من استخراج ما مقداره ٣٢٥ لتراً من النبيذ و ٢٥٠٠ لتراً من عصير الرمان و ٢٥٠٠ لتراً من شراب يقال له مورت (قرطاس انسطاسي ٤ — ٦ و ٧) وجاء بقرطاس هريس (١٩ ب ١٣ — ٢) ذكر لمقدار ١٥٥٠٠ قطفة من الرمان للمائدة و ١٢٤٠ شوال من الرمان لاغراض اخرى و ٣١٠ آنية من الزيتون . وجاء بقرطاس هريس ايضاً (١٥ ب ٣) ذكر لتعداد ١٣٥٢ مكيالاً كبيراً من الزيتون يظن انها جمعت لاستخراج الزيت . هذه المقادير العظيمة دليل كاف على عناية القوم باتماء اشجار الفاكهة

وتلاحظ على الآثار التي يرجع تاريخها الى ما قبل حكم رمسيس الثاني (١٢٩٢ — ١٢٢٥ ق . م) رسوم لسلال مملوءة عنباً (مقبرة نخت — دبغير ٢٢ — ٢٥) . وورد بمقابر سقارة أسرة خامسة (٢٥٦٠ — ٢٤٢٠ ق . م .) ذكر لاشجار الجميز والبلح والدوم والتين وغير ذلك

ويستنتج من رسوم الحدائق المصرية القديمة انها مقسّمة الى عدة اقسام تفصلها عن بعضها ممشى مظلّلة بالاشجار وتروى بواسطة قناة صغيرة متصلة بالنيل . والحدائق صروح جميلة المنظر وبالقرب من المدخل تشاهد عادة حجرات البواب والمستخدمين والسلالك . تلي ذلك تكاعيب العنب (الكرم) ثم عدة حجرات او اكشاك للاستراحة . وحول التكاعيب تزرع عادة صفوف من النخيل

والدوم . وكثيراً ما يزرع هذان الاخيران حول الحديقة من داخل السور ايضاً . وتوجد حياض المياه في وسط الحديقة او في جوانبها . وكثيراً ما يتمكن الباحث من تمييز شجر الرمان والتين من بين اشجار الفاكهة بالشكل الواضح لكلٍّ منهما . اما تكاعيب العنب (الكرم) فكانت مقامة على اعمدة خشبية منتظمة التركيب بشكل شوارع او ممشى غاية في الاناقة وسلامة الذوق

***

(العنب) ويقال له باللاتينية (Vitis Vinifera) وبالانكليزية (Vine) كان يزرع في مصر منذ اقدم العصور التاريخية . فاستعمل القوم رسم تكعيبة العنب حرفاً في الخط الهيروغليفي الشيق . قال ديودورس الصقلي (ج ١ — ٢ — ٨) ان ازوريس هو الذي علّم زراعة العنب بالارض وعلّم الناس صناعة النبيذ . لذلك اعتبره القوم اله الكروم ورمزوا له بغصن العنب . قال فلوطرخس (رواية ازوريس وازيس ٩) ان المصريين اعتبروا النبيذ مثلاً لدم الاعداء الذين قهرهم آلهتهم وهذا هو السبب الذي حمل اليونانيين في اواخر التاريخ المصري القديم على تشبيه (ازوريس) بمعبودهم (باخوس) وجعل القوم ايضاً يرسمون (ازوريس) جالساً تحت تكعيبة العنب[1] . ولنفس السبب ايضاً تعزى عادة تقديم العنب لازوريس[2] . ووصف الاستاذ بايه (Baillet) تمثالاً لازوريس يمثله عارياً لابساً قلنسوة طويلة مدببة على رأسه مائلة نوعاً الى الوراء ومطوقاً صدره بكوفية وحاملاً سلة على ظهره شبيهة بالمستعملة في جني العنب وواضعاً احد اصابعه في فمه ومتكئاً بيده الاخرى على مقدار كبير من العنب يملوه ملكٌ ماسكٌ راقصاً رأسه ويملو رأسه قرص الشمس وفسّر ذلك الاستاذ (بايه) بان هذا التمثال يمثل ازوريس إله الموتى في مملكته الزراعية ومنسوباً اليه فيها زراعة العنب

وجاء في مجلة المعهد المصري العلمي (١٨٨٤ سلسلة ٢ رقم ٥ ص ٢٣ رقم ١٨) ان الزبيب (المعروف في بلاد الشام بالعرّق) الذي عثر عليه في احدى المقابر المصرية القديمة هو من النوع الاسود انكير الحجم واستدلّ من تباين احجام بذور هذه الفاكهة على انها من انواع متعددة على الارجح . وعثر على كثير من اوراق العنب بالمقابر المصرية طبقتها الداخلية ملوها شعور بيضاء دقيقة (مجلة المعهد المصري ١٨٨٥ سلسلة ٢ ص ٢٦٩) مما يميزها من انواع العنب التي تزرع الآن

والمعروف ان العنب من الفصيلة الكرمية (Vitaceae) التي تشمل الآن اربعين نوعاً اقدمها النوع المصري القديم المعروف باسم (Vitis Vinifera) واليه ينتمي نوع العنب المعروف باسم (Silvestris) المنتشر على سواحل البحر الابيض المتوسط والواصل حتى بلاد القوقاز شرقاً والمانيا شمالاً والمعتبر الآن اصل العنب الحديث

(١) Budge, By Nile & Tigris I p 336 pl.

(٢) Bibl. Egyp. t XVI p 3.

وورد عن اليونان انهم صنعوا النبيذ بكثرة في عهد (هوميروس) فاستدلّ بذلك على كثرة زراعة العنب هناك وتكاثره . ولا بدّ ان تكون زراعة العنب وصلت ايطاليا من عهد بعيد ايضاً . والغريب ان العنب المصري القديم هو المزرع أيضاً ببلاد امريكا بولاية كاليفورنيا وذلك بكثرة ويقال للعنب بالمصرية القديمة (يارورت)

* * *

٢ — ﴿ الرمان ﴾ ويقال له باللاتينية (Punica Granatum) وبالانكليزية (Pomegranate) اقدم رسم لشجرة الرمان على الآثار المصرية هو الوارد بمقبرة في تل العمارنة من عهد اخناطون (١٣٧٥ — ١٣٥٨ ق . م .) (يتري تل العمارنة ل ٣٢) . واورد الدكتور أونجر Unger رسوماً لهذا النبات مأخوذة من مقابر طيبة . قال پلينوس (١٣ — ٣٤) ان رمان صاموس يمتاز عن رمان مصر بان اوراق احدهما حمر واوراق ثانيهما بيض . ويستدل على كثرة زراعة الرمان بمصر من العبارة الواردة بقرطاس انسطاسي (٤ — ٦ — ٧) ومضمونها ان ما جمع من الرمان من احدى الحدائق وقتئذ بلغ عشرة آلاف قفة . وقد عثر الاثريون على كثير من فاكهة الرمان من تلك العصور . ودور تحف اوربة تحوي ثمار هذا النبات (فلورنسا رقم ٣٦٠٨ وبرلين رقم ٤٤٩ ولندن رقم ٥٣٦٧ وليدن رقم ٢ — ٣ و٦ الخ)

واكل القوم الرمان كفاكهة وصنعوا منه شراباً سمّوه (شيدو) (لوريه نبات مصر القديمة ص ٧٨) وذكروه دائماً مع النبيذ . قال المرحوم كمال باشا ان محصول بستان رمسيس الثاني (١٢٩٢ — ١٢٢٥ ق . م .) كان يشتمل على عنب ورمان وثلاثة انواع من الشراب هي النبيذ العنب (اي عصير العنب) والنبيذ المعتاد وشراب الرمان

ووردت وصفة طبية لمستحلب مصنوع من جذور الرمان واخرى من قشر الرمان قصد طرد الديدان المعوية . فقد جاءت بقرطاس ايبرس (ل ١٦ س ١٥ و١٨) ان قشر ثمرة الرمان اذا مزج بالماء وعُصر ورُوّق وشُرب دفعة واحدة طرد الديدان المعوية . ولا يزال هذا العلاج مستعملاً في الطب الحديث مع بعض التعديل

واول من ذكر الرمان عند اليونان هو ديوسقوريديس (١ — ١٥٣) . وفي عام ١٨٠٧ ادخل بوكانان (Buchanan) استعمال قشر الرمان في الطب الاوربي

والمعروف عن هذا النبات انه قديم جدًّا . وقد ورد ذكره بالتوراة . واسمه عند الرومان (Malum punicum) مما يشير الى انهم عرفوه من قرطاجنة (Carthage) كما رواه پلينوس ومن هنا نشأت الفكرة بان الموطن الاصلي لهذا النبات شمال افريقيا

قال المرحوم كمال باشا (لآلىء درية ص ٣٠ و ٣١) ان الرمان ليس مصري الأصل وان اسمه بالمصرية القديمة هو (إنهمان وإرمان) — والى الاسم الاخير يرجع لفظ رمان — والغالب انه من بلاد فارس . قال لوريه : والهيكسوس هم الذين ادخلوه مصر حينما ادخلوا اليها الخيل من آسيا وذلك في العصر (١٧٠٠ — ١٥٠٠ ق . م .) لان أقدم رسم للرمان هو الوارد في عهد إخناتون (١٣٧٥ — ١٣٥٨ ق . م .)

* * *

٣ — ﴿ الجميز والتين ﴾ اما الجميز فيقال له باللاتينية (Ficus Sycamorus) وبالانكليزية (Sycamore) وكان مقدساً عند قدماء المصريين (هرم اوناس س ٥٥٥ ونتي ٣١٦) وخصوصاً في القسمين الخامس والسابع من الوجه البحري . وحيث كانت شجرة الجميز من اقدم الاشجار المصرية واشهرها جُعل اسمها (نهي) علماً على مصر فسميت مصر (نهي) ايضاً وكثيراً ما رسم القوم شجرة الجميز والمعبودات (نوت) و (حتحور) و(نايت) خارجة منها . وورد عن الكاتب (آني) انه لما توفي كان يستظل في الآخرة تحت شجرة الجميز (Rec. de Mon. Ip 30) وزعم القوم ان ازوريس دفن في تابوت من خشب الجميز (Rec. de trav. LII 55)

من ذلك يتضح ان الجميز مصري الاصل . ووجد من ثمره مقدار جاف في المقابر وسلال مملوءة بثمره وورقه في توابيت المومى . وكان يصنع من خشبه التوابيت والاثاث والتماثيل . وكثيراً ما تشاهد اشجاره مرسومة على جدر المقابر . وفي بني حسن — اسرة ١٢ (٢٠٠٠ — ١٧٩٠ ق . م .) رسوم يستدل منها على كيفية جني ثماره . حيث تشاهد شجرة جميز كبيرة خالية من الاوراق بين افرعها ثلاثة من القردة تجني ثمرها وتلقي به على الارض فيلتقطه رجل في سلال معه . وتأكل البقية بينما الاخرى

وكثيراً ما ورد الجميز في وصفات الادراج البردية الطبية بخصوص مرض المعدة والامعاء وجميع متاحف اوربا تحوي بعضاً من الجميز المجفف من العهد الفرعوني . محفوظة جيداً

* * *

﴿ واما التين ﴾ فيقال له باللاتينية (Ficus Carica) وبالانكليزية (Figs) ورد مرسوماً على موائد المومى ضمن القرابين واستعمله القوم في الطب (لوريه نبات مصر القديمة ص ٤٧)وصنعوا منه نبيذاً (ماريت — مصطبة ص ١٨٠)

والتين والجميز من فصيلة واحدة اسمها باللاتينية Ficus ووجد شوينفورت بالمقابر المصرية التين المتاد

ولتين عدة اسماء بالمصرية القديمة منها (تون) وهو أصل لفظ تين على الارجح — كمال باشا (لآلىء درية ص ٣٠٠)

***

﴿ ٤ — البلح ﴾ ويقال له بالانكليزية (date) وجدت منه قديماً انواع عديدة بوادي النيل (تيوفراستوس تاريخ النبات ٤٢٢ — ٨ و ٩ و پلينوس تاريخ طبيعي ١٣ — ٩) وورد رسم النخيل في عدة مقابر مصرية قديمة (روز اللبني ج ٢ ل ٦٩) والنخيل المصري القديم يعرف في اللاتينية باسم (Phoenix dactylifera) وبالانكليزية (date palm) وعثر (دي مورجان) على نوى البلح بمصر من العهد الحجري [1] وميّزه (شوينفورت) و (پتري) على الآثار [2] قال استرابون (١٧ — ٨١٨) ان اجود انواع البلح هو المزروع بالاقصر

وصنع المصريون اصنة سيدي ساحورا [3] وادفو بريشة النخيل . وزيّن القوم حدائقهم بهذا النبات البديع (قرطاس هاريس ل ٢٧ س ٢) كما وجد مرسوماً على صحيفة قبر (Stela) بدار تحف القاهرة [4] وأكل المصريون البلح غضًّا (قرطاس هاريس ٢١ — ب) ومجففاً (هاريس ٤٤ — ١ — ٩) ومسكّراً في عسل النحل وعجوةً (هاريس ٢٧ — ١ — ٥) وصنعوا كما صنع اهل العراق منه نبيذاً هو اصل مشروب العرقي . قال المرحوم كمال باشا (بغية الطالبين ص ٣٤٣) ان المصريين صنعوا منه ايضاً عسلاً سموه (اني — نت . بتر)

***

ووصف القوم البلح في قراطيسهم الطبّية كليّن (ايبرس ٧ — ٧) وكندرّ للبول (ايبرس ٤٨ — ٣٢) واخذ ذلك عنهم پلينوس حيث اشار باستعمال هذه الفاكهة في امراض المثانة والمعدة والامعاء (تاريخ طبيعي ٢٣ — ٥١) وصنع القوم من الياف النخيل الحبال . واسطول الملك ساحورا (٢٥٥٠ ق . م .) كان يستعمل حبالاً لسفنه طول الواحد منها ثلاثمائة ذراع (قرطاس تورينو ١٠١ ـ ١ ـ ١ و ٩) مصنوعة من الياف النخيل « غاية في المتانة » على حدّ تعبيرهم . (قرطاس تورينو ١ ـ ٤) . واستعمل ايضاً للتسبيل (ديمخن ٤) حيث ورد فيه العبارة الآتية « تغسل درن رأسه وتنظف رجليه بليف النخيل » واتخذوا منه ممسح لنظافة الاشياء الصلبة . اما اسم الليف بالمصرية القديمة فهو (شو)

---

(١) Recherches, vol II pl 69 (٢) مجلة العهد العلي المصري سلسلة ٢ سنة ١٨٨٢ ج ٣ ل ٧٤ وسنة ١٨٨٤ ص ٢٠٨ (٣) بور خارت — مقبرة ساحورا ج ٢ ص ٥١٦ (٤) ماسپرو تاريخ الشعوب الشرقية ج ٢ ص ٥١٦

واما جريد النخل (rami palmarum) فاستعملوه في صناعة العصي والاقفاص والكراسي الخفيفة واسمه بالمصرية القديمة (ياعيت)

واما الخوص فصنعوا منه الحصر والسلال ونعال الموتى . لانهم اعتقدوا ان الميت لا بدّ وان يكون سعى لمعيشة في دنياه فدنّست باطن رجليه فلا ينبغي ان يطأ بها الدار الآخرة الا اذا نبس نعالاً او سُلخ جلدها . ومن ثمّ كان وجود النعال مع الموتى كثيراً في المقابر (كمال باشا — بنية الطالبين ص ٣٦٠)

ويقال للبلح بالمصرية القديمة (بز) وللنخيل (إم)

وانتشر النخيل من قديم الزمان في المناطق الممتدة من الهند شرقاً الى جزائر الخالدات غرباً لكنه لم يصل الى جنوب اوربا الا اخيراً . ولما كان ثمارها لا تنضج بتلك الجهات انحصرت فائدتها عند هؤلاء القوم في استعمال جريدها في (عيد السعف) المسيحي . بعد ذلك نقلها الاسبانيون الى امريكا حيث تزرع الآن في جنوب الولايات المتحدة والمكسيك

***

٥ — ﴿الدوم﴾ ويقال له باللاتينية (Hyphene thebaica) وبالانكليزية (Doum-palm tree) وجد ثمره بكثرة في المقابر المصرية القديمة مثل كاهون بالفيوم لان القوم كانوا يقدمونه قرباناً لموتاهم ويأكلونه هشّاً وحشفاً ومعجوناً . قال استرابون وكانوا يصنعون من ورقه حصراً . ويوجد بمتحف (فلورنسا) زوج نعال مسجل تحت رقم ٢٧٠٣ مصنوع من خوص الدوم . وكانوا يتخذون من جذوعه عمداً طويلة يحلّون بها معابدهم ويرسمون عليه كثيراً من آثارهم بجوار النخيل لانه من الاشجار التي كانوا يزينون بها بساتينهم . قال (ماريت) وكان الدوم مقدّساً عندهم ويطلق عليه اسماً بدليل العبارة الواردة بقرطاس سالبير (رقم ١ لوحة ٨ س ٤) وتعريبها « ايتها الدومة الشاهقة البالغة ستين ذراعاً المحملة بالثمر ذي النوى التي تحوي داخلها الماء » . وورد ذكر الدوم بقرطاس ايبرس اثنين وثلاثين مرة ضمن ادوية متنوعة التركيب

اما اسمه بالمصرية القديمة فهو (ما ما)

***

٦ — ﴿التوت﴾ ويقال له باللاتينية (morus) وبالانكليزية (mulberry). قال (شويتفورت) ان التوت الابيض أصلي في مصر اما الاسود فكان نادراً لعدم غرسه فيها . ومع ندورته فان (فلندرس بتري) وجد بعضاً منه في مقابر هوارة . قال (لوريه) والظاهر ان هذين النوعين اصليان في مصر وان المصريين يسمون الابيض بالمصري والاسود بالشامي (كمال باشا آل ء درية ص ٩٧)

٧ — ﴿ السدر ﴾ (نبق) ويقال له باللاتينية (zizyphus spina christi) وبالانكليزية (jujubus) . ويقال لثمره النبق . وجد هذا الاخير في المقابر المصرية القديمة بكثرة ونقل منها الى متاحف اوروبا . ووجد (ماسپرو) في الجلين بعض من النبق واوصلها الى الاستاذ «شوينفورت» لبحثها « مجلة المعهد المصري ١٨٨٥ سلسلة ٦ ص ٢٦٠ » . وعثر فلندرس پتري على نبق بمقبرة كاهون كان مقدماً قرباناً للموتى . وضع القوم منه خبزاً . ودخل النبق ضمن ست عشرة وصفة طبية بقرطاس « ابرس » . واتخذ القوم من خشبه مقابض للمراوح . وكانت بلاد النوبة بلدة تسمى « پي نبس » أي مدينة النبق فلعله كان كثيراً فيها

ويقال للنبق بالمصرية القديمة « نبس »

***

٨ — ﴿ البطيخ ﴾ اسمه باللاتينية (Citrullus Vulgaris) ورد مرسوماً بكثرة على الآثار وملوّناً بالاخضر . كذلك التمام ورد على الآثار ملوّناً بالاصفر . وكان قدماء المصريين يزرعونه بكثرة واورد الاستاذ (اونجر) « نباتات مصرية قديمة شكل ٣٠ و٣١ و٣٢ » رسوماً لهذا النبات. ووجد في تابوت الكاهن « نبسني » ورق البطيخ كاسياً للموميا « مجلة المعهد العلمي المصري ١٨٨٢ سلسلة ٢ ج ٣ ص ٧٣ » . وعثر على بزوره في مقبرة مصرية قديمة . ومنه ايضاً في متحف برلين . واسمه بالمصرية القديمة « بدّوكا » وهو اصل لفظ « بطيخ »

وهذا النبات من الفصيلة القرعية المعروفة باسم (Cucumis melo) وبالانكليزية (melon) أو (Musk melon) اما البطيخ فنوع من هذه الفصيلة ويعرف بالانكليزية باسم (water melon) او قاوون الماء وبالفرنسية (pastèque) وبلغة جالينوس « القثاء التضيح » . والغالب ان افريقيا هي موطن البطيخ الاصلي لانه معروف في مصر من اقدم الازمنة . وكان معروفاً قبل الميلاد ببلاد آسيا وجنوب اوروبا

***

٩ — ﴿ فواكه دخيلة ﴾ ادخل المصريون في مصر كثيراً من اشجار الفاكهة من الاقطار المجاورة وزرعوها فيه بنجاح (برستد نصوص مصرية قديمة ـ ٢ ـ ٤٥٠) . ولا تزال جذور شجر المرّ موجودة بحديقة معبد الدير البحري بالاقصر . وهذه الاشجار استحضرت من بلاد الصومال في مواعين كبيرة . وفي المدة بين الاسرة ١٨ (١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق . م .) الى الاسرة ٢٦ « ٦٦٣ — ٥٢٥ ق . م . » . دخلت مصر الاشجار الآتية « لورية — نبات مصر القديمة ٨٢ و ٨٣ و ٨٤ و ١٠١ »:— اللوز . الوالح . الليمون . الجوز . البندق . الخوخ الكمثرى . التفاح

وعلى ذلك فكل هذه الفواكه الاخيرة اجنبية الاصل

احوال المعلمين

واحكام المعلمين والمتعلمين

للاستاذ فؤاد الاهواني

هو عنوان لكتاب في التربية مخطوط ، وجدته في مكتبة باريس الاهلية . ولعلك أدركت من العنوان أنه كتاب قديم ، فقد كان القدماء يغرمون بسجع العنوان . والنسخة المخطوطة قديمة ، وتاريخ خطها يرجع الى سنة ٧٠٦ للهجرة ، ويقع المخطوط في سبع وتسعين ورقة من الحجم المتوسط وفي كل صفحة حول الثلاثة عشر سطراً ، ويغلب على الخط ان يكون مصريًا

والعنوان السالف هو الذي ذكر في فهرس المخطوطات لمكتبة باريس الاهلية ، وفي النبذة القصيرة التي كتبت في الفهرس ذكر اسم المؤلف على هذا النحو « ابو الحسن علي بن محمد القابسي » . أما الاسم الصحيح للكتاب وهو المكتوب على ظاهر النسخة فهو « الفضيلة لاحوال المعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين » . أما اسم المؤلف الذي ورد بالنسخة فهو « ابو الحسن علي بن محمد بن خلف المعروف بالقابسي الفقيه القيرواني » وذكره ابن خلكان في الجزء الاول من وفيات الاعيان فقال هو « ابو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القروي المعروف بابن القابسي » وترجم له صاحب « شذرات الذهب في أخبار من ذهب » فقال « أبو الحسن القابسي علي بن محمد بن خلف المعافري القيرواني الفقيه شيخ المالكية أخذ عن ابن مسرور الدباغ وفي الرحلة عن حزة الكتاني وطائفة ، وصنف تصانيف فائقة في الاصول والفروع ، وكان مع تقدمه في العلوم حافظاً صالحاً تقيًا ورعاً حافظاً للحديث وعلله منقطع القرين وكان ضريراً وفيًا »

***

والقابسي نسبة الى قابس ، والقابس ، بفتح القاف ، وبعد الالف باء موحدة مكسورة ثم سين مهملة مدينة بافريقية بالقرب من المهدية . ولما فتحها الامير تميم بن المعز قال بن محمد خطيب سوسة قصيدة طويلة أولها :

ضحك الزمان وقد كان يدعى عابسا ... لما فتحت بجد عزمك قابسا
أنكحتها عذراء ما أصدقتها ... الاّ قناً وبواتراً وفوارسا
الله يعلم ما جنيت غارها ... الاّ وكان ابوك قبلك غارسا
من كان بالسمر العوالي خاطباً ... أضحت له بيض الحصون عرائسا

وكانت ولادته في يوم الاثنين لست مضين من رجب سنة أربع وعشرين وثلثمائة ، وعاش طويلاً حتى طعن في السن وسئم الحياة ، حتى انه كان كثيراً ما ينشد قول زهير بن ابي سلمى المزني

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ... ثمانين حولاً لا إبالك يسأم

قال ابن خلكان « كان إماماً في علم الحديث ومتونه وأسانيده وجميع ما يتعلق به ، وكان للناس فيه اعتقاد كثير ، وصنف في الحديث كتاب الملخص جمع فيه ما اتصل إسناده من حديث مالك بن أنس رضي الله عنه في كتاب الموطأ رواية ابي عبدالله عبد الرحمن بن القاسم المصري وهو على صغر حجمه جيد في بابه . . . . . وتوفي ليلة الاربعاء وقت العصر بالقيروان ، وبات عند قبره من الناس خلق كثير ، وضربت الاخبية ، واقبل الشعراء بالمراثي ، رحمه الله تعالى »

وكانت وفاته في عام ٤٠٣ من الهجرة

***

فالقابسي من علماء الصدر الخامس للهجرة ، وكتابه هذا يعد من أقدم الكتب العربية في التربية . ولتأليف هذا الكتاب قصة ، ذلك أن أبا الحسن كان محدثاً فقيهاً لا شأن له بالتربية ، فما الذي حدا به أن يضع مصنفاً في التعليم ؟ الحقيقة أن مركز القابسي كعالم في الدين والفقه وحجة في الاسلام كان باعثاً للناس أن يتقدموا اليه يسألونه في أمور الدين ، وكان يفتي ويقضي بكتاب الله وسنّة الرسول ، ومن هذه الأسئلة ما تقدم به أحد الناس ، فوجدها كلها أو أغلبها تتصل بناحية واحدة عن التربية والتعليم ، فجمعها في كتاب واحد ، وضع له ذلك العنوان السالف . ولذلك يجري الكتاب على هيئة أسئلة يجيب عنها ابو الحسن

وإذا كان العرب قد كتبوا في التربية ، فإنك قلما تجد كتاباً خاصّاً مفصلاً يعالج هذا الموضوع ، بل أغلب ما كتب فصول متناثرة خلال المؤلفات ، كالفصل الذي وضعه ابن خلدون في مقدمته وكما ذكر الغزالي في الاحياء . وقد تعرض المؤلف هنا لمسائل تعد مما يشغل أذهان المفكرين في هذا العصر ، وقضى فيها بآراء طريفة ، فقد تكلم عن التعليم الالزامي ، وتعليم المرأة ، وأجر المعلم ، وعقاب التلميذ ، والفصول المدرسية ، ومناهج التعليم وغير ذلك من

المشاكل المعقدة التي لا يزال يدور حولها البحث حتى الآن ، وسأعرض رأيه في مسألتين : تعليم البنت ، وعقاب وتأديب التلاميذ

***

« . . . وأما تعليم الأنثى القرآن والعلم فهو حسن ومن مصالحها ، فأما أن تعلم الترسل والشعر وما أشبهه فهو مخوفٌ عليها . وإنما تعلم ما يرجى لها صلاحه ، ويؤمن عليها من فتنته ، وسلامتها من تعلم الخط أنجا لها . ولما أذن النبي صلى الله عليه وسلم للنساء في شهود العيد أمرهنَّ أن يخرجنَ العواتق ذات الخدور ، أو العواتق وذوات الخدور ، وأمر الحائض أن تعتزل ، فصلى الناس وقال يشهدْن الخير ودعوة المسلمين ، فلي مثل هذا تبتل في تعليمهنَّ الخير الذي يؤمن عليهنَّ فيه وما خيف عليهنَّ منه ، فصرفه عنهنَّ أفضل لهنَّ ، وأوجب على متولي أمرهنَّ . ففهم ما بينت لك ، واستهدي الله يهدي ، وكفى به هادياً ونصيراً

واعلم أن الله جلَّ وعزَّ قد أخذ على المؤمنات فيما عليهنَّ كما أخذ على المؤمنين فيما عليهم . وذلك في قوله جلَّ وعزَّ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً الآية . وقوله والمؤمنون والمؤمنات الآية ، وجمعهما في حسن الجزاء في غير آية من كتابه . وفي قوله تعالى وعد الله المؤمنين والمؤمنات الآية . وأمر أزواج نبيه عليه السلام أن يبين ما استعمنَ منه صلى الله عليه وسلم فقال واذكرنَ ما يتلى في بيوتكنَّ من آيات الله والحكمة . فكيف لا يعلمنَ الخير وما يبين عليه ، ويصرف عنهنَّ القائم عليهنَّ ما يحذر عليهنَّ منه ؟ إذ هو الراعي فيهنَّ ، والمسئول عنهنَّ ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم

***

أما ما ذكره في بيان سياسة معلم الصبيان وقيامه عليهم وعدله فيهم ورفقه بهم ، فهو ما يأتي :—

« . . . . ومن حسن رعايته لهم أن يكون بهم رفيقاً ، فانه قد جاء عن عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اللهمَّ من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فيه فارفقْ به . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يحب الرفق في الامر كله وإنما يرحم الله من عباده الرحماء . قال ابو الحسن فقولك هل يستحب للمعلم التشديد على الصبيان او ترى ان يرفق بهم ولا يكون عبوساً ، لأن الأطفال كما علمت تدخل في هذه الوصية المتقدمة ولكن إذا أحسن المعلم القيام وعنى بالرعية ، وضع الأمور مواضعها ، لأنه هو المأخوذ بأدبهم والناظر في زجرهم عما لا يصلح لهم ، والقائم باكراههم على مثل منافعهم ، فهو يسوسهم في كل

ذلك مما ينفعهم ، ولا يخرجهم ذلك من حسن رفقه بهم ، ولا من رحمته إياهم ، فانما هو لهم عوض من آبائهم . فكونه عبوساً أبداً من انقباضة المعقوتة ، وليس لمس الصبيان بها فيجترئوا عليه ولكنه اذا استعملها عند استهالهم الأدب ، صارت دلالة على وقوع الأدب بهم فلم يأنسوا إليها فيكون فيها اذا استعملت أدباً لهم في بعض الأحايين دون الضرب ، وفي بعض الأحايين يوقع الضرب معها بقدر الاستهال الواجب في ذلك الجرم . ولكن لا ينبغي له ألا يتبسط بهم تبسط الاستئناس في غير تقمص موحش في كل الأحايين ، ولا يضاحك أحداً منهم على حال ، ولا يبتسم في وجهه ، وإن أرضاه وأرجاه على ما يحب . ولكنه لا يغضب عليه فيوحشه اذا كان محسناً . واذا استأهل الضرب فاعلم أن الضرب من واحدة الى ثلاث فليستعمل اجتهاده لئلا يزيد في رتبة فوق استهالها . وهذا هو ادبه اذا فرط فتثاقل عن الاقبال على المعلم ، فتباطأ في حفظه ، وكثر الخطأ في حزبه ، أو في كتاب لوحه ، من نقص حروفه ، وسوء تهجيه ، وقبح شكله ، وغلطه في نقطه ، فنبه مرة بعد مرة ، فأكثر التفاضل ، ولم يُثنِ فيه العذل والتقريع بالكلام الذي فيه التواعد ، من غير شتم ، ولا سب لعرض ، كقول من لا يعرف لأطفال المؤمنين حقاً فيقول : ياماسخ ياقرد ، فلا يفعل هذا ولا ما كان مثله في القبح ، فان فلتت له واحدة فليستغفر الله منها ، وليتهي عن معاودتها . وانما تجري الالفاظ القبيحة من لسان التي لم تملك الغضب من نفسه ، وليس هذا مكان الغضب ، وقد نهى الرسول عليه السلام أن يقضي القاضي وهو غضبان . وأمر عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه بضرب انسان ، فلما اقيم للضرب قال : أتركوه . فقيل له في ذلك فقال : وجدت في نفسي عليه غضباً فكرهت ان اضربه وانا غضبان

***

قال ابو الحسن كذا ينبغي لمعلم الصبيان أن يراعي منهم حتى يخلص أدبهم لمنافعهم ، وليس لمعلمهم في ذلك شفاء من غضبه ، ولا شيء يزيح قلبه من غيظه ، فان ذلك إن أصابه فانما ضرب اولاد المسلمين فراحة نفسه وهذا ليس من العدل ، فان اكتسب الصبي جرماً من أذى ولعب وهروب من الكتاب وإدمان البطالة ، فينبغي للمعلم أن يستشير ابوه ، او وصيه ان كان يتيماً ، ويطلعه بجرمه ، اذا كان يستأهل من الأدب فوق الثلاث ، فتكون الزيادة على ما يوجبه التقصير في التعليم عن إذن من القائم بأمر هذا الصبي . ثم يزاد على الثلاث ما بينه وبين العشر اذا كان الصبي يطيق ذلك . وصفة الضرب هو ما يؤلم ولا يتعدى الألم الى التأثير المشنع أو الوهن المضر . وربما كان من صبيان المعلم من يناهز الاحتلام ، ويكون سيء الرعة ، غليظ الخلق ، لا يريعه وقوع عشر ضربات عليه ، ويرى للزيادة عليه مكاناً وفيه محتمل مأمون ، فلا بأس إن شاء الله من الزيادة على العشر ضربات ، والله يعلم المفسد من المصلح

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

لمحمود مصطفى الربـاطي

— ٧ —

شجر الجُمَّيْز

ويقال له (الجُمَّيْزَى) بالالف المقصورة وسماه البعض (تين فرعون) ولعلَّ في هذه التسمية اشارة الى قدمه

تشبه شجرته شجرة التين وبالشق يسيل منه لبن كثير تصل شجرته الى حجم عظيم وترتفع من ٨ امتار الى ٢٥ وتنتشر فروعها الى ١٢٠ قدماً وجذعها قصير عادة ويبلغ طول محيط الجذع الى ١٥ متراً . وورق الشجرة متبادل مستديم يسقط القديم منها حين يأتي الفصل بالاوراق الجديدة . ورقته نخيّة شبه اذينية اهليلجية كاملة الحافة تقريباً تكاد تكون ملساء براقة من وجهها العلوي ذات عنق يتخلل قاعدتها ثلاثة عروق يتراوح طول الورقة بين ٥ — ١٢ سنتيمتراً والجميز يثمر في السنة من ثلاث الى اربع مرات وثماره لا تنبت في اطراف الفروع اصلاً بل توجد في عناقيد على اغصان عديمة الاوراق ناشئة من الجذع نفسه او من فروعه الغليظة والثمرة الواحدة عبارة عن تحت الثورة تشبه التين البري طولها ½ ٢ سنتيمتراً وعليها بعض شعيرات ضئيلة ملساء وبذورها اصغر من بذور التين ولا تنضج الثمرة بنفسها بل لا بدَّ ان تشرط (تحسّن) من قمتها بمخلب من صفيح او حديد وذلك ليسمح للهواء بتجفيف سطحها الداخلي الذي يكون منتناً عادة بعصارة ناشئة عن وجود بويضات حشرة ضئيلة جداً تسمى (سايكوفاجا كراسيبس) (Sycophaga crassipes) تطرق الى ثمار الجميز لتوالد فيها

اسمه العلمي (Ficus Sycomorus, L.) (فيقوس سيقومورووس) وفصيلته التوتية (Moraceae) (موراسية) وبالانجليزية (The Sycomore—Figtree) وبالفرنسية (Sycomore)

ويعتبر بعض النباتيين موطنه الاصلي بلاد النوبة ونقل قديماً الى الحبشة ومصر وفلسطين والشام ولا يزال نامياً في شمال افريقية والسودان وبعض النباتيين يقول ان موطنه اليمن

ويزرع بكثرة على حافات الطرق في مصر للظل وبقرب المياه الجارية في اعلب انحاء السودان ويعمر طويلاً ولا ينسى القارىء قدم شجرة الجميز بالمطرية التي تسند اليها اسطورة استظلال السيدة مريم العذراء بها مع طفلها عيسى عليهما السلام

وخشب الجميز مشهور بعدم تأثره بالفساد في الطبقات الارضية وشدة الاحتمال للرطوبة والمقاومة الزمنية ولذلك كان قدماء المصريين يتخذون توابيت الموتى منه ولا يزال المصريون يصنعون منه (الحتازير) المعروفة التي توضع في قيعان السواقي والآبار ويبنى عليها ويصنعون منه السواقي والتوابيت (دواليب الري) ويدخل في صناعة السفن . وقد استعمله العرب في اقامة العمارات قيل إن افلاريز جامع ابن طولون من خشب الجميز وكان قديماً يتخذ منه قواعد ترتكز عليها المدافع وتصنع منه بالسودان ادوات منزلية واوان كالقصاع وغيرها

شجر الكاد الهندي

ويقال له بالسنسكريتية (خديرا) (Kandira) ضرب من السنط معروف في الهند . شجرته دائمة الاخضرار ترتفع من ٦ امتار الى ١٢ . أوراقها من نوع الريشية المركبة المضاعفة في كل ورقة ١٠ ازواج من الوريقات الريشية وفي كل واحدة من هذه من ٤٠ زوجاً الى ٥٠ من وريقات زغبية غير ريشية في صورة خطوط . والشجرة شوك منبسط معقوف . وأزهارها مجتمعة في سنابل اسطوانية في الواحدة منها زهرة الى ثلاث

اسمه العلمي (Acacia Catechu, W.) (آقاسيا قاتيشو) وفصيلته السنطية او المستحية (Mimosaceae) (ميموزاسية) وبالانجليزية (Medicinal Acacia; Catechu Tree) وبالفرنسية (Acacie du Cachou) نابع في غابات الهند وبورما وجزائر الهند الشرقية والغربية وشرق إفريقية مشهور بصلابة خشبه وشدة مقاومته ولذا يتخذ في مواطنه المذكورة دعامات (خوازيق) في الارض ويدخل خاصة في صناعة الطواحين ويحصل من قلبه على الخلاصة المعروفة في التجارة بالكاد الهندي (Catechu) التي كان يظن بعضهم خطأ عند دخولها اوربا لأول مرة أنها طين ياباني (Terra Japonica) والحقيقة انها مادة نباتية كما ذكر . وطريقة حصولهم عليها في الهند هي ان يقطع ذلك القلب الى قطع صغيرة ثم توضع في قدر من الفخار غير المطلي ضيق الفوهة ويصب عليها ماء حتى يطمرها ثم تغلى حتى يتبخر ماؤها الى نصفه وبعدئذ ينقل المغلى بلا تصفية الى وعاء آخر من الفخار عريض للقاع ويغلى ثانية حتى يتبقى ثلثه ويترك يوماً حتى يبرد ثم يوضع معرضاً لحرارة الشمس حتى يتبخر ماؤه مع تحريكه مراراً كل يوم ومتى نقص حجمه كثيراً فصار ثخيناً متماسكاً تشرعلى حصير او قماش سبق ان ذر عليه رماد من حريق روث الماشية ثم يقطع الى قطع مكعبة الشكل بواسطة خيط ثم تنشر القطع في الشمس وتقلب من وجهيها حتى يكمل

جفافها وتصير صالحة للتجارة . والكاد المجهز بهذه الطريقة أسود اللون وهو المفضل استعماله في الطب كقابض من الباطن مضاداً للديسنطاريا والاسهال وللزيف البطني والرحمي والسيلان المخاطي ومقوياً لقناة الهضم ولقروح الفم والحلق ومزيلاً لنتن الفم ويدخل في عقاقير منوعة

ويحصل من القلف على كاد آخر (Cutch) افتح لوناً يستعمل في الدباغة جاء في بعض المراجع ان ثمن الطن منه اذا كان نقياً يبلغ ٢٥ جنيهاً تقريباً وان الطن الواحد منه يحصل عليه من اربعة اطنان من قلف الشجر

الكاكمـوت[1]

ضرب من السنط معروف في السودان بهذا الاسم ينمو في الارض الرطبة عادة وشجرته صغيرة الحجم او متوسطه تشبه شجرة الكاد الهندي وقلف جذعها قاتم ذو شقوق . أوراقها من نوع الريشية المركبة المضاعفة في كل ورقة من ١٠ — ٣٠ زوجاً من الوريقات الريشية وفي كل واحدة من هذه من ٣٠ — ٥٠ زوجاً من وريقات غير ريشية . وشوكها عريض القواعد بالغ التقوس . أما أزهارها فمجتمعة في سنابل صفر قاتمة . وثمارها عبارة عن قرون تشرية الملمس تكون سمراء عند النضج طول الواحد منها من ٧ سنتيمترات الى ١٠

اسمه العلمي (Acacia Suma, Kurz.) (أقاسيا صوما) وفصيلته كالسابق . وهو ذائع في أكثر مديريات السودان وفي الهند مشهور بصلابة خشبه القاتم اللون ويستعمل في الابنية وفي صنع المحاريث والآلات الزراعية وغيرها

السُّمُر

نوع من السنط يسمى بهذا الاسم في السودان ويسمونه في صحراء ليبيا (السيال) و (الطلح) شجرته صغيرة يكاد يكون اعلاها منبسطاً . اوراقها من النوع الريشي المركب المضاعف في كل ورقة من زوجين الى خمسة من الوريقات الريشية وفي كل واحدة من هذه من ٨ ازواج الى ١٢ من وريقات غير ريشية مستطيلة ضيقة . واشواكها قصار مستقيمة او منقوسة قليلا . ورؤوسها الزهرية كرية الشكل يضرب لونها الى البياض . وثمارها قرون ملتوية

اسمه العلمي (Acacia tortilis, Hayne.) (أقاسيا طورطيليس) وفصيلته كالسابق

وهو ذائع في مصر وشمال السودان وبلاد النوبة والحبشة وشمال صحراء ليبيا الى تونس وخشبه جيد متوسط الصلابة والثقل يستعمله اهالي منطقة السودان بالبحر الاحمر لصنع ضلوع الزوارق وبكرات رفع الاثقال وفي الحصول على الكحل الخشبي

(١) هذا الشجر والانواع الستة التالية له اعتمدنا في اسمائها ووصفها على ما جاء عنها في كتاب (برون وملبي) عن نباتات السودان وكتاب (موشلر) عن نباتات مصر

الكُوك

نوع من السنط معروف بهذا الاسم في السودان شجرته كبيرة الحجم جداً ذات قلف ابيض يضرب الى السمرة اوراقها من النوع الريشي المركب المضاعف في كل منها من ٧ ازواج الى ١٤ من الوريقات الريشية في كل واحدة منها من ٢٠ زوجاً الى ٣٠ من وريقات غير ريشية . وشوكها ابيض مستقيم طول الواحدة منه ٣½ سنتيمتراً تقريباً . ورؤوسها الزهرية كرية الشكل بيض اللون عرض الواحدة منها سنتيمتران تقريباً . وثمرتها خضراء ثخينة منبسطة ومتقوسة قليلاً قد يبلغ طولها ١٥ سنتيمتراً وعرضها سنتيمتران

اسمه العلمي (Acacia Verugera, Schwfth.) (أقاسيا ويروجيرا) وفصيلته كالسابق وهو ذائع في كسلا بالسودان وخشبه ابيض لا يتحمل ويحصل منه على صمغ

السَّيال

نوع من السنط معروف بهذا الاسم في السودان ويسمونه في مصر (السَّمُر) شجرته كبيرة اوراقها من النوع الريشي المركب المضاعف في كل ورقة من ٤ ازواج الى ١٠ من الوريقات الريشية في كل واحدة منها من ٧ ازواج الى ١٥ من الوريقات غير الريشية الصغيرة جداً . وشوكها عبارة عن اذينات مستقيمة رفيعة ورؤوسها الزهرية كرية الشكل بيض اللون ضاربة الى الخضرة وثمارها قرون ملتوية التواء حلزونياً تسميها عرب السودان (السَّلَف) ولعل هذه التسمية من انها تصلح علفاً للماشية هناك

اسمه العلمي (Acacia spirocarpa, Hochst.) (أقاسيا سبيروقارپا) وفصيلته كالسابق وهو ذائع في مصر وفي اكثر بلاد السودان والنوبة والحبشة وشمال اليمن (الاحقاف) واهل السودان يحصلون من قلف الجذع الداخلي على الياف متينة يستعملونها في بعض حاجاتهم

الحَرَاز

نوع من السنط معروف شجره كبير لون قلف فروعه يضرب الى البياض واوراقه من النوع الريشي المركب المضاعف في كل ورقة من ٤ ازواج الى ٦ من الوريقات الريشية وفي كل واحدة من هذه من ٧ الى ١٧ زوجاً من الوريقات غير الريشية المستطيلة واشواكه قصار مستقيمة وأزهاره بيض ذكية الرائحة مجتمعة في سنابل في آباط الاوراق وهذه السنابل توجد فرادى او ازواجاً وثمرته عبارة عن قرن مستطيل منبسط متقوس يتراوح طوله بين ٤ سنتيمترات و ١٥ وعرضه بين ١ و٢ تسميه عرب السودان زَرُومَة او (خُرُومَة) وهو شبيه بشرة الخرنوب الا انه مر الطعم

اسمه العلمي (Acacia Albida, Del.) (أقاسيا اليدا) وفصيلته كالسابق وبالفرنسية (Arbre Blanc)

يزرع احياناً في مصر وهو ذائع في اكثر بلاد السودان وبلاد النوبة والحبشة والسنغال ايضاً وخشبه ابيض يستعمل في بناء الزوارق . اما ثماره فمن جيد العلف للماشية

السَّلَم

نوع من السنط شجيرته ذات قلف اسمر رقيق اوراقها من النوع الريشي المركب المضاعف في كل ورقة من زوج الى زوجين من الوريقات الريشية وفي كل واحدة منها من ٨ ازواج الى ١٠ من الوريقات غير الريشية المستطيلة واشواكها دقاق مستقيمة او منقوسة . اما رؤوسها الزهرية فكريّة الشكل صفر تضرب الى اللون الذهبي وثمارها عبارة عن قرون ضيقة مستطيلة الواحد منها في صورة المنجل طوله ½ ٨ سنتيمترات وبه اشباه فواصل تفصل الحبة عن الاخرى

اسمه العلمي (Acacia Ehrenbergiana, Hayne.) (آقاسيا إهرنبرجيانا) وفصيلته كالسابق وهو ذائع في مصر وفي شمال السودان في البقاع الجدباء منه عادةً وفي بلاد النوبة والحبشة وشمال اليمن (الاحقاف) ويحصل منه على نوع من الصمغ

الطَّلْح

سنط منه نوعان اولهما احمر يقال له (السَّيال) في مصر شجرته صغيرة الحجم او متوسطه ذات قلف احمر اللون يضرب الى السمرة . اوراقها من النوع الريشي المركب المضاعف في كل ورقة منه ١١ زوجاً الى ١٢ من الوريقات الريشية وفي كل واحدة من هذه من ١٨ زوجاً الى ٢٢ من الوريقات غير الريشية . وشوكها ابيض مستقيم طول واحدته ٣ سنتيمترات تقريباً . ورؤوسها الزهرية كرية صفر قطر الواحدة منها ½ ٢ سنتيمتراً . وثمرها قرون منقوسة طول الواحد منها ٧ سنتيمترات تقريباً

اسمه العلمي (Acacia Seyal, Del.) (آقاسيا سيال) وفصيلته كالسابق وبالانجليزية (Shittah tree of Scripture) وبالفرنسية (Arbre a'gomme)

وهو ذائع في مصر وبلاد النوبة والسودان والحبشة والسنغال وشمال اليمن (الاحقاف) وخشبه ابيض ولكنه قليل التحمل وعرضة لتنك الحشرات ويحصل من الشجر على نوع جيد من الصمغ العربي اقل رتبة من صمغ الهشاب واهل السودان يستعملون القلف في الدباغة ويحصلون من قلف الجذع الداخلي على الياف يستعملونها في بعض حاجاتهم ونساؤه يبخرن بدخان الخشب المحترق . وثانيهما ابيض يقال له (الصُّفَار) بالسودان شجرته كثيرة الشبه بالسابق الا ان قلفها ابيض وقواعد شوكها منتفخة

اسمه العلمي (A. Seyal, Del. var. Fistula, Schwit.) (آقاسياسيال — فستولا) وهو ذائع في جهات السودان الرطبة وينتفع به كالطلح الاحمر

أبدع طرق الشام

وأروعها : بين انطاكية واللاذقية

لوصفي زكريا

طوّحت بي السفرة ثانية في أواخر ربيع العام الماضي الى انطاكية عاصمة شمالي الشام وعروس مدنها في العصور الاولى المتوسطة . وقد كنت أوصفت بالتفصيل في كتابي «جولة أثرية في بعض البلاد الشامية» [1] تاريخ هذه المدينة الحية في تلك العصور وما بعدها ، واطريت مجدها الغابر وحاضرها الحاضر ، وتغنيت بقصبة سهولها وخضرة حزونها وغناء رياضها ووفرة مياه عاصيها وكثرة اثمارها ... الخ ، لهذا لم اجد فيها هذه المرة ما يستحق الاضافة سوى ذكر بعض قطع الفسيفساء المصورة التي عثرت عليها اخيراً بعثة أثرية موفدة من جامعة برنستون الاميركية في بساتين قرية الحرية . وفي هذه القطع طرف نادرة من التصوير الملون بالاصباغ الزاهية ، وجلها يمثل وقائع الاساطير اليونانية كالنساء المحاربات « الآمازون » وآلهة البحر والخمر والحب وغيرها . وتكاد الصور تتحرك وتنطق امام انظار المتفرج المشدوه بحسنها ودقة صنعها . وسيكون مستقر هذه القطع الفريدة المثال في متحف انطاكية الذي لا يزال العمل في بنائه قائماً

وحدثتني نفسي الولوعة بالاسفار ومشاهدة المناظر والآثار ان ابدل الطريق التي جئت فيها من دمشق مارّاً بحمص وحماة وحلب بالطريق الحديثة الذاهبة من انطاكية الى اللاذقية — وطولها ١١٥ كيلو متراً — ، وقد كنت سمعت انها ابدع طرق الشام واروعها لكثرة مشاهدها الطبيعية ومشارفها المرتفعة وحراجها الملتفة وتموجها المتباينة ، فسلكتها للمرة الاولى وسرحت بصري برؤية مباهجها واستقصاء كواتنها الطبيعية وشؤونها الاجتماعية والعمرانية والاثرية ، فحققت الخبر بالخبر ، وها انا ذا واصف ما رأيت وما استقصيت على النحو الذي درجت عليه في وصف امثال هذه الطريق في كتابي المذكور آنفاً

---

(١) في هذا الكتاب وصف طيراني تاريخي اثري عمراني للبقاع والبلدان الممتدة من شمالي الاسكندرونة الى بوابة دمشق ، وهو يحتوي على (٢١) صفحة و ٢٥ رسماً

لم تكن طريق انطاكية — اللاذقية في السنين الخوالي ، مسلوكة الا ممن كان قادراً على اقتحام عادية قطاعها او جفوة سكانها او وعورة حراجها ومنعرجاتها . ومن الغريب ان احداً من اسلافنا مؤرخي العرب القدماء وجغرافيهم لم يذكر هذا الطريق ، حتى ولا ياقوت ولا القلقشندي ولا ابو الفداء ولا شيخ الربوة المحدودون اكثر من كتب في جغرافية بلاد الشام في العصور المتوسطة . وقد كدت احكم بان احداً من اولئك الاسلاف لم يمر بهذه الطريق او لم يسمع باسم الجبال والبلاد والشعوب التي فيها ، لولا ان ادركني الادريسي في آخر البحث . فقد وجدته في كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» يذكر في جملة البلدان الممتدة في ساحل الشام الشمالي اسم حصن الهربادة وانه يبعد عن اللاذقية ١٨ ميلاً وعن السويدية ١٥ ميلاً ، فاضطررت الى ان اعدل عن حكمي ، ولاسيما بعد ان رأيت العالم التركي كاتب چلبي ينقل عبارة الادريسي هذه في جغرافيته المسماة « جهان نما » المطبوعة في الاستانة سنة ١١٤٥ هـ ، والمستشرق الفرنسي دوسو ايضاً في كتابه المسمى « الطبغرافية التاريخية لبلاد الشام» [1] ويحكم هذا المستشرق بالاستناد على الابعاد الواردة في عبارة الادريسي بان حصن الهربادة ينبغي ان يكون في موضع قرية الاردو الكائنة في سفح الجبل الاقرع ، وسنأتي على ذكرها

وانتهى حكمي بعد الى التأكد من ان اولئك الاسلاف لم يفتهم التجوال او البحث في اي بقعة من بقاع الشام ناهيك غيره من اقطار المصور التي كانت معروفة في عهده وانه اذا لم نعثر على بعض ما رووه في كتبهم التي وصلت الينا لا يبعد ان يكون بين ملايين الكتب التي خلفوها وضاعت قبل ان نراها ما قد يحتوي على منالها . فقد كانوا رحمهم الله مشغوفين بالسياحة والسفر ، ولوعين بتدوين كل مشاهدة وخبر على نقيض اخلافهم ابناء الجيل الحاضر . فقد اخذ علي منظمنا الكسل وحب السكوت والانقباع ، فقل فينا من يسوح او يسافر على الرغم من كثرة الوسائل وسهولتها في عهدنا ومن نشط وسافر منا قلما يحفل بالبحث والكتابة عن الاماكن التي يزورها كما كان يفعل اولئك الاسلاف من قبل ، وكما يفعل الآن الغربيون الذين يدونون كثيراً بتدوين ما يرونه ويسمعونه لاسيما اذا كان فيه ابحاث قيمة واخبار طريفة

وقد وجدت ناشري كتاب « دليل الشرق » الفرنسي المطبوع سنة ١٨٨٢ [2] عند ذكرهما هذا الطريق واطرائهما روعتها وعظمة مشاهدها يقولان انها غير مأمونة ويوصيان السياح الافرنج اذا عزموا على اجتيازها ان يعدوا لها ما يكفي من السلاح والرجال . وكان السياح يقضون فيها على الرواحل ٢٢ — ٢٦ ساعة . قيل ان فريقاً من جيش ابراهيم باشا المصري اجتازها كما

(١) Topographie historique de Syrie antique et médieal par Dussaud

(٢) Itinéraire de l'Orient, par Chauvet et Isambert, Paris, 1882

كانت تجتازها من قبل جيوش الصليبيين في غدوها ورواحها من اللاذقية إلى انطاكية ولعلها كانت في تلك الازمان احسن حالاً مما بلغته قبل تعبيدها الاخير . ولم تعبَّد هذه الطريق وتجعل صالحة لسير السيارات الا منذ سنوات اربع بعد ان كسرت صخورها ووسعت منافذها وذللت صعابها وبدل خوفها بالامن وقد انتهت الان اعمال التعبيد على احسن حال في قسمها العائد الى حكومة انطاكية بينما هي لا تزال قائمة في قسمها العائد الى حكومة اللاذقية يشتغل فيه مئات من الجنود الشامين المستخدمين في جيش الاحتلال الفرنسي ، ذلك لان قيادة هذا الجيش تعنى بفتح هذه الطريق وأمثالها لمكانتها الحربية

وصف الطريق — يخرج السائح من غربي انطاكية ويجتاز بقعة بهجة خضراء على يمينها وادي العاصي وعلى يسارها اعضاد جبل القصير المشرفة على انطاكية . وكلما سار ينحرف نحو الجنوب ويرتفع بالتدريج نحو تلك الاعضاد ويجتاز عدة جسور شيدت فوق أودية صغيرة تهبط نحو العاصي . وفي الكيلومتر السادس يفتح على يسار الطريق اطلال قناة الامبراطور طريانوس التي كانت تأخذ الماء من دفنة الى انطاكية . ثم يدخل بين كروم التوت والبساتين الملتفة الاشجار المختلفة الثمار التي تحمل في كل صباح الى انطاكية وحلب وأخصها الاكيديا[1] والبرتقال وقد انتشرت بينها دور واكواخ كثيرة . وهنا يفتح السائح على يمينه كسور اعمدة اثرية وبقايا من الرصيف القديم الممتد من دفنة الى انطاكية وهكذا الى ان يصل في الكيلو متر ٩٢٥ الى متنزه الحرية — واسمه القديم دفنة — وهو لا يزال كما كان قبلاً لاهل انطاكية منبع ماء الشرب ومتنزه روّاد القصف والنزهة ، ويزيد عما قبل أنه الآن مصدر نور الكهرباء ايضاً

والحرية في يومنا قرية اهلها عرب نصيرية دورها منتشرة بين الكروم والبساتين التي رصفناها وسكان النزهة المنشود يدعى « بيت الماء » يعلو عن سطح البحر ٣١٥ متراً ويقع غربي الطريق في اعلى وادٍ سحيق يهبط اليه في شعب ذي التواء خلال دقيقتين او ثلاث وهو مؤلف من مدارج عريضة تتوالى من رأس المنحدر ، فيه ظل ظليل وجوّ بليل وماء رائق عذب نمير . والماء ينابيع عديدة تتفجر من شقوق انصخور الصمّ تتساقط من فوق الى تحت بين الحشائش المائية والاعشاب المتعرشة واشجار الدلب الوارفة فتحدث عدة شلالات خرارة ذات ارغاء وازباد رائعين ، يدير اكبرها ارحاء طاحونتين او ثلاث مبني بعضها فوق بعض في اسفل المتنزه . وعند اليفوع الاعلى خزان يدفع الى انطاكية بماء الشرب ونور الكهرباء ، وقد بني بالاسمنت منذ بضع سنوات . وثمة كلام محيط بالوادي السحيق المذكور الذي لا يرى قعره وهو يمتد نحو الغرب ويأخذ مياه تلك الشلالات الغزيرة الى نهر العاصي

(١) هو زعرور ايار-ان Nefflier du Zapon المعروف في الشام بالاكيديا او المشمش الهندي وفي مصر بالبشملة

هذا والشلالات وسقطاتها والمرغوات المتجمعة والفطرات المتناثرة فوقها مناظر خلابة وللحرخرة والزمجرة الداويتين منها أصداء مطربة تأخذ بمجامع القلوب وقد أحدثوا هنا مقهى وضع اصحابه كراسي وموائد بين الينابيع وتحت الاشجار والمظلات التفت حولها عشاق الصهباء وراغبو التملي بمحاسن الطبيعة من نساء ورجال بلاد الشام الشمالية وغيرها اخص بالذكر الحلبيين المحرومين من الظل الوارف والماء الدافق . وقد اتخذ كل جمع منهم ناحية وبسط موائد الطعام او الشراب او احتضن آلات العزف والطرب او اشرع نارجيلته في الماء ينفخ ويبث دخانها الى الهواء او اضطجع واستغرق بمتع نفسه بهجة هذا المكان ونداوته ، يكاد لا يرى فيها بعضهم بعضاً ولا يسمعه منها بدل الوتيرة ورفع الصفيرة لاختلاف اماكن الجلوس في ارتفاعها وانخفاضها ولشدة ارغاء الشلالات وازبادها

وقد حملت هذه المشاهد الخلابة والمياه الحرارة الفليلة المثال فيما مضى اليونانيين والرومانيين في عهد ازدهار انطاكية على تجميل « دفنه » وما حولها بالمياكل والملاعب والقصور والحدائق والحمامات ودور الملذات حتى غدت ابرج وأفتن مكان في العالم القديم كله للمرح والحبور وارتشاف كؤوس النجور . فما من معبود وثني كأريس وفنوس وديانا وجوبيتر الا واقيمت له فيها الهياكل وما من قيصر او عظيم يوناني او روماني الا وشاد لاسمه فيها بناء من تلك المباني واقام عند قدومه اليها اعظم الاستقبالات وعند مكوثه اتم الاعياد واجمل الحفلات . حتى ان اغذوكيا زوجة تيودوسيوس الثاني وكليوبطرة ملكة مصر عشيقة انطونيو وجوليا ابنة اوغسطوس وغيرهن من القيصرات والاميرات جئن وقضين فيها ايماً في رغد العيش وهناء الطيش

اما الآن وبعد ان اختت عوادي الزمان على انطاكية وضواحيها ومنها مصانع دفنه ومقاصفها فلم يبق من عظمة هذا المكان السالفة سوى روائعه الطبيعية «ماء وظل وأزهار واشجار» وسوى بضعة كسور أعمدة وبقايا اسس جدران مبثرة بين الحدائق التي عثر في ارضها على قطع الفسيفساء المذكورة آنفاً ، وناهيك بكمال هذه القطع وجمال صنعها الذين اشرت اليهما في فاتحة مقالي دليلاً على شأن دفنة ورقيها الزائدين . ولولا انتشار السيارات في السنين الاخيرة وتسهيلها السفر والاتصال لظلت دفنة مهجورة منسية لا يعلم بأمرها الا بعض الانطاكيين وقليل من سياح الافرنج الذين قرأوا عنها وجاؤا يتلمسوا مجدها الداثر وجدها العاثر

وقد شيد احد اثرياء قرية الحربة منذ عهد قريب فوق شلالات الماء وفي بقعة مشرفة على اروع المناظر فندقاً عصريًّا مستوفياً شروط الراحة لمن يشاء ان يقضي زمناً في هذا المكان البرج السهل المنال

وجعلت الحربة قاعدة ناحية تتبعها تسع عشرة قرية جميع سكانها عرب نصيرية منها الجرداقية

والدرسونية والدرعوزية والدرويشية والدوير ودير الماشطة وعين الجاموس وعين السلك وغيرها وهؤلاء النصيرية يؤلفون اكثرية السكان في وادي العاصي الممتدة بين انطاكية والسويدية على البحر المتوسط ، وتمتاز ضياعهم بوجود القباب البيض التي تعلو الاماكن المرتفعة وتحت كل قبة منها لاحد مشائخهم او اعزتهم يحجون اليه في اوقات معينة . والنصيرية هذه الانحاء على ما يظن نزحوا في احقاب متوالية من مواطنهم الاصلية في جبال اللاذقية فاحتفظ هذا بعضهم ولم يعد طم عصبيات خاصة وانتماء الى قبائل معروفة كما هي الحال في مواطنهم المذكورة . ومهنة هؤلاء الفلاحة والبستنة وتربية الماشية ودود الحرير الذي دالت دولته ، وقلّ من امتلك منهم ارضاً واسعةً بل جلهم اجراء وشركاء لدى « الآغوات » و « البكوات » الترك الانطاكيين

والنصيرية ذوو عقائد وعادات وازياء خاصة يضيق نطاق بحثنا عن الخوض فيها . يقطنون في انحاء كيليكية « من بلاد الترك » والاسكندرونة وانطاكية وفي جبال اللاذقية واوعار حماة وحمص وسهولها الشرقية وفي بعض قرى الجولان جنوبي دمشق . وقد عطفت عليهم الدولة الفرنسية بعد دخولها وأسمتهم « علويين » وجعلت لبعض نبهائهم مناصب ووظائف في حكومتي الاسكندرونة واللاذقية وملحقاتهما ، وجندت كثيراً من شبانهم في جيشها الشرقي المرابط في بلاد الشام . لكن سوادهم الاعظم ما برح على غاية من الجهل المطبق والفقر المدقع والانقياد الاعمى لكبرائهم ذوي الزعامة الزمنية ومشائخهم ذوي السيادة الروحية الذين دأبهم استثمار غفلة اتباعهم بضروب الخدمات والاتاوات ما منهم من يعرف حسن القيادة والارشاد والهداية او يفكر بذلك

***

ونعود الى الطريق ! تصعد السيارة بعد قرية الحرية نحو مرتفعات جبل القصير ، تاركةً على يسارها وادي دفنة ، ولا تزال تلهث وتصعد عقبات حتى تبلغ ناحية جبلية تدعى « ناحية القصير الفوقاني » تميزاً لها عن ناحيتين في شرقيها اسماهما القصير الوسطاني والقصير التحتاني . والاولى التي تجتازها تختلف عن جارتيها بأنها تركمانية وبنيك عربيتان ، وبأنها اكثر منها علوّاً وابرد هواء ، صخورها كلسية بيض او دكن يتخللها في بعض الاماكن احجار من النوع المعروف بسباط اسفنج [1] ومقذوفات بركانية . وهي في جملتها ذات نجود خالية من الحراج ، قليلة الخصب ، قليلة القرى ، يكثر فيها نبات البلان وحيوان الصيد ولا سيما الارنب والحجل ، وغالب سكانها تركمان سنية لا يزالون على الفطرة ، جلهم لا يعرف القرية التي لا تعود تسمعها بعد مغادرة الحرية حتى تصل الى سواحل اللاذقية

(١) Spath d'Islande ضرب من الاحجار الكلسية البلورية

وفي هذه الناحية الجبلية في الكيلو متر ١٣ شعب [١] في الجبل يتجه نحو الشرق الى حصن القصير احد معاقل انطاكية في عهد الصليبيين . وفي الكيلو متر ١٩ شرقي الطريق ايضاً قرية اسمها طرفندو اهلها نصيرية فيها شيخ يحترف شفاء المرضى وازالة عقر النساء والتأليف بين المحبين وثمة قرية اخرى اسمها جندالية اهلها اسماعيلية المذهب من عبّاد آغا خان الزعيم الهندي المعروف في الحكم الانديه ويادين سباق الخيل في فرنسا وانكلترة يبذخه وترفه ، وهم يعيشون عيشة اشتراكية تحت قيادة شيخ لهم . وفي الكيلومتر ٢٣ على يمد كيلومترين عن يسار الطريق وتحته قرية كبيرة اسمها شيخ كوى « قرية الشيخ » تعد من امهات قرى جبل القصير ، واقعة في منخفض واسع احاطت به صخور حمرٌ او دكنٌ ، اهلها تركمان سنية ، عددهم نحو ١٥٠٠ ، اكتظت بيوتها حول مسجد له مأذنة وبعضها مسقوف بالآجر الاحمر ، وينسب اسم هذه القرية الى الشيخ احمد القصيري الخلوتي الكردي الاصل الذي يعدونه من الاولياء ويزعمون انه لما جاء من بلاد العراق الى هذه الانحاء في القرن العاشر الهجري او قبله جاء محمولاً على بساط الريح ، وضريح هذا الشيخ مقصود بالزيارة ولأعقابه في هذه الديار ثروة ووجاهة طائفتان احتجنوها بالمشيخة . وقد جعلت قرية الشيخ قاعدة ناحية قصير الفوقاني التي من قراها او قجبار وصوفيلر وشمرجق وغيرها

***

وبعد مسير قليل في نجود جرد تتدرج بالارتفاع تصل السيارة في الكيلو متر ٣٦٫٥ الى علو ١٠٠٠ متر وهو المنتهى في جبل القصير . فيشاهد السائح هنا منظراً رائعاً يشرف في الشمال على سهل العمق وبحيرة انطاكية والجبل الاحمر وجبل الكرد ، وفي الشرق على الجبل الاعلى وما في جبل القصير نفسه من الاودية والهضاب المتموجة [٢] الدكن.

ثم تبدأ الطريق بالانحدار، فتجتاز في الكيلومتر ٣٤ هضبة مستطيلة ذات تربة حمراء، جوها بارد قارس حتى في الصيف ، فيها رامة [٣] صغيرة تجف في الصيف تدعى الرامة الحمراء . وفي الكيلومتر ٣٨ على يسار الطريق وعلى بعد خمسين متراً كهوف ومدافن اثرية . وفي الكيلومتر ٤١ تنتهي نجود القصير فتشرع الطريق بالمرور بين منحدري جبل القصير والجبل الاقرع وتبدأ اشجار الصنوبر ذات المنظر النضر والاريج العطر بالظهور رويداً رويداً « لها تتمة »

---

(١) الشعب بكسر الشين وسكون العين الطريق في الجبل

(٢) عنيت بالمتموجة تلك التي يتوالى فيها الارتفاع والانخفاض كامواج البحر ، وذلك مقابل كلمة Ondulé الفرنسية (٣) الرامة مستنقع يجتمع فيه الماء ثم يجف

الاذاعة اللاسلكية

والثقافة العامة

مشروع المعارف الجديد

القضاء على العزلة

لا يختلف اثنان في ان جانباً كبيراً مما يصيب المجتمع الانساني ، من التحوّل ، يرتدّ الى ارتقاء اساليب المواصلات والمخاطبات . فلما استنبط التلغراف والتلفون ومُدّ السلك البحري بين اوربا واميركا ، صارت الحوادث العالمية ذات شأن في نظر الفلاح الاميركي ، المنعزل عن العالم . ولقد قال لورد بريس ، مؤرخ « الدولة الرومانية المقدّسة » و« الديمقراطية الاميركية » انهُ لولا التقدم السريع في المخاطبات الكهربائية لما انتصرت مراجل الحرب الكبرى بمثل هذه السرعة وهذا العنف . وفي هذا تأييد لقول الفيلسوف الاميركي جون ديوي : « يصح القول بان الاجتماع البشري يقوم على المخاطبات والمواصلات » . ويؤخذ من جداول مصلحة الاحصاء الاميركية انه كان في الولايات المتحدة في اول ابريل سنة ١٩٣٠ اثنا عشر مليوناً ونصف مليون من اجهزة الالتقاط اللاسلكي . ما معنى هذا العدد الضخم ؟ القِ نظرة على خريطة البلاد . هنا وهناك مئات والوف من الحقول والاودية فيها بيوت منعزلة عن العالم لا يصلها بهِ سلك تلغرافي ولا تلفوني . ولكن رئيس الجمهورية في نظر سكانها ، ليس الآن تجريداً لسلطة الامة كما كان ، بل اصبح رجلاً يسمعون صوته بالجهاز اللاسلكي الالتقاط . والاميرال برد الرائد القطبي ، يجلس في خيمة على الجمد يكتنفه دامس الظلام القطبي ، ويصغي الى موسيقى تحملها الامواج من نيويورك

ان الاذاعة اللاسلكية ، قد قضت على عهد الوحدة والعزلة ، سواء في الحقل النائي او في عرض البحر او على مفاوز الجليد القطبي

غاندي يتكلم في لندن فيصغي اليه العالم . وروايات الاوبرا تذاع من سلزبرغ بالنمسا فتسمع في مباني الولايات الزراعية في اميركا . وموسيقى الجاز تذاع من اميركا فيرقصون على توقيعها في اوربا . لقد انكمشت الكرة الارضية فاصبح الالمان والكنديون والارجنتينيون والنروجيون واليابانيون بفضل اللاسلكي جيراناً ، واصبح الناس من مختلف الملل والنحل وكأنهم امة واحدة

وقد حدثنا مزارع كبير مثقف من مزارعي القطر المصري ، أن مأتماً في مصر بفضل الاذاعة اللاسلكية لا يختلف عما تم في الاقطار الاخرى . ففي سهول القطر المصري مئات من القرى ، معزولة عن العالم ، لبعدها عن اقرب مركز اليها عشرات الكيلو مترات ، فاصبحت الآن متصلة بالعاصمة ، بجهاز لاسلكي اشتراه عمدة القرية ، فيجتمع حوله الفلاحون يصغون الى ما يذاع من محطة الاذاعة في القاهرة من آيات الذكر الحكيم والاغاني والقطع الموسيقية والاحاديث على اختلافها

هذا الاسلوب الجديد من اساليب المخاطبات لا بدَّ أن يكون فعّالاً في التربية العامة باذاعة حقائق العلوم المختلفة ، وبوجه خاص ما كان عمليًّا منها ، مما يفيد الفلاح والصانع والوالدة ، أو مما يحفز عقل الطالب ويشوّقه إلى طلب التوسُّع في العلوم . وقد أحسنت وزارة المعارف العمومية كل الاحسان ، بارشاد وزيرها الهمام سعادة نجيب الهلالي بك ، اذ وجَّهت عنايتها الى هذه الناحية من فائدة الاذاعة اللاسلكية ، فوضعت برنامجاً عامًّا لاذاعة محاضرات في الثقافة العامة ، توجَّه خاصة إلى الطلاَّب والطالبات ، يستمعون اليها في ساعات فراغهم ، فيكون خلوها من القيود التي تقيد بها الدروس المفروضة عليهم في المعاهد ، واتصافها بصفة التشويق التي يجب أن تتصف بها كل إذاعة لاسلكية ، مما يغريهم بالسماع . ولربَّ كلة واحدة أو عبارة واحدة تقع في ذهن الطالب فتكون كالبذرة الحية ، تقع في أرض خصبة ، فتنمو وتؤتي ثمرها

وقد خيّل الينا ونحن نصغي إلى سعادة وزير المعارف ، وهو يلقي خطبة الافتتاح لهذا البرنامج الميمون (١٢ يناير ١٩٣٦) أن أرواح جميع المخترعين الذين أفضت مخترعاتهم إلى اتقان الاذاعة اللاسلكية ، على ما نعهدها في هذا العصر ، كانت تطلُّ عليه من سماء الخلود ، مغتبطة أشدَّ الاغتباط ، أن الجهود التي بذلوها في البحث والكشف والاستنباط تستعمل في هذا السبيل المفيد

ولا ريب في ان وزارة المعارف قد أعدَّت في برنامجها ما يتيح لطلاَّبها وطالباتها فرصة الاستماع لكبار المدرسين والمربّين في موضوعات تتصل بنواحي حياتهم المختلفة . فالميزة التي تمتاز بها الاذاعة اللاسلكية على سائر وسائل التعليم والتربية ، انها تتيح للسمّاع أين كانوا أن يصغوا إلى الاقطاب وهم نوادر في كل فن ، حالة أن طلب العلم عليهم ، لا يتاح في الغالب إلاَّ لافراد قلائل منهم

فالنبوغ قبل استنباط اساليب الاذاعة اللاسلكية واتقانها كان محصوراً ، فأصبح ملكاً مشاعاً للامة الواحدة بل للانسانية قاطبة . فقد كان المولع بالموسيقى ، يقضي حياته وهو تائق الى

سماع أحد كبار الموسيقيين ، ولا يفوز الا بتلميذ له او تلميذ تلميذ ، فأصبحنا الآن ولا يكثر علينا ان نرى احد هؤلاء بيننا بسهولة المواصلات ، بل ليسهل علينا ان نسمع معظمهم كل ليلة يوقعون او يعزفون او يغنون وليس بيننا وبينهم الا هذه الصفة اللطيفة ، صفة الامواج اللاسلكية . وقد شهد كاتب هذه السطور من اسابيع اسرة مثقفة تنصرف عن تناول العشاء لتبقى في بهو الاستقبال منصتة الى حفلة موسيقية ، يعزف فيها البقري « يهودي منوهين » عازف « الكمان » المشهور ، في احدى مدن اوربا وما يصح على الموسيقي يصح على سائر مطالب الثقافة العامة

خطبة الرئيس

« اولادي الاعزاء من طلاب وطالبات : باسم الله الكريم افتتح موسم الاذاعة اللاسلكية المدرسية محيياً معاهد العلم فنظارها ومدرسيها وطلابها راجياً ان يتحقق لكم يا اولادي ما نؤمله من الخير في هذا المشروع الذي قصدنا منه توسيع ثقافتكم وتوجيهكم الى حسن الانتفاع بوقت فراغكم وامدادكم بالمعلومات والاخبار الطريفة التي تيسر امامكم سبيل الحياة وتصلكم بالعقل الانساني في صورته الكاملة . ومن دواعي غبطتي العظيمة ان يحدثكم في كل اسبوع فريق من اساتذتكم عما جادت به قرائح المفكرين قديماً وحديثاً في تكوين الحياة الفكرية العامة

« لقد اصبحت الاذاعة اللاسلكية مدرسة كبرى للعقل والتربية ، مدرسة فسيحة المدى ليست في مكان وهي في كل مكان ، حرة من جميع جهاتها لا يحدها حد ولا يطوف بها سور ، مدرسة تتجلى منها على الناشئين روح الفضائل القومية وخلاصة الآراء العلمية فتنشر عليهم شعاعاً من ضيائها ولمعة من بهائها

« ثم اصبحت الاذاعة ركناً من اركان كل نهضة تعليمية فهي معززة ومكملة للدروس المعتادة تلك الدروس التي تتقيد بقيود المناهج وتلتزم الحد الادنى للثقافة اما هي فانها لا تعرف حدوداً ولا تخضع لقيود فالمقصود الاول من الاذاعة هو تحرير الدروس من حدود المناهج وفتح السدود القائمة بين المدرسة والحياة فهي نوافذ تطلون منها على العالم وما فيه من علم وخبرة وآداب فترون كيف يتجلى العلم في العمل وتحكم الروابط المنشودة بين المدرسة وبجرى الحياة العامة . وهي كذلك نوافذ يطل عليكم منها مئات الاساتذة الذين لا يتاح لكم بغير هذه الوسيلة الفريدة ان تغترفوا من مناهلهم

« ولا شك ان تنويع الوسائل في التعليم واختلاف المدرسين الذين يحاضرونكم سيشعركم بسرور عظيم لدى تلقي المعلومات التي يبعثون بها اليكم على متن الاثير

« على ان في هذه الاذاعة المدرسية معنى سامياً فانكم تشعرون الآن — وفي كل وقت

تجتمعون فيه لسماع مثل هذه الاذاعة — ان جميع طلبة القطر قد اجتمعت قلوبهم واتجهت نفوسهم نحو غاية واحدة . فانتم تتلاقون جميعاً تلاقياً قلبياً . وتولون وجهكم شطر القبلة العلمية. وكأن موجات الاثير إذ تتحرك لطيف بقلوب فتيان مصر وفتياتها تثبت معنى التعاون العلمي والثقافي بأجلى صوره

« وينبغي ان حياتكم المدرسية وما بها من نشاط علمي يشرف عليه حضرات اساتذتكم الى جانب ما تقوم به هذه الاذاعة من تهذيب وتثقيف سيكون خير هاد للجيل المصري الناشيء الى اقوم سبل الحياة . فتتخذوا من هذا وذاك مرشداً لما ينبغي ان تتجه اليه مدارستكم ومطالعاتكم فان ميدان العلم فسيح ولا بد للنجاح فيه من الاعتماد على الجهد الشخصي في البحث والاطلاع

«اولادي الاعزاء : أنتم ذخيرة الوطن لمستقبله وموضع عنايته في حاضره والصلة القوية بينه وبين ماضيه . وان قلبي ليجيش بأطيب الاماني نحو نابتة البلاد التي ندخرها لاعزاز الوطن بما تتحلى به من خلق نبيل وعقل راجح ورجولة كاملة »

الثقافة وفن الاذاعة

عند ما يذكر الراديو على انه وسيلة فعالة من وسائل التثقيف العام تطير قلوب المعلمين والمربين والمثقفين وترقص فرحاً . ذلك انهم يتصورون ان اصواتهم التي كانت تحصر قبلاً في دائرة ضيقة مؤلفة من بضعة طلاب او بضع عشرات في غرف التدريس او بضع مئات في ردهة المحاضرات، وقد اتسع نطاقها حتى تبلغ الالوف وعشرات الالوف بل ومئات الالوف من الناس قابعين في بيوتهم مستعدين لقبول الحكم التي تتأثر من افواه المتكلمين محمولة على متن الاثير

ولكن المستر جون ارسكين يرى ان هذه الصورة الاخاذة التي يتصورها المثقفون لا تزال بعيدة التحقيق . لان الاذاعة بالراديو لا بد ان تكون مرآة قبل ان تصبح فرصة سانحة للتثقيف ورفع المستوى الفكري والثقافي في نفوس السامعين . فاتساع نطاق السامعين واختلاف العناصر التي يتألفون منها والتفاوت بين مراتبهم الفكرية والفنية اشبه شيء بالتحدي الموجه الى القائمين على تدبير شؤون الاذاعة اللاسلكية والى المثقفين الذين يرون فيها الوسيلة المرجوة لتحقيق حلمهم الذهبي

الاذاعة بالراديو فن ، والمذيع اما ان يكون على جانب وافٍ من حذق هذا الفن او هو لا بد مخفق في مهمته . فالاذاعة بالراديو تتطلب من المذيع صفات خاصة في القول وتركيباً خاصاً في العبارة أما فيما عدا ذلك فهو فن خاضع لقواعد الجمال العامة التي تخضع لها الفنون جميعاً

واننا نستطيع اذا شئنا ان نجعل علم الجمال (استتيك) علماً معقداً خالياً من شعلة الحياة

ولكن الذي يهمنا من امره في هذا الصدد هو امران : الاول كيف نقنع الجمهور بأن يقبل على الفنان وهو الخطيب او المحدّث اللاسلكي في هذه الحالة. والثاني : ان نقنع هذا الجمهور بأن لا يوصد دون الخطيب اذنه اللاسلكية

أما البواعث على اقباله فقد تكون كثيرة متعددة ولكن احتفاظنا بانتباهه وباقباله لا يمكن ان يحقق الاّ اذا احسّ ان ما يصغي اليه له قيمة في نظره

والتربية فن كذلك . أما البواعث التي تحمل طوائف الشبان والشابات على الاقبال على المدارس فخليط من البواعث الاجتماعية والاقتصادية والرياضية . ولكن هذه البواعث لا تدفع احداً الى الاقبال على سماع محاضرة او حديث او رحلة تذاع بالراديو . فالاصغاء الى ما يذاع لا يتيح للسامع ان يتعرف بأناس يتوق الى معرفتهم . والراجح انه لا يساعده في اعداده لعمل معين كالدراسة في المدارس الفنية والصناعية . فالسامع لا يدير آلته اللاسلكية الاّ اذا كان الموضوع المذاع يهمه ، والمتكلم يجيد التكلم فيه ، فهماً لعناصره والقاءً لعباراته . فاذا كان الموضوع لا يهم السامع ، او اذا كان المتكلم لا يعرف كيف يملك ألباب سامعيه فليس في العالم فن ، يستطيع ان يخرج فيه السماع من حضرة المتكلم مثل فن الاذاعة بالراديو . اذ ما عليهم حينئذ الاّ ان يقفلوا دونه هذه الآلة السحرية ، بدورة يسيرة في مفتاحها

هذه الاحوال والقواعد ، تجعل البقاء في ميدان الاذاعة اللاسلكية ، للاصلح حتماً ولن يبقى الاّ الاذاعة التي تمد وتذيع برامج ، للهو والتسلية والتثقيف ، تحمل السامع على الظن بانها تلهيه او تسليه أو تثقفه ، اي تحمله على الظن بأنه يجني من السماع شيئاً له قيمة معنوية في حياته

وليس في امكاننا ان نقول ان كل هذا يمكن تحقيقه ، بنقلنا الاصوات من حجر التدريس الى بوق المذياع. ولا في امكاننا ان نقول أن السّماع يقبلون على سماع ما يذاع ، كما يقبل الطلاب على حجر الدراسة مرغمين على ذلك ، لان سمّاع الراديو لا يقبلون الاّ اذا هم الامر او لذّ لهم . اننا لا نستطيع ان نرغمهم . ثم انه ليس في امكاننا ان نقول ان سمّاع الراديو يقبلون على السماع كما يقبل الطلاّب على الاصغاء للمحاضرات رغبة في انهاء سني الدراسة والحصول على اللقب او الرتبة العلمية التي تمرهم في مجتمعهم أو تفتح لهم ابواب العمل في معاهد ومنشآت معينة

أن المدرسين يوجهون عامة قد تعوّدوا الفوز بجماهير من الشبان والشابات يصغون لمحاضراتهم ، اما بفرض الحضور عليهم قانوناً ، او بتزيين الفائدة الاقتصادية التي يجنونها من الحضور والحصول على رتبة اكاديمية معينة . ولكننا لا نستطيع ان نعد الى هذه الاساليب في حمل الجماهير على الاقبال على سماع ما يذاع بالراديو . فاذا كان في ما نذيعه فائدة تجني او تسلية تسري عن النفس وتشيع في جوانبها معاني السرور والغبطة ، فالتثقيف بالراديو بالغ ولا ريب النجاح المقدر له. واذا لم يكن في

ما نذيعه ، هذه الفائدة او تلك التسلية ، فالسامع لا بدَّ موصد دوننا اذنه اللاسلكية . وعند ذلك تصبح الدقائق او الساعات التي تعين لاذاعة الثقافة العامة دقائق وساعات ، من الصمت الرهيب يخيم على طول البلاد وعرضها ، ولو كان الجو حافلاً بالحكم والدرر

اذا تقرر هذا حق لنا ان نلتفت الى موضوع آخر وهو ان الفائدة العظمى التي تجنى من خدمة الراديو الثقافية يجنيها أولئك القاطنون في مناطق لا يتاح لهم فيها من أسباب الثقافة ما يتاح لابناء المدن الكبيرة المشهورة بانها مراكز للعلم . فلا سبيل لهم الى سماع عشرات المحاضرات في مختلف الموضوعات ولا الى حضور المدارس والمعاهد لتلقي العلم على أربابه ولا الى زيارة المتاحف والمعارض في ساعات الفراغ واذن يجب ان نقيم لمطالب هؤلاء القوم وزناً عند التفكير في اعداد برنامج للاذاعة اللاسلكية غرضه التثقيف العام

ولكن ما هي مطالبهم ؟ هذا أمرٌ يتعذر عليك الحكم فيه وأنت جالس في مكتب مدير الاذاعة أو في حجرة رئيس التحرير مع انك في كليهما تستطيع أن تقول أقوالاً عامة في الموضوع . وليس ثمت سبيل الى معرفتها — على ما ثبت بالاختبار في اميركا — الاَّ باعداد الاسئلة بحكمة ودراية توجه اليهم على الراديو ويحثهم على موافاة الادارة العامة بمطالبهم . عند ذلك تؤخذ ردودهم وتفرز وتبوَّب وعندها يستطيع أولو الامر أن يتبينوا الطريق العام الذي عليهم أن يسلكوه فاذا هم لم يفعلوا ذلك ، خسروا هؤلاء السَّماع

والامر الثاني الذي يجب أن نشير اليه ، هو ان التثقيف بالراديو قد لا يتفق — وهو في الغالب لا يتفق — مع النظريات التعليمية العامة التي يجري عليها المعلمون في معاهد العلم . فنحن في معاهد العلم نقسم المعرفة ونبوّبها علوماً وفروعاً ، ونجعل موضوع الدرس في الفرق المختلفة في ساعة معينة هذا المذهب في تاريخ دولة من الدول او تلك النظرية في أصل حيوان من الحيوانات وهلمَّ جرًّا . ولكن الحياة قلما تقسم المعرفة هذا التقسيم وقد يسألنا في أحد الايام رجل سؤالاً يتناول بضعة علوم أو بضعة فروع مختصة من علم واحد . ففي فرق التدريس قد نجيب عما يخصنا من السؤال ونحيل السائل على سائر المختصين في فروعه المختلفة ولكننا لا نستطيع ان نفعل ذلك بالراديو بل يجب علينا أن نجيب اجابة عامة شاملة تنطوي على روح السؤال نفسه

خذ مثلاً على ذلك : قد يقابل طالب في جامعة أو في كلية أستاذ الاقتصاد ويقول له يا أستاذ : أن موضوع القاعدة الذهبية للنقد يحيرني . لماذا خرجت عنها أميركا وعندها أكثر من نصف ذهب العالم؟ وما صلة المحكمة العليا بقرار اقتصادي ؟ ولماذا نقدنا نحن متصل بنقد أمة أخرى وما الفائدة التي نجنيها من ذلك ؟ وغير ذلك من وجوه مسألة تبدي فيها الصحف وتعيد كل يوم في أنبائها البرقية وتعليقاتها . وقد يكون الاستاذ مستعجلاً لا فراغ عنده ليلقي

محاضرة في الموضوع فيقول للطالب أصبر حتى نصف السنة المقبل فنصل الاقتصاد سوف يتوفر على دراسة هذا الموضوع . ولكن اذا كان هذا الاستاذ يلقي أحاديث اقتصادية بالراديو ، وكان جمهور سماعه ينبغي أن يفهم هذا الموضوع لما له من الصلة الحيوية بأعماله — بسعر اقطانه وثمن طعامه ولباسه — اذا كان الجمهور ينبغي ذلك فلا مندوحة للاستاذ من تلبية الطلب ، وفي أول فرصة ، لأنه اذا جمع الفصل في المرة التالية ، ولم يفعل لم يجد في المرة التي تليها الا نفسه والآلة وأمواج الاثير . وعلى ذلك لن يكون التثقيف بالراديو مرادفاً للتثقيف في المعاهد . ولكن مما لا ريب فيه انه يقتضي هنا أن نبتدع أساليب جديدة لتعليم المتقدمين في السن وتثقيفهم ، تختلف عن أساليب الفصول في المدارس

واذن فالتثقيف بالراديو يجب أن يكون نوعاً من الاجابة الموجزة السهلة المشوقة عن الاسئلة التي تهم الجمهور أو التي يوجهها الجمهور إلى المتكلمين . ولا بد في هذا الصدد من أن نعيد أن الاجابة يجب ان تكون موجزة . ويجب أن تكون سهلة . ويجب أن تكون مشوقة

هذه الصفات الثلاث التي يجب أن تتصف بها أحاديث الراديو المتجهة الى التثقيف العام ، هي الصعيد العام الذي تلتقي فيه أذهان كثرة السماع ويجب أن تراعى كل المراعاة

فالايجاز يحول دون تطرق السآمة والضجر الى النفس يمنعها فيها التطويل والتبسط والاستطراد . والسهولة في إيراد المعاني تكفل فهم ما يقال عند أكبر عدد من المستمعين . والتشويق يجمع بين الاثنين فيقيها من الملل ويستحثها على المثابرة إذا عرض لها في خلال القسم الاول من الحديث ما لم يفهم على حقه

فذكر الاشياء العلمية مثلاً له اسلوبان ، الاسلوب الكلاسيكي يبدأ فيه بذكر تاريخ الموضوع وتطور نظرياته . والاسلوب المشوق ، يبدأ فيه بذكر بعض نواح تسترعي الانتباه لما فيها من غرائب أو امور غير مألوفة . والمحدث اللاسلكي البارع يستطيع أن ينفذ من ذلك إلى تقرير ما يريد تقريره بعد أن يفوز باصغاء سمّاعه وعنايتهم . ومن ابدع الاساليب في هذه الناحية ، سرد سير موجزة للاعلام على ان تكون السير اشبه بالقصص تروى ويبين ما فيها من عناصر الرواية وتضمين الحوادث اهم ما يقال عن آثار الرجل وفضائله ومنها كذلك طريقة السؤال والجواب ولها اصول وقواعد

وانا لا ندري لماذا لا تعنى ادارة الاذاعة عندنا بناحية السير خاصة . وفي كل يوم نرى في الصحف ذكر علماء ورواد وقواد وسياسيين في حياة كل منهم ما يستوقف النظر من كفاح مع الفقر وغلبة على الصعاب وتمسك بالمبادىء وحنكة في الملمات وعزم وحزم وحكمة في الازمات . اي حائل يحول دون ذلك ؟ ولعل المشرفين على برنامج الاذاعة المدرسية في وزارة المعارف يوجهون عناية خاصة الى هذه الناحية من الموضوع

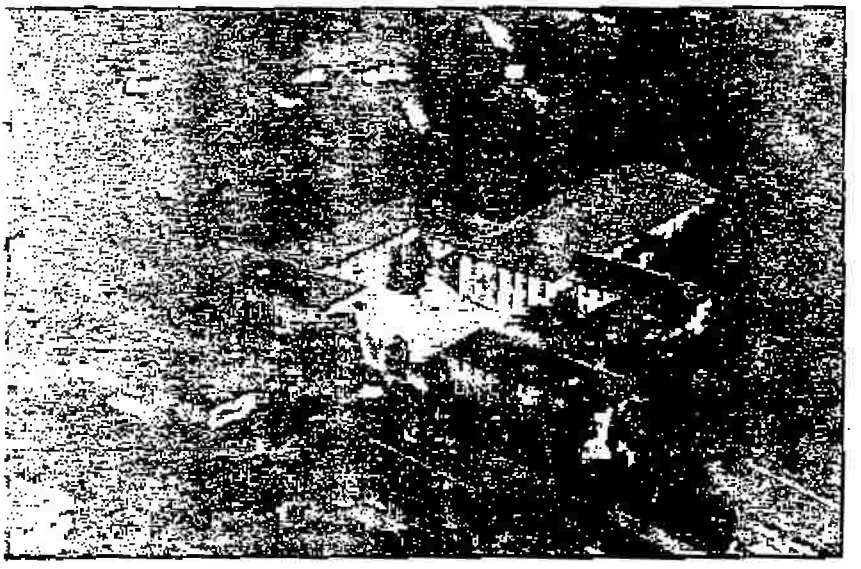

« الدور المشتركة » التي اعدت للاجتماعات الصغيرة التي يعقدها مندوبو الامم المختلفة في الالعاب الاولمبية

المكان المخاص الذي اعد لمباريات الانزلاق على الثلج

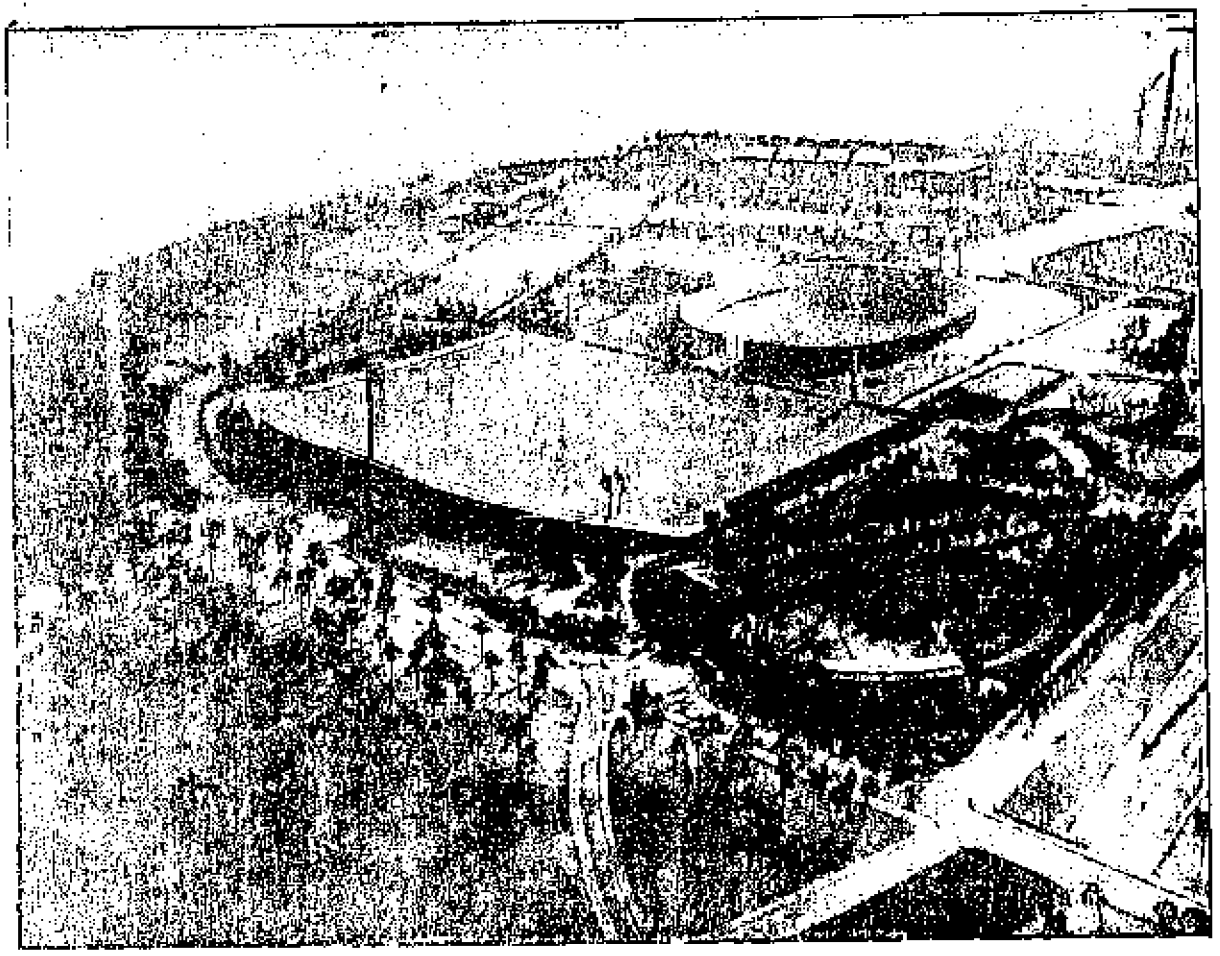

الملعب الفخم الذي أُعدَّ للالعاب الاولمبية القادمة في برلين!

الالعاب الاولمبية

لسنة ١٩٣٦

في جبال باڤاريا وبرلين

ان من المعلوم ان الالعاب الاولمبية تجري كل اربع سنوات في عاصمة من العواصم . والغاية من تلك الالعاب قسمان قسم رياضي محض نظراً الى تجلي المهارة الجسمانية ومنافسة ليوث الرياضة للحصول على البطولة العالمية ، وقسم سنوي نظراً الى ائتلاف الامم لحظة كل اربع سنوات في مظاهرة قتية لا يشوبها كيد ولا لؤم . وستفتح الالعاب الاولمبية المقبلة في المانية فجانب منها من ٦ الى ١٦ فبراير سنة ١٩٣٦ والآخر عادي من ٢ الى ١٦ اغسطس من السنة عينها . وتجري الالعاب الشتوية في قرية من قرى جبال باڤارية تدعى «جارميش بارتنكرشه Garmisch-Partenkirchen» وفي هذه الالعاب الاخيرة الانزلاق والقفز والرقص الى غيرها مما يتعلق بالرياضة على الثلج والجمد. واما الالعاب العادية وفيها العدو والقفز والمصارعة والمبارزة والملاكمة والملاحة وكرة القدم وغيرها فستجري في ضيعة مجاورة لبرلين

وعناية الحكومة الالمانية بهذه الالعاب المقبلة شديدة جداً . فقد أمر الزعيم هتلر ان يقام في سبيلها على مقربة من برلين ميدان واسع يصلح ان يكون فيا بعد مسرحاً للرياضة الالمانية ، وان تبنى عنده قرية تامة الوضع ينزل بها المشتركون في الالعاب اذ فيها دور ومستشفيات وحمامات وحدائق . واما الالعاب الشتوية فقد اعدت الحكومة الالمانية فيها ميدانين احدهما للانزلاق والقفز والآخر للرقص وما اليه وهذا الاخير صناعي غير طبيعي . وسينزل المشتركون في هذه الالعاب القرية المذكورة وهي «جارميش» ولا تدخر لجنة الالعاب وسعاً في الاستعداد الى ذلك

ومما يعنى به القائمون بشؤون تلك الالعاب ان تكون الميادين آية في الفن والاتقان وفي يقينهم ان يخرجوا شيئاً لا يجد احد مثله الا عند اليونان الاقدمين اصحاب الاولمب . وقد اشار الزعيم هتلر الى تلك الغية في احدى خطبه الاخيرة ، ويقال انه لا يقعد عن مراقبة العمل

ومما يذكر ان اللجنة المتقدم ذكرها تخرج مجلة شهرية في عدة لغات اوربية تقف الجمهور على

سير العدّة وتبحث في شؤون الرياضة على وجه عام والالعاب الاولمبية على وجه خاص . وقد نشرت هذه اللجنة كتاباً ضخماً مزيناً بالصور الطريفة يتناول الموضوع نفسه

ومن المستظرف ان وزارة الدعاية الالمانية انشأت متحفاً لتلك الالعاب نقالاً يجول في ربوع المانية وهو متحف مضموم في ست سيارات ضخمة وفيه آثار الالعاب الاولمبية جميعها مع رسوم الميادين التي اقيمت لاجلها في اثينة وباريس ولندن ولوس انجلس وغيرها وصور الابطال الفائزين. من ملحقات هذا المتحف الغريب آلة للصور المتحركة تبرز للناظرين مجرى مُعدّات الحكومة الالمانية للالعاب الآتية

ولنهمل هنا لحظة لنتحدث قليلاً عن الرياضة في المانية لهذا الزمان ورجوعنا في حديثنا الى الخطبة التي القاها مدير الالعاب الرياضية شهر مارس ١٩٣٥ في برلين في حفل من الصحافيين الاجانب

ترى الحكومة الهتلرية أن الرياضة في ايامنا هذه تقوم مقام الفروسية التي كانت شائعة في القرون الوسطى ، وكما ان الفرسان الجرمانيين في ذلك العهد ضربوا بسهم وافر في نواحي الفروسية فكذلك ينبغي للجرمانيين الحاليين ان يدلوا على مهارة شديدة وميل الى القوة لا يعرف الوني . فالقوة جمال الرجل والضعف مدعاة لفساده وسقوط همته وخلقه . اضف الى هذا أن الرياضة تورث حب الحرية وهل يعد الحرية مأرب للانسان . كل هذا علاوة على ما يترتب على الرياضة من تهذيب النفس وبث اعتماد عليها وسمو لها وتضافر الجماعة والمرح البريء والهواء الصالح

تلك آراء اخذ بها الالمان من بعد الحرب توًّا وقد بلغ بهم الأمر ان برّزوا سواهم في بعض ضروب الرياضة وتفننوا فيها تفنناً عجيباً ولعلّ اعجب ما اتوا به الرقص الايقاعي المشهور عنهم، ذلك الرقص الذي شاع حتى انه ولج المدارس في امريكة واوربة

هذا وكان الالمان أشربوا حب الرياضة ومن الشواهد على ذلك ان الالماني اذا غادر المدينة صيفاً للترويح عن النفس لا يلتمس الراحة بل لا يتفك يسير على قدميه طول نهاره او يتسلق الجبال أو ينصرف الى الملاحة . وما اسعده لو استطاع ان ينطلق شتاء الى الجبال المثلجة فيتزلج هنالك ويتزلق ما شاء الله ان يفعل ومما يلاحظه المقيم بالمانية ان الامهات لا يصاحبن اولادهن في غدواتهن وروحاتهن بل يبعثنهن الى رياض الاطفال يمارسن الالعاب الرياضية على اختلاف الوانها

بتلك الاستعدادات المعنوية والادبية تنظم الحكومة الالمانية الالعاب الاولمبية، فعسى أن تفلح وان تبلغ المدى لانا نعد تلك الالعاب مدعاة للتفاهم بين الامم وسبيلاً لتآلفها ولو لحظة من الزمان . فقد والله سئمت الانفس الروح السائدة الآن في أندية العالم ، روح البطش والنضال . وكم تود النفس الصافية ان تعد بعراك سليم محمود العواقب يكشف عن اجلال الناس بعضهم لبعض وميل كلهم الى التآلف وحسن التفاهم

موقعة ناڤارين البحرية

٢٩ ربيع اول سنة ١٢٤٣هـ ٢٠ اكتوبر ١٨٢٧م

للدكتور علي مظهر

— ٢ —

بعد المعركة

اقلعت الاساطيل المصرية والعثمانية في اوائل اغسطس سنة ١٨٢٧ بقيادة امير البحر محرم بك فاما الاسطول المصري فكان مكوناً من ثماني عشرة سفينة حربية والعثماني من ست عشرة سفينة واربع سفن تونسية وجزائرية وست حراقات واربعين مركباً لنقل الجنود وعددهم ٤٦٠٠ جندي. وكان امير البحر التركي هو جنكل اوغلي طاهر باشا وقد عزل خسرو باشا من البحرية لخلاف وقع بينه وبين ابرهيم باشا . وتعين عزت باشا مكانه وكان ذلك خلال الحركات العسكرية البرية والبحرية التي انتهت باسترداد بلاد موره . ووصلت السفن العثمانية الى ميناء ناڤارين في ١٨ شوال سنة ١٢٤٢ هـ وكانت مؤلفة من ٣٧ سفينة على رواية سرهنك باشا (ج ٢ ص ٢٤٠) والاسطول المصري كان ١٦ سفينة بقيادة امير البحر محرم بك بعد تذر واصبحت السفن التركية والمصرية والتونسية والجزائرية ٥٢ سفينة كلها بميناء ناڤارين بقيادة ابرهيم باشا وكان عدد مدافعها ١٥٨٨ مدفعاً وكان عدد سفن الدول المتحالفة الاخرى ٢٦ سفينة كبيرة تحمل ١٢٦٦ مدفعاً

على انه يجدر بنا ان نشير الى بحث لسمو الامير العلامة الجليل عمر طوسون عن عهد محمد علي ذكر فيه ان سفن مصر الحربية التي اشتركت في حرب موره كانت اربعاً وثلاثين قطعة غير سفن النقل التي بلغت اربعاً واربعين وذكر انه لم يعد منها غير ثمان وثلاثين قطعة منها احدى وعشرون سفينة نقل وسبع عشرة سفينة حربية ما بين فرقاطة وقرويت واريق

وهذه المعلومات منقولة من كتاب وضعه سموه يسمى (صفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي) ولعل سموه يسجل بنشره خدمة للتاريخ

وتولى ابرهيم باشا القيادة العامة لكل القوات البرية والبحرية. واستعد لمهاجمة جزيرة (هيدرا) بحراً وشمال (مورە) براً. واتخذت اساطيل الدول المتحدة مكانها بين جزيرتي (هيدرا) و(ترميا) وتجسس قائد الاساطيل المتحدة امير البحر كودرنجتون عن اخبار السفن العثمانية والمصرية لمنعهما من الوصول الى سواحل اليونان وانزال الامدادات الى البر. ولكن تلك السفن المشار اليها كانت قد وصلت الى ثغر (ناڤارين) من دون ان تشعر بها سفن الاساطيل المتحدة. ثم لها ما ارادت من دخول الى الميناء وانزال الرجال والمؤن والذخائر. ويجدر بنا ان نشير الى ما كان يبدو من تباين كبير وفرق واضح بين السفن المصرية والسفن العثمانية فكانت الاولى احسن نظاماً وترتيباً واجود اسلحة. وكانت تبدو السفن المصرية في حالة جيدة جداً بشهادة من رآها ومنهم الكابتن فيلوز احد ضباط الاسطول الانجليزي عند ما كان يستطلع اخبار اساطيل اعدائه (عبد الرحمن بك الرافعي في عصر محمد علي ص ٢١٦)

وكان وصول الاسطول الانجليزي امام ناڤارين يوم ١٢ سبتمبر والفرنسي يوم ٢٩ منه والروسي في اوائل اكتوبر

وارسل كودرنجتون الى ابرهيم باشا رسولاً يوم ١٩ سبتمبر ١٨٢٧ يبلغه ما تمّ عليه رأي الحلفاء في لندن من وقف القتال في البر والبحر. وقال له ان اساطيلهم جاءت لمنع وصول السفن الحربية والامدادات البرية الى اليونان وجزرها. وقابل امير البحر (ريني) الفرنسي عند حضوره لمياه اليونان ابرهيم باشا. وكرر على مسامعه مطالب الحلفاء ثم رجع فقابله هو ومعه كودرنجتون من قبيل الارهاب والتهديد ليعود بمسطوله ورجاله الى الاسكندرية. وقابل البطل ابرهيم باشا التهديد بما عهد فيه من رباطة جأش وثبات. وقال لهما في جوابه انه سيرسل الى والده بمصر وإلى الباب العالي (حكومة تركيا باستنبول حينئذٍ) لاخذ رأيهما وتلقي التعليمات منهما. وانه يتعهد ببقاء الاسطول في ناڤارين الى وصول تلك الاوامر والتعليمات

ويؤثر عن ابرهيم باشا قوله لامير البحر الفرنسي وهو بحادثه (انكم تطلبون مني وقف كل حركات القتال بينما تتركون الاروام يفعلون ما شاءوا. وهذا ليس من الانصاف في شيء). وقد كان ما قاله هو الواقع. ولو أنه سار الى جزيرة (هيدرا) لكان القضاء المبرم والاخير في ذلك على آخر معقل لثوار اليونان. ولكن الحلفاء كانت تأبى ذلك. فبينما كانت الهدنة الوقتية معقودة بين ابراهيم باشا والاساطيل المتحدة كان اليونانيون يقومون بحركات عدائية في خليج كورنثوس. وازمعوا مهاجمة (پاتراس) شمالي مورة بمساعدة الحلفاء الذين تطوعوا لخدمتهم بأساطيلهم وقواتهم مع ان الجيش المصري كان يحتل تلك المناطق. ولم تقد بلاغات ابراهيم باشا التي ارسلها الى قائد الاساطيل المتحدة عن ذلك. فرأى ابراهيم باشا ان يمد (پاتراس). وسار اليها بحراً في بعض

السفن البحرية . فثارت ثائرة الحلفاء وعدوا ذلك منافياً للهدنة مع ان ابراهيم باشا تعهد بعدم مهاجمة جزيرة (هيدرا) فقط . ولم يكن هناك ما يمنعه من انجاد الجنود المصرية المسكرة في (مورة) وان يدفع عنها اذى قوم يريدون بها شراً بمعاونة حلفائهم المتطوعين لخدمتهم ولا نالتهم استقلالهم . وارسل كورنجتون سفنه فتعقبت السفن المصرية ولحقت بها تجاه رأس (پاپاس) شمالي مورة وهددتها بالحرب اذا لم ترجع فاضطرت الى العودة الى ناڤارين

واوصى محمد علي ابنه ابراهيم بعدم التحرش بأساطيل الحلفاء لانه كان متأكداً من قواتها. واوصاه في خطاب اليه بعدم الاصطدام مع الدول خوفاً على الاسطول المصري . واخبره بأنه سيرسل اليه تعليماته النهائية اذا جاءه الرد من الباب العالي . فرأى ابراهيم باشا ان ينفذ وصية ابيه اليه . والتزم في ناڤارين خطة الدفاع سيما وقد كان يعلم ما كانت عليه الاساطيل المتحدة من القوة لما اتصفت به من نظام وما كان لسفنها من قوة سلاح ومدافع شديدة الفتك بعيدة المرمى وما كان لامرائها وضباطها من مرانة على ركوب البحر وكفاءة وعلم . ولم يتبع الحلفاء خطة الدفاع بل رأت انجلترا القضاء على الاسطول المصري والعثماني . واوعزت بذلك الى الحلفاء لان انجلترا كانت تخشى زيادة قوة الاسطول المصري يوماً عن يوم . وهي كانت تبغي دوام السيادة على البحر الابيض المتوسط . فتنتهز الفرصة المسانحة لاضعاف مصر في بكتها في اسطولها الناشيء ولتحول دون قوة مصر البحرية والبرية ايضاً

وزحف ابراهيم باشا بقوة من جنده داخل مورة لانجاد الحاميات المصرية التي شاغبها الثوار . ولكنه اوصى امير البحر محرم بك قائد الاسطول المصري وامير البحر طاهر باشا قائد الاسطول التركي العثماني بعدم التحرش بأساطيل الدول وان يتبعا المودة والمجاملة . ولكن قواد الاساطيل المتحدة المتحالفة ارسلوا اليه انذاراً بعد مبارحته ناڤارين لانه في زعمهم نقض الهدنة وأنه وحده يتحمل عواقب ذلك العمل الخطيرة وحمل رسولهم الانذار الى ناڤارين قبل يوم الموقعة بيومين . ولما لم يجد الرسول ابراهيم باشا عاد برسالة التهديد الى كودرنجتون فاجتمع قواد الاساطيل . واتفقوا على ادخال اساطيلهم الى ميناء ناڤارين بقصد التهديد والتظاهر

***

وكانت سفن مصر والسفن العثمانية داخل الميناء في ثلاثة صفوف متوازية تقريباً كل صف في شكل نصف دائرة يمتد طرفاها من ناڤارين الجديدة الواقعة على عين البوغاز الى جزيرة اسفاختريا التي تحجب عن الميناء امواج البحر . وكانت السفن الكبيرة والفرقاطات في الصف الاول . ويليها سفن الكورفيت ثم سفن الاريق وغيرها بعدها في الصف الثالث

وكانت بناڤارين استحكامات لتحمي مدخل الميناء كما وضعت بطاريات من المدافع في طرف

جزيرة اسفاكتريا مع مساعدة سفن خفيفة من الحراقات . وهي المراكب التي تشعل فيها النيران فتندفع وسط سفن الاعداء لتحرقها بنارها

وفي يوم ١٢ اكتوبر سنة ١٨٢٧ ارسل امير البحر ريني الفرنسي يدعو فيه الضباط الفرنسيين الذين استخدمهم محمد علي لتنظيم بحريته لكي ينسحبوا من الاسطول المصري حتى لا يحاربوا فرنسيين مثلهم فلبوا الدعوة واستأذنوا قائد الاسطول المصري محرم بك فأذن لهم . وتركوا الاسطول الذي كانوا فيه يوم ١٨ اكتوبر اعني يوم التهديد من قواد السفن المتحالفة . وفي ذلك عبرة لمن يريد ان يعتبر وان لا يعتمد في المهمات الا على اهل البلاد مع الانتفاع بمعارف الاجانب واستخدامهم الى حد معقول محدود

وجمع امير البحر الانجليزي قباطين الحلفاء صباح يوم التهديد على ظهر سفينته (آسيا) ليصدر اليهم التعليمات فيما يجب عمله اذا بدأ القتال . ويظهر انهم كانوا يريدون تنفيذ خطة الغدر بالاساطيل المصرية والعثمانية في ذلك اليوم لولا الريح التي لم تساعدهم يومها على دخول البوغاز وتنفيذ مؤامرتهم فانتظروا الى ثاني يوم فان سفن الاساطيل المتحالفة المتحدة استعدت في الساعة العاشرة للتأهب وبدأت سفينة (آسيا) المقلة لامير البحر الانجليزي عند الظهر تتجه على يمين من الخليج تحيط بها بقية الاسطول الانجليزي وفي اثره الاسطول الفرنسي والروسي

وفي منتصف الساعة الثانية بعد الظهر اصدر قائدهم الاكبر امره بالتأهب للقتال وعند تمام الثانية بعد الظهر اقتحمت البوغاز . فأرسل محرم بك رسولاً الى سفينة امير البحر الانجليزي يطلب منه ان يمنع سفن الدول المتحدة المتحالفة على الشر من الرسو في ناڤارين فرد كودرنجتون على الرسول رداً جافاً . وقال بأنه لم يأت ليتلقى الاوامر بل ليمليها . وظهرت عندئذ ما يبتوه من شر وعدوان واضحاً جلياً

واصطفت سفن الحلفاء على شكل نصف دائرة تقريباً امام الاسطول المصري والعثماني . واقتربت معظم السفن حتى اصبحت امام السفن المصرية والعثمانية وجهاً لوجه . وصار بعضها على مرمى المدس منها . وهذا مما يظهر نية الحلفاء واضحة وقد يرجح الخفاء

ووقفت البارجة الانجليزية دارتموث على رأس الصف لتعطيل عمل الحراقات المصرية الراسية في مدخل الميناء . وطلب قبطانها الى احدى هذه الحراقات ان يغادرها بحارتها وجنودها او ان تنسحب من مواقعها . وذهب رسول الانجليز في قارب مسلح الى السفينة المصرية متحدياً للقتال . ويقول بعض مؤرخي الحلفاء يومئذٍ ان رصاصة اطلقت من السفينة المصرية فأصابت جندياً من الحلفاء فكان القتال . وسواء صح ذلك أم لم يصح فان اساطيل الدول المتحدة جاءت تتحدى وجاءت لتنفيذ خطة معينة وهي القضاء على الاساطيل المصرية والعثمانية غيلة وغدراً .

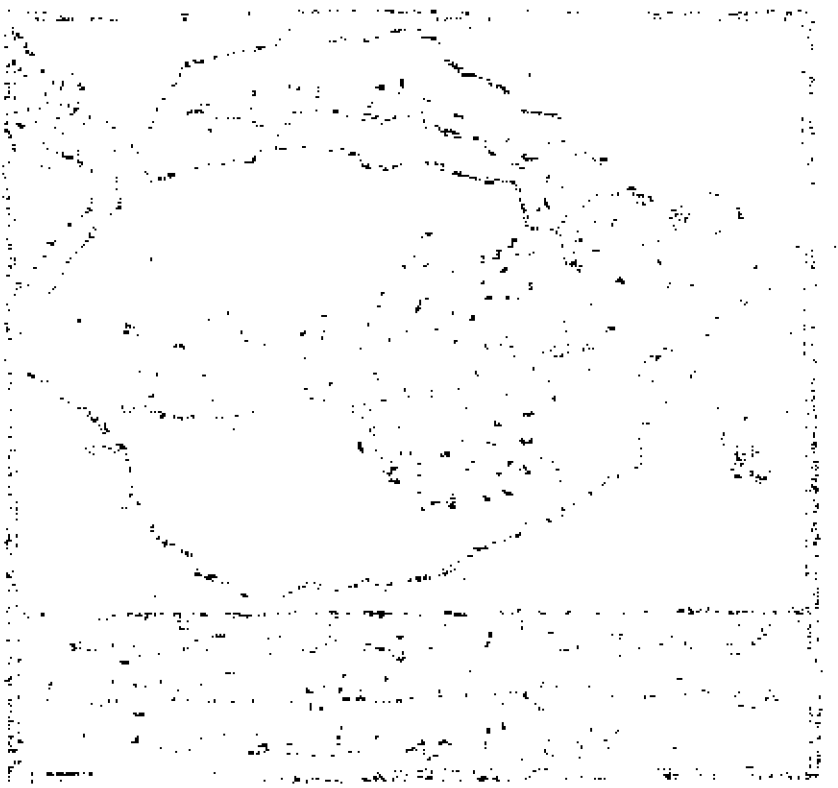

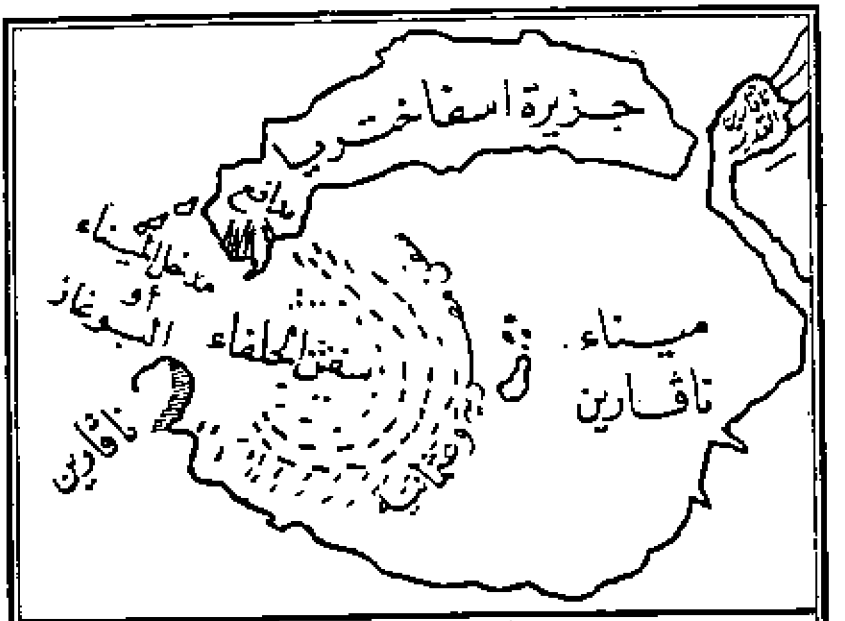

صورة تقريبية لمعركة ناڤارين البحرية
السفن المصرية والعثمانية يرمز إليها بخطوط
وسفن الحلفاء يرمز اليها بنقط

ولاسيما اذا عرفنا أن سفن الحلفاء على قلتها كانت ارجح . فقد كان لديهم عشر بوارج كبيرة مقابل ثلاث عند المصريين والاتراك وكانت سفن الحلفاء المتحدين اشد بأساً واقوى سلاحاً واكثر استعداداً وارقى قيادة من سفن اعدائهم لحداثة عهد المصريين وقلة بركوب البحار . ولو انهم ابدوا من ضروب البسالة والاقدام والقيام بواجبهم ما يشكرون عليه . ولم يسلموا بأية سفينة من سفنهم ولكنهم كانوا داخل الميناء في مكان ضيق لا يسهل عليهم فيه الحركة

وبدأ اطلاق النيران من اساطيل الدول المتحدة على الاساطيل المصرية والعثمانية ، في منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر . واستمر القتال الى الخامسة تقريباً . وتجاوبت النيران والاساطيل الضرب . وعلا الدخان . وكان المنظر رهيباً من اشتعال النيران في البراكب وغرق هذه السفن في المياه وفتك الانسان بأخيه الانسان . واستمر القتال الى الخامسة مساء تقريباً . وكانت النهاية محزنة . فقد غرق كثير من السفن المصرية والعثمانية . وتلف بعضها . وجنح ما بقي منها الى الشاطىء . ولم يسلمها بحارتها للاعداء فأحرقوها وبلغ عدد قتلى المصريين والعثمانيين ثلاثة آلاف وخسر الحلفاء ١٤٠ قتيلاً و٣٠٠ جريح (عبد الرحمن بك الرافعي في عصر محمد علي ص ٢٢٤)

كل ذلك يحدث من دون سابقة اعلان حرب من جانب الحلفاء فكانت لية الندر مبيتة . ونفذت يوم ٢٩ ربيع اول سنة ١٢٤٣ هـ (يوافق ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧ م)

ودليل الندر ان ابرهيم باشا وهو القائد للحملة على موره البرية والبحرية لم يشاهد موقعة نافارين . ولو انه توقع ذلك لما ترك الميدان بل لشهده كما كانت عادته في وقائعه اذ كان يشترك فيها . وكان ابرهيم مع جيشه الذاهب في داخلية بلاد موره لصيانة الحاميات المصرية التي يشن الثوار عليها الغارات . ولما بلغته نتائج الموقعة البحرية وما حل باسطوله ورجاله عاد الى نافارين . وشهد آثارها وكان حزنه شديداً . ثم انه امر باعداد بعض السفن الناجية وعوّم بعض السفن الغارقة وارسلها الى الاسكندرية . ولزم جانب الدفاع واخلى مدن موره . وامتنع بمعظم جنوده في ترى (كورون)و(مودون) حتى يأتيه امر ابيه (عبد الرحمن بك في عصر محمد علي ص٢٢٥)

واتصل تداعي الدول المتحدة بمحمد علي في مصر . وانهوه بان يسحب جيوشه وقوته من موره . وكتبوا معه اتفاقاً محرراً غاية ذي الحجة سنة ١٢٤٣ هـ (يوافق٣ اغسطس سنة١٨٢٨م) فارسل صورته الى ابنه ابرهيم باشا . فلما قرأها اغتاظ منها جداً لانها اضاعت عليه ثمرة جهاده واتعابه سدًى . وقد هددت الدول بتجريد قوات لاخلاء بلاد اليونان من القوات العثمانية والمصرية . وتكفلت انجلترا بالاعمال البحرية وتعهدت فرنسا بارسال جيش قوامه ٢٤٠٠٠ مقاتل (سرهنك باشا في حقائق الاخبار ج . ٢ ص٢٤٠) . بل ان عبد الرحمن بك الرافعي في كتابه القيم في عصر محمد علي يشير الى ان فرنسا ارسلت الى بلاد اليونان جيشاً مؤلفاً من ١٨٠٠٠ جندي

بقيادة الجنرال ميزون لاجلاء المصريين والترك عنها (ص ٢٢٥) . ونقل سرهنك باشا شروط الاتفاق عن مجموعة المعاهدات في كتابه حقائق الاخبار (ج٢ ص ٣٤٠) . ونحن ننقلها عنه وهي:—

١ — يتعهد والي مصر باعادة جميع الاسرى من يونان وغيرهم

٢ — يتعهد امير البحر الانجليزي باعادة جميع الاسرى المصريين وخلافهم مع السفن التي اخذها في الحرب

٣ — تخلي الجيوش المصرية شبه جزيرة موره في أسرع وقت وينقلها والي مصر بسفنه الى الاسكندرية

٤ — ان تكون السفن المصرية في حالة ذهابها وإيابها محفوفة بسفن فرنسا وانكلترة

٥ — لا يجبر اليونان المقيمون بمصر على تركها ما داموا غير مكرهين على الاقامة فيها وكذلك من يريد العودة مع المصريين باختياره لا يمنع من ذلك

٦ — يجوز لابراهيم باشا ان يترك في مورة عدداً من العساكر لا يزيد عن ١٢٠٠ نفر للمحافظة على مدن وفرون وناڤارين وبيزاس وكستيل اما باقي القطط الاخرى فلا بدَّ من الجلاء عنها بدون امهال

ويقول الرافعي بك عن الشرط الاول على (تحرير من بيع من اليونانيين في مصر ما يأتي:— ويذكر المستر بركر قنصل انجلترا في مصر وقتئذٍ ان عدد هؤلاء الاسرى ٥٥٠٠ وزعوا على بيوت الكبراء في الاسكندرية والقاهرة . ولما ابرم هذا الاتفاق لم يبقَ منهم الفتى سوى اربعمائة واما الباقون ففضلوا البقاء في مصر (عصر محمد علي ص ٢٢٦) . ونحن نعرف ان كثيراً منهم امتزجوا في الدم المصري بالتزاوج . ومن ذريتهم بعض الرجال والسيدات المعروفين بمصر اليوم ونجد ذكر البعض منهم سيدات ورجالاً في الاوراق التي حفظت انسابهم كانوفليات وغيرها

واصدر ابرهيم باشا أوامره باخلاء المدن اليونانية والسير الى التنور . وأقلعت بالجند السفن إلى مصر في اكتوبر سنة ١٨٢٨ . وعاد الجيش وقد فقد ثلاثين الفاً من الجنود والبحارة من قوة الحملة التي بلغت اثنين وأربعين الفاً . وبلغت نفقات الحملة ٧٧٥ الف جنيه وفقد معظم الاسطول المصري فكانت الخسارة فادحة ، ولم تنل مصر من حربها هذه فائدة مادية ما سوى ضم جزيرة كريت اليها . فقد عهد السلطان محمود إلى محمد علي بولاية تلك الجزيرة مكافأة له على خدماته في حرب موره وهذا مع ما أبداه الجيش المصري من البسالة والاقدام في تلك الحروب فكانت مرانة طيبة له في خوض المعارك عدا ما اصبح لمصر من منزلة سياسية ممتازة لها شبه استقلال فصلي عن تركيا اما بلاد اليونان فقد استقلت بذلك استقلالاً تامًّا وحافظت عليه الى اليوم

(يتبع خاتمة)

سير الزمان

تحول المشرق الأوربي

واتجاهات سياسة الدول الاوربية

روسيا والمدنية الحديثة

لابرهيم ابرهيم يوسف

تحول الشرق الاوربي

واتجاهات سياسة الدول الاوربية [1]

بريطانيا وفرنسا وروسيا وايطاليا

في يوم ١١ سبتمبر من السنة الماضية القى السر صموئيل هور خطبة في جنيف كانت في رأي فريق كبير من الناس اعظم خطبة القيت فيها. فقد حدّد في فقراتها الاركان التي تقوم عليها سياسة فعالة لجامعة الامم. نعم ان جنيف تعوّدت الخطب الطنّانة، ولكنها أصغت الى هذه الخطبة واستجابت فكان ذلك باعثاً على دهشة المتشائمين. واصبحت الجامعة بعدها قوة تستطيع ان تدفع التاريخ في وجهة معيّنة. وكذلك تحوّل ما كان في السابق من العبارات المثالية، عملاً فعّالاً فهل يشير الى الغد؟

ان الردّ على هذا السؤال يتوقف على تفاعل القوى التي تعين خطط الامم الكبرى. وخطط الامم الكبرى، صُوَر مركّبة، تلتقي فيها المثل العليا التي ينشدها الشعب، وخطط السياسة الداخلية، واحوالها الاقتصادية. فاذا شئنا ان نفهم شيئاً عن القوى التي تحدّد الاتجاه الحالي للسياسة العالمية، وبواعثها ومقتضياتها، وجب علينا ان نحلّل تحليلاً دقيقاً الحالة الداخلية، في الامم او طوائف الامم التي تشترك في هذا الاتجاه. فالمسألة ليست مسألة نزاع بسيط، بين الاثرة والايثار، او بين المكر والاخلاص، او بين النزوع الى البسطة وحب السلام، فهي ليست شيئاً من هذه الاشياء وحده، ولكنها جميع هذه الاشياء معاً

بريطانيا

اعترف السر صموئيل هور في خطبته بجنيف، بالاخطاء التي ارتكبتها حكومة بريطانيا او الشعب البريطاني في الماضي اسوةً بسائر الحكومات والشعوب. ولا يعرف احد الاخطاء الخاصة التي ارادها الوزير البريطاني الا الوزير نفسه. ولكن من المؤكد ان خطة بريطانيا بوجه عام انقلبت انقلاباً تامًّا في اوائل يونيو سنة ١٩٣٥. ففي ذلك الشهر تغيّرت الوزارة البريطانية، تخلف المستر بولدوين المستر مكدونلد في رآسة الوزراء، والسر صموئيل هور السر جون سيمون في وزارة الخارجية، وفيليب كنايف لستر لورد لندندري في وزارة الطيران. فظنّ بعض الناس

---

(١) هذا مقال لوستاف ستوبر Stopler مؤسس ومحرر « دويتش فرلكسفرت » وعضو البرلمنتاغ سابقاً ومؤلف كتب اقتصادية مختلفة في شؤون اوربا، نشرته مجلة الشؤون الخارجية الاميركية في عدد يناير ١٩٣٦، وقد تفضلنا هنا على انه عرض لاحوال اوربا غير مقيدين برأيه

ان التغيير لا يعدو كونه تغييراً في الرجال وحجتهم ان المستر بولدون كان ، وهو زعيم المحافظين ، زعيم الحكومة لما كان مكدونلد رئيسها وان هو نفسه كان عضواً في الوزارة القومية منذ انشائها. ولكن هذا التغيير كان في الواقع تغييراً في اتجاه سياسة بريطانيا . .

وما انقضت ثلاثة اسابيع على اعادة تأليف الوزارة القومية ، حتى اذيعت نتائج « استفتاء السلام » الذي بدأته العصبة الانكليزية لجامعة الامم برآسة ڤيكونت روبرت سسل في شهر يناير السابق. وكانت الاسئلة التي وجّهت الى الشعب البريطاني ، تدور حول موقف بريطانيا من جامعة الامم ونزع السلاح والعقوبات. هل يجب على بريطانيا ان تبقى عضواً في الجامعة ؟ وهل يوافق صاحب الرد على نقص عام شامل في التسلح بالاتفاق الدولي ؟ وهل يوافق على الغاء تام للطائرات الحربية البحرية بالاتفاق الدولي ؟ وهل يجب ان تبقى صناعة الاسلحة صناعة يقوم بها افراد وشركات او يجب ان تصبح ملكاً للدولة ؟ واذا هاجمت دولة ما دولة اخرى فهل يجب على الدول الاخرى ارغامها على التراجع بوسائل اقتصادية غير عسكرية او بوسائل عسكرية اذا اقتضى الامر ذلك ؟

وقد كان عدد الذين اشتركوا في الرد على هذه الاسئلة ١١٫٦٢٨٫٠٠٠ من الانكليز كان منهم عشرة ملايين في جانب العقوبات الاقتصادية و ٦٫٨٠٠٫٠٠٠ في جانب العقوبات الاقتصادية والحربية اذا اقتضى الامر

عجز العالم خارج انكلترا عن ادراك قيمة هذا الاستفتاء ، عجزه عن ادراك خطر التغيير الوزاري . بل اننا اليوم لا نستطيع ان نعلم اي الحادثين كان اعظم خطراً . ولكن القدر جاء بالتغيير الوزاري موافقاً لنتيجة الاستفتاء . فقد ظهر في السنوات الاخيرة ازواء مكدونلد عن الجامعة وصحبه عطفه على موسوليني . ولكن بولدون لم يكن مسيَّراً في سياسته مثل هذا الشعور الشخصي . ثم ان السر جون سيمون كان رجلاً دقيقاً بارعاً التحليل ، ولكنه كان لا يستجيب لنداء العاطفة . وعلى كلٍّ كان ضعف ايمانه بالجامعة مما لا يتفق والنزعة السلمية في الشعب البريطاني ، على ما اكدتها نتائج « استفتاء السلام »

ولكن العامل الفاصل كان الرأي العام البريطاني نفسه . فمهما ان هذا الرأي العام ، النزّاع الى السلام في بريطانيا ، كان مثّراً بدعاية قوية نظّمها دعاة السلام البريطانيون . . ولكن دعاة السلام في بريطانيا ، ليسوا من الموسوسين ، بل من رجال السياسة الذين يقدرون حقائق السياسة حق قدرها . فالنزعة السلمية البريطانية نزعة واقعية ، تمتدّ اصولها الى النواحي الدينية والانسانية في الخلق البريطاني . فهي ليست ، على ما يرى بعضهم ، ستاراً « للامبريالية البريطانية » . ان عشرة الملايين من الانكليز ، الذين وافقوا على وجوب تأييد بريطانيا للجامعة

وتعزيز السلامة الاجماعية وتنفيذ لنظام العقوبات ، يضون ما يقولون . فانهم مصممون على تحمّل تبايج الامبراطورية البريطانية ، كما يطلبونها من كل دولة تنتهك عهد الجامعة اليوم او غداً . بل انهم مستعدون للتخلّي عن الهند والمستعمرات البريطانية لتدخل في نظام الانتداب الذي وضعتهُ جامعة الامم

وليس يهمنا ان نعلم هل هؤلاء الملايين العشرة يمثلون اكثرية الشعب البريطاني ، او لا ، لانهم على كل حال يمثلون اكثرية العناصر الفعّالة في توجيه سياسة بريطانيا ، وهذا كلّ مايهمّ في هذا الصدد . وقد اثبت الانتخاب البريطاني ، الذي تمّ في ١٤ نوفمبر الماضي ان النزاع السياسي بين الاحزاب البريطانية ، يدور في الغالب على الفوز بأكثرية مليون او اكثر قليلاً من الناخبين. فالاكثرية التي نالتها حكومة المستر بولدون لا تزيد على مليون ونصف مليون من الناخبين ، على مجموع الذين اقترعوا في جانب خصومها . فمليون من الناخبين يميل الى هذه الناحية او الى تلك ، يعني في بريطانيا ، تغيير الحكومة او انقلاب النظام القائم. فاذا اعتبرت هذا وعلمت ان « استفتاء السلام » أسفر عن اجماع عشرة ملايين من الناخبين الانكليز على تأييد جامعة الامم تأييداً فعّالاً ادركت ، لماذا اصغت الحكومة البريطانية الى صوت الشعب الصريح

فهل يسع الحكومة ان تتجاهل كلّ هذا وقد تمّت الانتخابات وفازت بالاكثرية المطلوبة؟ هل يسعها ان تخدع الناخبين ؟ كلّ من يعرف شيئاً عن تاريخ انكلترا الحديث ، يعتقد ان هذا غير مستطاع . فانكلترا هي الدولة الكبيرة الوحيدة ، التي فيها رأي عام مستقلّ عن الاحزاب السياسية والصحافة ، ويؤثر تأثيراً قوياً متواصلاً في سياسة الحكومة . فكل حكومة تسير سيراً مناقضاً لاتجاه الرأي العام البريطاني ، لا تلبث حتى تضطرّ الى حل البرلمان واجراء انتخابات جديدة ، كانت اكثريتها ما كانت . والحكم الفاصل في الانتخابات الجديدة هو هذه الملايين التي تعين اتجاه التاريخ البريطاني

وكان القدر اراد ، ان تجيء هذه المحنة تبتلي دعاة السلام الانكليز في الحين الذي جاءت فيه ، فحملت دعاة النزعة الامبريالستية على التعاون مع دعاة السلام او الانضمام اليهم . فلنا ان احد عشر مليوناً من الانكليز اعربوا في يونيو الماضي عن رأيهم في وجوب وضع خطة لتعزيز جامعة الامم وتأييد هذه الخطة من ناحية انكلترا . ولكن هؤلاء ليسوا الامة البريطانية كلها . بل هناك ملايين من الانكليز ينظرون الى جامعة الامم بكثير من الريبة . ملايين اجمعت ، على اختلاف النوازع والبواعث ، على الاعجاب بموسوليني . ولكن موسوليني نفسهُ فرّق شملهم ، لا لانهُ هدّد مصادر النيل الازرق وخط المواصلات الى الهند واستراليا ، لان هذا كلهُ كان مضمّناً في سياسته الحبشية ، ومع ذلك لم يركدونلد ولاسيمون باعثاً يدفعهما الى ذكر الحبشة

عند اجتماعهما به في ستريزا في ابريل الماضي . ولكن بعض ملاحظات موسوليني ، التي ذاعت عن طريق الدوائر الدبلوماسية في هيئة لدن الاجتماعية ، وبعض المقالات الموحى بها في صحف ايطاليا ، اثارت قلقاً واضطراباً في صدور المعجبين بموسوليني من الانكليز ، ومن هذه الاقوال قولهم « ان البحر المتوسط بحرنا » وان الاسطول البريطاني اصبح لا يقام له وزن ، وهذا شيء لا تسلم به الكرامة البريطانية ولو كان صحيحاً . وفي هذا الصدد اخطأ موسوليني التقدير ، لانهُ وحّد الصفوف في انكلترا بعد اختلاف وتنافر

والخلاصة ان انكلترا الآن تجري على خطة تعزيز الجامعة وتأييدها لاسباب ثلاثة . فاولاً : لان الامة الانكليزية تنزع الى السلم ومنع الحرب . وثانياً : لانها تخشى ان يعقب انحلال الجامعة فوضى عامّة في اوربا . وثالثاً : لان عمل الجامعة اذا اصاب النجاح يعني حماية مصالح بريطانيا عندما تهدَّد حماية اجماعية . نعم ان هذه العوامل الثلاثة ، ليس احدها مفصولاً فصلاً واضحاً عن الآخر . فالنزعة المثالية الى السلام ، والمصلحة الامبراطورية ، وخطط الاحزاب الانكليزية ، تندمج بعضها في بعض ولكن تيّار الرأي العام ، الناشىء عنها ، متجه في اتجاهٍ واحدٍ لا شكَّ فيهِ

فرنسا

ولا يمكن ان يقال كل هذا عن فرنسا . فالمسيو لافال التي خطبته العظيمة في جنيف ، غداة خطبة هور . فظهر فيها ، وهذا كان قصده ، بمظهر المتفق مع هور على كل شيء . ولكن النزعة السلمية في فرنسا ، وحالة فرنسا المادية ، تختلفان عما هما في انكلترا من كل وجهٍ . كانت وزارة لافال ضعيفة منذ تأليفها ، بقدر ما كانت وزارة بولدون قوية . وإذا كانت بريطانيا شاعرة الآن بقوتها ، فان فرنسا شاعرة بضعفها . وهذا الشعور بالضعف ، هو في الغالب سبب الانقسام الذي يسم حياة فرنسا العامة لا نتيجة لهُ

فرنسا ، لم تبلغ من الناحية الذهنية ، الى المقام العظيم الذي احرزته سنة ١٩١٩ بل انها في السنوات ، التي بدت فيها قوتها في الذروة ، لم تفقد ما يعبر عنه علماء النفس « بشعور النقص » بالقياس الى المانيا المتلوية . وهذا جعل سياستها الخارجية متقلبة . ومن هنا نشأ عنادها ، وعجزها عن اتباع خطة المسالمة ، والتسليم بأشياء في حينها ، وهي صفات القوي يحس بقوته

فرنسا هي التي ابدعت فكرة السلامة الاجماعية ، وجعلتها هدف سياستها الخارجية . ولكنها عند ما ابدعت هذه الفكرة ، كانت دائماً تفكر في سلامتها من المانيا ، وسلامتها من المانيا يعني المحافظة على النظام الاوربي الذي وضع سنة ١٩١٩ اي ابقاء المانيا مكبوتة . فشعور

فرنسا بالضعف كان بالقياس الى ما رأته في هذا النظام الاوربي من الصدوع ، وقد بلغ ذعرها غايته في سنة ١٩٣٣ عندما تقلد هتلر ازمة السلطان على المانيا

هذا الاحساس يؤثر في نزعات سياسة فرنسا الخارجية وأساليبها . ثم ان فرنسا امة زراعة الى السلام . ولكن هذه النزعة تشطر الامة بدلاً من ان توحد صفوفها . فدعاة السلام في فرنسا ، ليسوا من المحافظين (بالمعنى الفلسفي لا السياسي الحزبي) بل من المتطرفين . والدعاية السلمية في فرنسا ، تسير في الغالب جنباً الى جنب مع الدعاية الشيوعية . ولذلك ينظر اليها المحافظون نظرهم الى فرحة تضعف القوة الوطنية واذن فهي في نظرهم عمل غير وطني

ولذلك يغلب الظن ان الهوة بين اليمين واليسار في فرنسا ، ليست مما يسهل ردمهُ . ويقول بعض الكتاب الاجانب في فرنسا ، ان حالة فرنسا الآن تتسم بما كانت تتسم به حالة المانيا سنة ١٩٣٢ اي قبل عهد هتلر . فالبلاد مقسومة معسكرين متقابلين ، والبلاد شاكية السلاح ، ولا يعلم احد ما يكون مدى سلطة الحكومة ، اذا شرع الناس في استعمال سلاحهم

ثم ان كلاً من هذين المعسكرين ينظر الى الآخر بعين الريبة ، ولكلٍّ منهما آراء في جميع المسائل الحيوية تختلف اختلافاً بيّناً عن آراء الفريق الآخر . فالانتعاش الاقتصادي في بريطانيا ، قد ازال من السياسة البريطانية ، ما كانت تتصف به من المنافسة الحزبية الضيقة ، قبل منتصف سنة ١٩٣١ ، حالة ان سوء الحالة الاقتصادية في فرنسا قد زاد هذه المرارة وغذاها . وما يخشى الآن هو ان يفضي ذلك الى انفجار . ثم ان الانتعاش الاقتصادي في بريطانيا مكّن الحكومة من موازنة الميزانية وخفض بعض الضرائب ، واعادة ما كان قد اقتطع من نفقات الاعانة الاجتماعية . اما حكومة فرنسا فتصدالآن الى القيود المالية ، وهذا مما يجعل الحالة في فرنسا شبيهة بحالة المانيا في عهد بروننغ سنة ١٩٣٢ من النواحي السياسية والاقتصادية معاً ، وسياسة القيود مقضيٌّ عليها بالحتمية في فرنسا ، كما قضي عليها في المانيا

ان مشكلة المسيو لاڤال عسرة على الحلّ . (استقالت وزارتهُ ونحن نقل هذه السطور ولكن المشكلة التي واجهها هو يواجهها خلفاؤهُ الى ان تصلح الحال اذا كان اصلاحها ممكناً) ولكنهُ مضطر الى سلوك الخطة التي يسلكها . فهو ليس حرّاً . ان الانقسام في صفوف الامة ، مثّل كذلك في صفوف وزارته . وسياسة الاتفاق بالمساومة التي يسعى الى فرضها في جنيف في النزاع الايطالي الحبشي ، هي السياسة التي يحتم عليها اتباعها في سياسة بلاده الداخلية بين الاحزاب المتنافرة . ففي ناحية ترى المحافظين الفرنسيين وممثليهم يقيمون وزناً كبيراً لصداقتهم الجديدة مع ايطاليا ، وفي ناحية اخرى ترى ممثلي اليسار يهدّدون بأسقاط الوزارة اذا رضي لاڤال ان يؤيد بريطانيا في جنيف . ولا ريب في ان هريو وبونيه وماندل يستقيلون في نفس اليوم الذي يظهر

هم فيه ان لاڤال منحاز ضدّ انكلترا . ولكن ليس بين ساسة فرنسا رجل يرغب في ذلك الآن . لان كلّ وزارة تخلف وزارةً من الوسط ، لا بدّ ان تكون متأثرة بقوة الشيوعيين ويرجح بعضهم ان الانتخابات الفرنسية القادمة سوف تسفر عن نقص ممثلي الراديكاليين الاشتراكيين والاشتراكيين وزيادة في ممثلي الشيوعيين . وعندئذٍ ، على الاكثر ، لا بدّ من الفصل في ازمة فرنسا الداخلية اذا لم تضطرّ فرنسا الى ذلك ، عند اخراج الفرنك عن قاعدة الذهب فيفضي ذلك الى تغيّر مشهد الحياة العامة في فرنسا . ولكن لاڤال لا يستطيع ان يفصل ذلك الآن . ولا يمد ان يكون تعيين وزارة من احزاب اليسرة ، واخراج الفرنك عن قاعدة الذهب ايذاناً بنشوب حرب اهلية

هذا هو الشبح المخيف ، الذي يتعين على زعماء فرنسا ان يبيروا دفة سياستها الخارجية في ظلّه القاتم وليست الحالة الداخلية وحدها باعث لاڤال على التردّد . بل هناك مخاوف حربية كذلك . ان الكابوس الذي يقلق نوم كثيرين من الفرنسيين ، هو كابوس حلف عسكري بين المانيا وايطاليا قد يندفع اليه موسوليني يأساً وقنوطاً : وماذا تفيد جميع الاساطيل البريطانية ضدّ هجوم على فرنسا من الجيوش الالمانية والايطالية مشتركةً ؟ عندئذٍ يتحتم على فرنسا أن تواجه هذا الهجوم وحدها . فحالفها مع روسيا ، لا تجدي كثيراً ، ودول الاتفاق الصغير ، لا بدّ ان تكون مشغولة بمشكلاتها الخاصة . ولو كانت انكلترا قوية في البرّ ، كما هي قوية في البحر لما ترددت الامة الفرنسية في الاختيار دقيقة واحدة . ولكن بعد ان أصبحت المانيا شاكية السلاح ، اضحت فرنسا تشعر بوجوب البحث عن عون حربيّ ، فوجدت ذلك في موسوليني ، واقتشت به ، حتى شجر الخلاف الحبشي ، فوقفت فرنسا محيرة بين لندن وروما

على مفترق الطرق

فاوربا الآن واقفة على مفترق الطرق . وتطور الاحوال يقتضي اتخاذ قرار ينطوي على اي طريق تختار . ان معظم الدول الاوربية ، ليس من فريق الدول الكبيرة . بل من الدول الصغيرة والمتوسطة . فالبلدان السكندينافية وهولندا وسويسرا ، والدول التي قامت على انقاض امبراطورية النمسا والمجر ، ودول البلقان ودول بحر البلطيق ، اخذت تحس ، بعد قيام موسوليني وهتلر ، بضعفها . وجميعها ترى في جامعة الامم ملاذها الوحيد والاخير . وجميعها ما (عدا دولة او دولتين) مغتبطة ان تتبع زعامة بريطانيا في سعيها الى تحويل الجامعة إلى أداة لحفظ السلام ولحماية اعضائها من الاعتداء عليها . وليس فيها من تهمّه الحبشة ، او توازن القوى في البحر المتوسط او البحر الأحمر . ولكنهنّ جميعاً ينظرنَ الى تدخل الجامعة في مشكلة الحبشة ، على

انهُ تمثيل ، لما يمكن ان يطلب منها في نطاق اوسع جدًّا في اوربا غداً . واني لارجو انهُ اذا نجح هذا التمثيل فلن يجرؤ احد بعدئذٍ ان يرفع الستار عن الرواية نفسها ، ويستقدن انهُ اذا نجحت الجامعة أنشأت بذلك سابقة يجعل عملها في المستقبل ، اسهل واسرع واشد فعلاً . وهذا يفسر السرعة التي لبت بها خمسون دولة دعوة جنيف مما كان باعثاً على الدهشة ، حتى في جنيف نفسها .

روسيا

ان الخوف من المانيا ، وهي دولة كبيرة خارج نطاق الجامعة وماضية في التسلح على قدم وساق ، هو العامل المسيطر على موقف روسيا . فالدعوة الى السلام ، لبواعث انسانية ، بعيدة عن الذهن البولشفي ، بعدهُ عن الذهن المتشبع بنزعة موسوليني القومية المكتسحة . ثم ان الجامعة في نظر روسيا ، أداة اكثر منها عقيدة . فالعوامل التي توجّه سياسة روسيا الخارجية ليست الرغبة في اقامة النظام الاوربي ، على اسس تجعلهُ احسن مما هو ، لان ذلك في رأيها لا يتمّ الاّ باتصار الشيوعية . ولا هي الرغبة في تحريم الحرب كأداة للسياسة الدولية ، لان حرب الطبقات في رأيها هي صفة لا يمكن ان تنفصل عن النظام الرأسمالي

بل هناك ثلاثة اعتبارات رئيسية ، دفعت روسيا الى وقوفها موقف المؤيد للجامعة وخطة فرض العقوبات . فقد انقضت ايام « رابالو » عندما اتفقت روسيا والمانيا بحكم انهما الدولتان المنبوذتان من مجامع الدول الغربية . وروسيا الآن تحسُّ ان المانيا تهدّدها في الغرب . واليابان تهدّدها في الشرق . وهذا ما يحملها على هذا الشعور . ففي جميع الخطب والتصريحات التي القاها اهر هتلر مراراً عن تمسكهِ باهداب السلام ، لم يهمل الاعراب عن بغضهِ وعدائهِ لروسيا . وهذا العداء هو العنصر الحيوي في الاشتراكية الوطنية الذي تحاك حولهُ جميع خططها الخارجية . وقد زاد في رأي الروس ، خطر المانيا على روسيا منذ تقاسمت المانيا وبولونيا . فالسوفيت يحتاجون الى حماية حدودهم الغربية ، وهم يسعون الى الفوز بهذه الحماية في جنيف لان المحالفة العسكرية مع فرنسا والاتفاق الصغير ، لا يمكن ان تصبح فعّالةً الاّ عن طريق جنيف . ثم ان روسيا تعلم حقَّ العلم ان المحالفة الروسية الفرنسية ، غير مرغوب فيها بوجهٍ الاجمال في فرنسا المنقسمة الى فريقين فريق نزعتهُ شيوعية وفريق ساءٍ لهُ نزعةٌ فاشستية . واذن فالحاجة عظيمة الى الجامعة لتكون صلة الاتصال ، حيث تتفق حاجة فرنسا الى ضمان سلامتها مع حاجة روسيا الى حماية حدودها الغربية

الاّ ان هناك عاملين آخرين ، كلاًّ منهما يكفي ليحمل روسيا على اتهاج هذا النهج في جنيف فالفاشستية ستصاب في الحبشة بضربتها القاضية في رأي الروس . واذا تحطمت قوة موسوليني على صخرة

الجامعة ، فالسائد ان مصير قوة هتلر لا يختلف كثيراً عن مصير قوة موسوليني . وهذا الباعث هو احد البواعث التي تحرك احزاب المعسرة في فرنسا وانكلترا ولكنهُ ليس الباعث السائد على توجيه سياستهما . واخيراً ان سياسة روسيا الخارجية متجهة خاصة الى نقطتين : الشرق الاسيوي والشرق الاوربي . كلاهما مضطرب حافل بالخطر . بل أن المشكلة الحبشية تكاد تكون صغيرة من الصغائر ازاء اعتداء اليابان على البرّ الاسيوي . وليس بين دول اوربا الاّ دولة واحدة غير روسيا يهمها تطوُّر الحوادث في الشرق الاقصى وهي انكلترا . فضغط النزعة الامبريالستية الفاشستية في اوربا وتطوُّر حوادث الشرق الاقصى ، يجعلان مصالح انكلترا وروسيا متفقة في الشرق والغرب معاً . وهذا اتجاه لا يمكن ان نبالغ في تقدير تأثيره في المستقبل

ايطاليا

واخيراً ايطاليا . فياستها هي اللغز الوحيد ، في رواية معقدة ولكنها مفهومة الفصول والمغازي . قد يفوز المؤرخون في المستقبل بالكشف عما يطلبهُ موسوليني حقيقة في حملته الحبشية ، ولكن التفسيرات الرسمية ليست الاّ امتهاناً للذكاء الانساني

الاّ ان ضغط الحوادث الذي حمل الدكتاتورية الايطالية على ان تفعل ما فعلت ، كتاب مفتوح . فقد انقضت سنوات وموسوليني ينادي بأن سنة ١٩٣٥ ستشهد تأسيس الامبراطورية الرومانية الجديدة . وقد وُجّهت جميع الاستعدادات العسكرية في ايطاليا ، توجيهاً خاصًّا على هذا الاساس . بل ان قسم الدعاية اعدَّ الرأي العام الايطالي ، لهذه السنة الفاصلة في تاريخ ايطاليا الحديث . فمن يحاول ان يبحث عن البواعث الاقتصادية وراء كل هذا يخطىء ، كما يخطىء كل من يحاول أن يفسّر النزعة القومية تفسيراً اقتصاديًّا . والحبشة من الوجهة الاقتصادية ، لا تجدي ايطاليا فائدة ما (انظر مقالنا الافتتاحي) ولا يزال الرأي في مصادر ثروة الحبشة الطبيعية ، وهل تصلح للاستغلال ، رأياً منقسماً . واذا فرضنا ان ايطاليا اكتسحت الحبشة فهي تحتاج حينئذٍ الى الاموال الاجنبية لاستغلال مصادر ثروتها الطبيعية ، وما يجنى من فائدة هذا الاستغلال لا يكفي لتوفية نفقات الحرب . ولو اكتفى موسوليني بالتغلغل في الحبشة تغلغلاً اقتصاديًّا سلميًّا ، لفاز في الغالب بمساعدة بريطانيا المالية . ولكنهُ لم يبحث عن منافذ اقتصادية بل عن انتصارات عسكرية . انهُ لم يطلب المال بل القوة . وهذا ألب الامم عليه

ولا تستطيع الشعوب الانكلوسكسونية ان تفهم هذا الاّ اذا فهمت القوى الداخلية التي تتفاعل في عالم فاشستي . ان الفاشستية نشأت اولاً على انها حركة شباب . فشباب ايطاليا خرج من خنادق الحرب خائب الامل مرير النفس ، فوجد حكومة ليس في يدها شيء تقدمهُ لهُ .

فقلب هذا النظام ووضع ممثليه في مناصب الحكم . وقد انقضت الآن ثلاث عشرة سنة ، ونشأ جيل جديد من الشبان . هذا الجيل تمرّن منذ كان في السادسة من العمر ، عن طريق الفرق الفاشستية المختلفة ، على خدمة الحزب ، فأنشأت فيه هذه المرانة مطالب . والحزب الذي يمرّن اعضاءه على خدمته يجب ان يكافئهم مكافأة طيبة . اي انهُ عليه تبعة نحوهم . ولكن الحزب عاجز عن ذلك ، فليس في الدولة مناصب لجميع افراد هذا النشء الجديد ، لان القابضين على زمام الحكم من الفوج الاول لا يزالون شباناً او كهولا اقرب الى الشباب . والنشء الجديد لم يتمرّن من الناحية الذهنية على عمل خاص . وهذا خطر كبير يدركهُ موسوليني حق الادراك لانهُ استغلّ اوّلة من هذا القبيل تقبض على مقاليد الحكم . واذن فيجب عليه ان يفتح لهؤلاء الشبان باب المغامرة ، ويفتش لهم مناصب يشغلونها ، كانت النفقة ما كانت

والظاهر انه قدر ان النفقة تكون اقل كثيراً مما هي . وقد كان خطأه الكبير في حكمه على ما يكون موقف بريطانيا . فانهُ لم يحسب حساباً لبريطانيا تقاومهُ مقاومة فعّالة ، وليس خطأهُ هذا ناشئاً عن عدم فهمه لمصالح بريطانيا ، بل لانهُ ظنّ ان بريطانيا اضعف مما هي حقيقةً . فبحكم نزعته الدكتاتورية الفاشستية حسب ان الدمقراطية البريطانية ضعيفة . واعتماداً على اتساع نطاق الدعاية السلمية في بريطانيا خيّل اليه ان بريطانيا لن تحارب بحال من الاحوال . وقد عزّز هذا الرأي في نفسه موقف مكدونلد وسيمون . فانهما على الرغم من استعداده العسكري لم يوجها اليه تحذيراً قويًّا الا في الصيف (١٩٣٥) . فايطاليا وقتئذ الآن في المأزق ، والدكتاتوريات من اضعف الحكومات لانهُ لا يسعها ان تتراجع ولا ان تعترف بخطإ ، بل يجب عليها ان تحاول السير الى الامام على الطريق التي اختارتها

هنا موطن الخطر في اوربا ، كائنة ما كانت النتائج التي يسفر عنها تطبيق العقوبات الذي شرع فيه في ١٨ نوفمبر الماضي ، او الحملة العسكرية الايطالية في الحبشة . فوقف ايطاليا لا يرجى ، الا اذا اتفق موسوليني مع الجامعة ، اي مع انكلترا . اما كيف يمكن الوصول الى هذا الاتفاق ، ومتى ، فمثار علام الغيوب الآن . ولكني على كل حال ارجّح انهُ لا يمكن الوصول الى هذا الاتفاق باشتراك بريطانيا وفرنسا وايطاليا في اقتسام اسلاب الحبشة . فانكلترا تعلم انها بذلك تهدم الجامعة ، وليس عند موسوليني عوض منها

ليس من غرض هذا المقال تصوير ما قد ينجم عن حبة ايطاليا ولكني ارى ان اعظم النتائج لا يظهر في افريقيا او البحر المتوسط بل في اوربا الوسطى . فانما الآن ، كما كانت من ٢٥٠ سنة ، مفتاح الحالة الاوربية ، لان خط توسع المانيا ، يتقاطع هناك مع الخط الواصل بين فرنسا والاتفاق الصغير ، وبلس النظام الذي حاولت ايطاليا ان تنشئهُ في حوض الدانوب .

روسيا والمدنية الحديثة

بقلم ابراهيم ابراهيم يوسف

يرحب بعض المفكرين بتعطيل تهافت أقطاب الأدب والاجتماع والاقتصاد وغيرهم على دراسة روسيا الحديثة بمجرد الشغف بكل جديد . ولكن هذه الظاهرة ليست سوى ذرة من شتات الدوافع التي حدت بهؤلاء وهؤلاء للوقوف على كنه تطور التفكير الروسي الحديث لمعرفة مداه وأثره في المجتمع البشري لكي يتخذوا عبرتهم ازاءه ، إذ أن عبء التبعة التي يحملها أقطاب الثقافة اليوم أمام الجيل الحاضر والاجيال المقبلة أصبحت أعظم مما فرض على سابقيهم من علماء وأدباء

وليس من خلاف بين حملة ثقافة هذا العصر ، مهما تفاوت اتجاههم الفكري ، في ان المدنية كانت وما زالت خاضعة لسنة الارتقاء ، كما يخضع لها الانسان سواء بسواء . ذلك لان المدنية من صنع الانسان بالذات . والواقع ان المدنية دائماً ابداً في قوران يتجلى في الصراع بين الناس والطبيعة ، وفي الكفاح بين فئة منهم والبقية . ولاشك في ان هذا الصراع يقوى جلة ويشتد كلما ازدادت الثقافة التحررية انتشاراً وازداد العمل بها حتى يشمل اكبر عدد ممكن من الناس . كذلك ينتهي هذا الكفاح حالما يتحقق وجود مجتمع تزول فيه الفوارق الموضوعة بين الناس ، ولا يكون فيه بغاء لمستغل او مستغل ، وفيه تتوطد المساواة بين الانسان واخيه الانسان

ولقد سار الانسان بالمدنية اشواطاً حتى بلغ بها عهداً اصطلحوا على تسميته بالمدنية الغربية . غير أننا حينما نتبين أعماق الاشياء نجد اننا نعيش في حقبة من تاريخ البشرية نشهد فيه صراعاً ظاهراً بين مدنيتين : المدنية الغربية العتيقة والمدنية الروسية الحديثة . ولسنا في حاجة الى ذكر ان المدنية الغربية تعبر عن شعور الملأ (السادة) وحدهم ، كما تشف عن نظرتهم الى مختلف الامور خلال حياتهم الخاصة . وهم في الواقع واضعو أسس هذه المدنية وان كان غيرهم ساهم في البناء . والامر على العكس في « مدنية الناس » ، المدنية التي تسعى الى تحقيقها روسيا اليوم . ومهمة هذه المدنية القدرة على التعبير عن شعور واحساس الناس كافة ، وعلى اثبات نظرتهم الجديدة الى الحياة وهذا تتولى أولاً الكفاح الثقافي لتهذيب الناس اطلاقاً دون تفرقة ، حتى اذا ما تهيأت في كل مكان أحوال تلائم حياة الانسان المتحرر الفكر ، تم تشييد مدنية شاملة يساهم في أسسها وبنائها كل شخص بقسطه . ولا تبغي هذه المدنية الجديدة ، حتى ولا من الناحية الفنية المحضة ، تصوير وتسجيل كفاح يدور بين الناس كما كان يظن . كلا ! بل غايتها من الوجهة الفنية التعبير عن تاريخ الانسان العامل (لا الخامل) ، وعن تاريخ الصراع بين الناس والطبيعة ، وعن تاريخ كفاحهم ضد الاستبداد (راجع كتاب صور ونشرات لمؤلفه كارل رادك

(Karl Radek : Portraits & Pamphlets) أما غايتها من الوجهة العامة فضمان حياة مجتمع تسوده الحرية الحقة والديموقراطية الصحيحة والسلام العام، توصلاً الى إسعاد الجميع من دون أي تفرقة. ومن ذلك نرى ان المدنيات التي تعاقبت على البشرية وانتهت بالمدنية الغربية لم تكن سوى «مدنية الفرد».

اما تلك التي يتمخض عنها الجيل الحاضر فهي «مدنية الجماعة». ولقد تنبأ بكل ذلك «كارل ماركس» في كتابه «رأس المال»؛ اذ قال: «لقد كانت الافكار السائدة في كل زمن هي افكار الطبقة السائدة وحدها. وبدلاً من المجتمع الرأسمالي القديم وما فيه من طبقات وتزاع بين الطبقات سيحل اتحاد يكون فيه النماء الحر لكل فرد أساس النماء الحر للجميع». ولما كان اظهر طابع للمدنية الفردية هي الانانية التي قضت باذلال المجموع للفرد، فانهُ يحسن بنا ان نذكر رأي العلامة فرويد في الاجرام والانانية حيث يقول في (Dostoevski and Parricide by Siegmund Freud) «يجب ان يتوافر شرطان أساسيان للاجرام: اولها الانانية المطلقة، وثانيهما نزعة الاهلاك والابادة. وكلاهما مرتبط احدهما بالآخر. ويرجع السبب في نشأة الاجرام الى انعدام التقدير العاطفي الصادق لاشياء انسانية صرفة». وعندما نطبق هذا الرأي على المدنية الغربية ذات الطابع الاناني يظهر لنا بجلاء انها مدنية متسمة بالاجرام في صميمها ومجموعها

(الفارق بين الثقافتين الاوربية والروسية) لهذا ادرك حملة ثقافة هذا العصر بأنهُ لا سبيل الى اصلاح المجتمع البشري بالوسائل والادوات المادية والمعنوية التي تقدمها لنا المدنية الفردية. بل لابدَّ من انتهاج سبل اخرى لمدنية على النقيض من هذه — تلك هي المدنية التجمعية. وفي العمل التجمعي للمدنية التجمعية يتسع المجال لظهور الشخصية، بل ولظهور أكبر عدد ممكن من الشخصيات. وتعتبر العمل التجمعي اول شرط اساسي للحياة. ويذهب «إنجلز» الى حد آخر من المنطق في كتابه (Dialects of Nature by Engels) فيؤكد بأنهُ «لنا ان نقول، ونكون في قولنا صادقين، بأن العمل هو الذي خلق الانسان» وهنا يسأل كثيرون: ولكن ما هو العمل؟ ولا يشق الغليل سوى ايضاح كارل ماركس في كتابه رأس المال اذ يقول بأنَّ «العمل هو في الاعتبار الاول تآزر بين الانسان والطبيعة، وفيه يبدأ الانسان بتنظيم وتذليل التنازع المادي القائم بينهُ وبين الطبيعة وفق منهجه. وهو حين تدب الحركة في يديه ورجليه ورأسه، وهي قوى بدنه الطبيعية يواجه الطبيعة كقوة من قواها فيعمل لتشكل نتاج الطبيعة وفق حاجاته. ثم هو في عمله هذا الذي يتناول عالمه الخارجي بالتغيير، انما يعمل في الوقت ذاته على تغيير طبيعة نفسه». غير ان الانسان ليس لهُ ان يصارع الطبيعة بفرده بل عليه ان يصارعها ضمن مجتمع خاص التشكيل وبواسطته (راجع كارل ماركس Critique of Political Economie وما كان هذا العمل

التجمي لينتج ثماره دانية حتى تعم الثقافة بين الناس ، اذ ان الثقافة أولى اسس مدنية الجماعة . وهي في ذلك على نقيض من المدنية الغربية التي يقول فيها احد اعلامها « برتران رسل » Bertrand Russell في احدى محاضراته بأنها « قائمة على اسس اخرى غير العلوم » . ويعني بذلك انها اسست على الغزو والفتح الذي قامت به اوربا الغربية في قسم كبير من العالم . ويزيد « هولدين » ايضاح ذلك في (J. B. S. Haldane : The Sacrifice Point of View) اذ يقول بأن « المدنية الاوربية قائمة على عدم التجانس ، اذ ان اساسها المادي علمي ، اما اساسها الثقافي فيرجع الى عهد ما قبل العلوم . وحالة العالم اليوم تدل دلالة واضحة على ان محاولة قوية ستظهر في القريب العاجل لايجاد هذا التجانس » . ويتنبأ « هولدين » بأن مصير الطابع الخاص لثقافتنا سيكون نفس مصير الحضارات الغابرة » ثم نجده يؤكد لنا في بحثه The Place ofScience in Western Civilization بأن مستقبل المدنية لا يتوقف الى حد كبير على الاكتشافات والاختراعات العلمية فقط ، بل يتوقف كذلك على الآراء العلمية والنظرة العلمية التي تشمل مناحي الحياة »

﴿ الازمة في المدنية الاوربية ﴾ وبمجرد عثور هؤلاء العلماء وأمثالهم من حملة المدنية على مواطن الضعف منها في الأسس يدل دلالة لا شك فيها على أن المدنية الغربية في أزمة لا سبيل الى علاجها . «ولدل» الأزمات التي تنتاب المدنية في كافة مظاهرها هي أشبه ما تكون بالجبال التي تتصدع أثر زلزال عنيف ، فيتيسر لعلماء الجيولوجيا دراسة تاريخ التطورات الارضية بشكل أدق وأتم من أي وقت آخر ». وكذلك الحال في هذا العصر ، إذ يتكشف للمفكرين منا في كل يوم وجه من وجوه فساد المدنية الغربية . وها نحن نجد أن الازمات قد اجترفت العالم الغربي من جميع نواحيه . فقد تفشت الازمة السياسية في مواطن المدنية الغربية ، وذلك لان قانون ابتلاع القوي للضعيف مازال دستوراً معمولاً به . ومازالت الحرب هي السلاح الاول والاخير لحل المشاكل . ونرى خلال تلك الملايين من النساء والاطفال والعجزة مهددين بالجوع والفقر وعدم الانتاج ، بينما تهدر أرواح مثلهم في ميدان القتال . وهم في ذلك مستسلمين لنظام ثبت لمفكريهم فساده . وإلى جانب هذا نجد الأزمة الاقتصادية قد تفاقمت فعم ضررها واشتد هولها ، ولا تزال تتوغل وتتسع كلما تقدم الزمن . ولا وزر على أحد في ذلك ، بل الذنب يقع على سوء النظام الاقتصادي الذي سمحت مدنيتنا الغربية به ، فأباحت لعدد من الافراد أن تتكدس لديهم الاموال في حين أن الجماهير تفتقر اليها . فكان عدم التجانس هذا سبباً في الارتباك الذي هي فيه الان ، ففضل أن تقدم الحنطة للثيران بدلاً من أن تمتلىء بها البطون الجائعة . كما فضل أن تبتلع الأمواج أكداس البن عوضاً عن أن تنشط به الأعصاب المتراخية . ويكفي ذلك الفساد الذي انتجته الأزمة الاقتصادية واخطره العطلة ، وذلك الذي انتجته الأزمة السياسية واشده

الاذلال لخلق أزمة اجتماعية تجرف المجتمع الى الحضيض. وقد ظهرت دلائلها في تفكك الاسرة وتخاذلها وتخاذل الاسرة وتقوض أركانها نذير بتخاذل المجتمع وتقوض أركانه . وما كان ذلك ليكون لو لم يكن النظام الاجتماعي الذي أيدته مدنيتنا الغربية فاسداً من اساسه . وليس أدل على فساد هذا النظام من تطرق الازمة إلى الثقافة . وأروع وصمة يوصم بها هذا العصر الذهبي للمدنية الغربية هي أن الثقافة الحقيقية لا أثر لها يذكر في المجتمع إلا لدى فئات قلائل . وحتى هؤلاء كثيراً ما تتغلب عليهم الانانية فاذا هم أعداء للثقافة ذاتها ، إذا ما خرجت عن دائرتهم . فاقتصارها عليهم ومعاداتهم لها اذا ما افلتت إلى غيرهم لدليل على أزمة ثقافية بلغت طور الانحدار. ذلك الطور الذي دفع بأغلبية المثقفين الى الماديات وانصرافهم اليها دون الروحانيات (تكثر المراجع لهذا الفصل لاعلام الثقافة منهم Spengler, Childs, Todd, Davies وغيرهم

﴿ الاتجاه الخفي في المدنية الغربية ﴾ وبحق القول بأن هؤلاء الاعلام الذين أبانوا عن مفاسد المدنية الغربية انما كانوا في عملهم شبه ثائرين على ناحية من نواحي الاستسلام لنظام تؤيده الانانية والاثرة في جميع اشكالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . على ان الواقعيين يرون أن التطورات التي لازمت المجتمع منذ عشرات السنين كان يتخللها نزعات ترمي الى مثل عليا لا تطيقها مدنيتنا الفردية . ويقول كارل ماركس في كتابه رأس المال « ان النظام الرأسمالي نفسه يعمل في غير وعي على تهيئة الطريق للاشتراكية ، وذلك بوضع المئات والالوف من العمال في مصنع واحد يعملون فيه بطريقة تجمعية » وليس غريباً ان يلقى ماركس في رأيه هذا تأييداً من « أسفالد اشبنجلر » فقد ذكر الاخير في كتاب «سقوط الغرب» ما نصه : «نحن جميعاً اشتراكيون علمنا بذلك او جهلناه ، رضينا به او لم نرض . وحتى مقاومة الاشتراكية تحمل طابع الاشتراكية . والرجل القدري يتقبل الحياة كما هي ، ولكن الاشتراكي يريد تنظيم الحياة وتبديلها شكلاً ومعدناً ليملأها من نفس روحه . والقدري يساير . اما الاشتراكي فيأمر . ويود الاشتراكي لو ان جميع العالم يتسم بطابعه وتفكيره» . ويذهب كارل رادك الى ان التفضل في مدنيتنا الغربية نحو العمل التجمعي أبعد غوراً من كل هذا ، اذ يقول: «ان العلامة الاوربي حين يعمل في مختبره المنعزل عن العالم او يدرس منفرداً في مكتبه لا يفكر كثيراً في الحقيقة الثابتة وهي انه يعمل ويدرس بوسائل وادوات قدمها له من سبقه ، بل هو يسير في بحثه وتفكيره وفق أسس أعجزها له المجتمع جملة . وان الافكار التي تزيد الثروة العلمية هي تاج خلق تجمعي تعاونت فيه الاجيال السابقة . واكثر الناس نسياناً لهذه الحقائق هم اولئك الكتاب الذين يزعمون بانهم يكتبون بمحض وحيهم ويبرزون اكتشافهم استبصاراً حيثما يسمون بفكرة « الثقافة التجمعية » . ولكن لا سبيل الى الرقي والتقدم نحو مستوى علمي أرفع بغير ثقافة تجمعية »

﴿ مدينة المستقبل ﴾ ان جاز لنا ان نستخلص كلمة جامعة لكل ما تقدم بحثه فلعلها لا تكون سوى « ان المدينة الغربية لم تعد تلائم روح العصر الذي نعيش فيه » . ولا عجب ان أحس الناس بذلك وعبروا عنهُ بالعمل لا بالقول . فها هي الثقة بالمدينة الغربية تنتزع من النفوس ويتلاشى شيئاً فشيئاً الايمان بمحبوبيتها ومقدرتها على خدمة الانسانية . ويعتقد المفكرون في صدق رأي أشبنجلر القائل بانهُ « لا القوانين التي يقدمها لنا المشرعون ، ولا الاحكام التي تصدرها المحاكم ، ولا القرارات التي تسجلها الحكومات ، ولا البلاغات التي تنشرها الوزارات ، ولا النشرات التي تذيعها الهيئات عامة أو مؤخرة ولو ساعة واحدة سقوط مدينة ما ، ان المدنيات تنهار من الداخل » . ولست اعرف معبراً عن مشكلة الانسانية اصدق من ذلك الفلاح الروسي المجهول حينما قال لماكسيم جوركي Maxim Gorki بعد ان استمع له مشيداً بذكر مزايا الآلات وحاثاً اياهُ على الاخذ بها في الزراعة وغيرها : « نحن نعلم كيف نسبح في الجو كالطيور وفوق في البحر كالاسماك ، ولكننا لم نعرف بعد كيف نعيش على الارض » . ولعلَّ اسمى ما في هذه الجملة الصدق الذي اوحى به عمق التفكير السليم وهذا الصدق ولا شيء سواه هو سرُّ « المدينة النجمية » . ولن يكون الناس صادقين حتى يكونوا انسانيين منزهين بكل ما في معنى الانسانية من نبل . واول هذه المعاني التفاني في خدمة المجموع . ولهذا تعتمد المدينة النجمية على جهود الناس مجتمعة لا جهود الافراد متفرقة . وفي ذلك يقول ماركس في كتابه رأس المال « ان العمل الموحد هو اول شرط لتحرر العمال . وهو اي العمل الموحد يلاشي استغلال الفرد للفرد كما يلاشي استغلال الشعب للشعب الآخر . وكما قامت المنازعات بين طبقات الشعب الواحد كان في ذلك استمامه بين الشعوب المختلفة » . وبديهي ان لا يتم هذا العمل التجمعي الموحد حتى يتناول التنظيم المحكم كل مناحي الحياة . ولهذا كان من أهم الخطوات « تنظيم العلوم وتنسيقها حتى تتجه جميعاً نحو غرض واحد هو خدمة المجتمع لينتفع بها الى اقصى حد مستطاع » . ولقد عقد ذلك ثورة في العلوم جاءت عقب الثورات الصناعية والزراعية والاجتماعية . ويرى امثال البحاثة « هولدين » ان المدينة النجمية لا شك سالكة طريقها . فهو يقول في بحثه « وجهة النظر الطبية » انهُ لمن الخبل في الرأي ان يظن بان الاسباب التي ادت الى ثورة في الصناعة والزراعة والحرب والطب لا تأتي بنفس النتيجة حالما تتطرق الى العائلة او الامة او الجنس البشري اطلاقاً »

ويحضرني في ختام هذا البحث كلمة الفيلسوف « هيجل » Hegel وهي « اننا عرفنا من التاريخ أن الانسان لم يتعلم ولم يتعظ بالتاريخ » ولو أن « هيجل » كان اليوم حيًّا لرأى أن الناس قد تعلموا من التاريخ واتعظوا به . وها قد جاء دور عملهم فوضعوا اسس مدينة مستقبلة ليس فيها أخطاء المدنيات السابقة

حديقة المقتطف

الطريقان

لورنس فو

نقلها أمين الريحاني

حلم افلاطون

لفولتير

نقلها اسماعيل مظهر

موعد

للشاعر الفرنسي سولي برودوم

نقلها خليل هنداوي

المستر جون نيتل

John Knittel

مؤلف رواية « الدكتور ابراهيم » وهي قصة
مصرية ننشرمنها فصلاً قيماً في عدد المقتطف
القادم (اول مارس ١٩٣٦)

الطريقان

لو منغ فو

هذه القصيدة هي للشاعر الصيني وو منغ فو Wu Ming Fu وقد وصلت الى الغرب في حلة انكليزية ، واستمرت في الساحة عائدة الى الشرق فوصلت الى القريحة بلبنان ، فألبستها حلة عربية لا أغالي بجودة صنعها اذا الروح محفوظة ، ومن محاسنها الحكمة والذوق السليم في شيء من التصوف . على ان كل قصيدة هي معرضة في النقل للتغير . ويودني لو ان أحد المستشرقين يعيد هذه القصيدة من العربية الى لغة وطنها الاول ، ويقابلها بالأصل الصيني ، ليظهر ما قد يكون أصابها من خير او شر أي التجوان

امين الريحاني

ما الفضاء ، وما الزمان ؟

هما الطريقان ، الروح المتجسدة في الانسان ،

تسير فيهما ما جَدَّ الجديدان.

ولا يُخامرنَّ قلبك اننا واصلون في السير الى المنتهى من الزمان والفضاء .

إنما نحن سائرون ، وللسير البقاء ،

وليومنا ومكاننا منه حيِّز الاستواء .

فيما تقدم من الزمان ، فلا مزيد في الآجل ولا نقصان .

إنَّ الساعة التي نحن فيها لَحَدُّ الاتصاف ،

وان شطري الابدية وراءنا وامامنا على الدوام .

ومهما أمسنا في رحاب الفضاء ، فليس يُرجى انتهاء .

ان المكان الذي فيه الحياة ، هو النقطة المركزية من الكائنات .

لَعِمَتِ السكنى اذن في هذه الساعة وهذا المكان .

لهدأ البال منك ، ولَيَطمئن الجنان .

فأينما أقمنا عمود البيت ، هناك وسط الفضاء ، وهناك قلب الزمان .

كذلك كان ، وكذلك يكون ، في هذه الحياة ، وفي كل آية بعدها .

هي سنة الاكوان ، وفيها تمثل الحكمة والحنان ، رأفةً بالانسان ،

فتشربه الروعة الخفيَّة ، وتقيه هول اللانهاية والابديَّة .

عن فم الدهر

حلم أفلاطون

كان افلاطون، على غرار غيره من الناس الذين اتوا من بعده، من كبار الحالمين، حتى لقد حلم ذات يوم ان النوع البشري كان شقًّا واحداً، ولما اقترف من آثام، عوقب بان شطر شقين: شق الذكر، وشق الأنثى

كذلك حاول أن يبرهن أن العوالم الكاملة لن تكون اكثر من خمسة، بدليل انهُ لا يوجد الاَّ خمسة اشكال هندسية منتظمة. ولاشك في أن جمهوريته التي صورها، ليست الاَّ حُلْماً من تلك الاحلام التي كانت تساوره. ناهيك بانهُ حلم أن اليقظة تنشأ عن النوم، وان النوم ينشأ عن اليقظة، وان الشخص الذي ينظر في الشمس حال كسوفها، ولا ينظر بعد ذلك في جرة ماء، يفقد قوة إبصاره. ذلك بان الاحلام كانت رائجة السوق في تلك الايام

***

واليك قصة حلم من أحلامه الرائعة، لا تخلو من لذة وفائدة

فقد رأى فيما يرى النائم ان «ديموجورجوس»، المهندس الابدي الاعظم، بعد أن ملأ فراغ الكون بعدد عظيم من الكرات لا عَدَّ يحصيه، حاول ان يمتحن معرفة الباقرة الذين شهدوا أعماله. فأعطى كلاً منهم قطعة من الصلصال ليجبل منها شكلاً يتصوره، شأن فدياس أو زيوكسيز اذ كان يعطي احدهما تلميذاً من تلاميذه حجراً ليبدع منهُ تمثالاً، أو لوحاً يخلق فيهِ صورة. هذا اذا جاز لنا ان نقيس الاعمال العلوية، على الأعمال السفلية

فخرج من نصيب أحدهم ويدعى «ديموجورجون» مقدار من الطين اللازم والثرى المتطاير، هو الآن كرة الارض، فبعد ان جبلها افرغها في الصورة التي تلابسها الآن، ظن انهُ اخرج قطعة من الفن لا تبارى، ومضى مزهوًّا حتى لقد

زُيِّنَ لهُ أنهُ هزم « الحد » وقهره ، وتخيل انهُ سوف ينال اسمى التشاريف ، ويخص بأعظم التكاريم، حتى من العاقرة أقرانه : غير أن دهشته كانت عظيمة لمَّا قوبل بعد ان ظهر بينهم لاول مرة بعد اتمام عمله العظيم ، بهزة كتف او غمزة احتقار او همس غير مستبان المعنى

***

وكان من زملائه زميل هجاء ذرب اللسان فخاطبه قائلاً :

« لا شك في انك انجزت اعمالاً عظيمةً باهرة منها انك قسمت هالتك التي جلت قسمين ؟ ومن أجل أن تجعل اتصال أحدهما بالآخر متعذراً ، فصلت بينهما بمقادير مروّعة من المياه جعلت نصف الكرة يعزل عن نصفها الآخر . ومنها ان أهل كرتك لا شك يستحجرون برداً في زمهرير قطبيك ، ويشوون شيًّا في رمضاء خطك الاستوائي . ومن بعد نظرك وسمو فكرك ، انك صنعت صحاري شاسعة الارجاء قد يموت كل من يحاول اجتيازها جوعاً وعطشاً . ولا انتقاد لي على ابتكارك وغشك وديوكك ودجاجاتك . ولكني لن أغفر لك فكرتك في جبل الجبال والمناكب . ولا اعتراض لي على أبطالك وخرشوفك ، فانها من الاشياء التي بلغت منتهى الجودة ولكني لم ادرك السبب الذي حملك على ان تنثر من فوق الارض ، ذلك العدد العظيم من النباتات السامة ما لم تكن قد رميت الى تسميم أهلها جملة او اقساطاً . وأنشأت فوق ذلك ، اذا لم اكن مخطئاً ، اكثر من ثلاثين جنساً من القردة والسعادين ، وعدداً اعظم من اجناس الكلاب ، واقتصرت على أربع سلالات بشرية أو خمس ، ولا أنكر أنك أضفيت على هذه السلالات شرف الاختصاص بصفة « العقل » ولكني أرى انك أضفيت عليهم من تلك الصفة قدراً جعلها سخرية وهزءا ، لان الفارق بين ما أضفيت عليهم منها ، وبين الحرق والجنون ، لا يكاد يُرَى . ويخيل اليَّ فوق ذلك انك لم تهتم بشأن هذا المخلوق الثاني الرجلين ، فقد تركته ضعيف السلاح قليل العدة في الدفاع والهجوم . بل جعلته عرضة للكثير من الارتباكات الفريدة والادواء العصية . في حين انك لم تهيئه الاَّ بعدد قليل من ضروب الدواء . أضف

الى هذا انك كوّنته مزوّداً بعدد عظيم من الشهوات الجامحة ، ولم تبثّ فيه إلاّ قدراً ضئيلاً جداً من الحكمة والتبصر فعجز عن كبحها وقمعها . والمحقق انك لم ترم الى إبقاء عدد عظيم من افراد هذا المخلوق دفعة واحدة ، وفي وقت واحد ، من فوق الارض . فني حين انك لم تقدر الأخطار الماحقة التي عرضته لها ، نظمت حالات الدنيا بحيث ترميه كل يوم ، وعلى مدار السنين ، بكوارث عظمى ، كداء الجدري الذي يحمل إلى القبور عُشْرَ عدد هذا الحيوان كل عام ، بيد أن الادواء الاخرى تنضب معين الحياة من تسعة الاعشار الاخرى

ويلوح لي أنك لم تكتف بذلك . فنظمت الأمور بحيث فرضت على نصف العدد الذي يبقى منه بعد ذلك ، أن ينفقوا أعمارهم بين جدران الحاكم ، ان لم يشغل كل منهم نفسه بحزّ رقبة أخيه »

« والآن نقرّ بدون ريب أنهم مدينون لك ديناً لا يَتَبدّلُهُ الشكران الأبدي ولا يسعنا إلاّ ان نعترف بانك اتممت عملاً معدوم النظير ، فاقِدَ المثال » . . . .

***

فَتَلَت وجه « دكتور جورجون » حمرة الخجل عند سماع هذا المديح ، غير انه على الرغم من علمه بانه في عمله نقضاً من الناحيتين الادبية والطبيعية ، مضى يؤكد ان فيه من الخير اكثر مما فيه من الشر — ثم قال :

« إن من الهين ان يجد الانسان خطأً في عمل غيره ايها الاخوان . ولكن . . . . أترون انه من السهل الهين خلق حيوان خص بالعقل وحرية الاختيار ، لا يسيء استعمال حريته احياناً ؟ اتظنون انه من البسائط خلق تسعة آلاف او عشرة آلاف صنف من النباتات المختلفة ، من غير ان يكون بعضها سامّاً او فيه صفات رديئة ؟ أم يخيل اليكم ان من المستطاع ان يجعل عبقريٌ كرة اصلها من ماء ورمل وطين ، من غير ان يكون فيها بحار وصحاري » ؟

« أما أنت ايها الزميل المستهزىء بعملي ، فأظن انك فرغت من جبل المشترى فلتنظر اذن في الغرض الذي من اجله صنعت تلك المناطق العظيمة التي تطوقه ،

وليالي الطويلة المملة ، وأقماره الصغيرة التي خيل اليك انها كافية لان تطرد حالك ظلامه . لتنظر في عوالمك التي جبلت ، فترى هل استطعت أن تجعل اهلها آمنين من الامراض ، محصنين من النقائص »

ومضى المبقري يفحص عن حالات المشترى . ولم يكد يفصل حتى تمالك الضحكات موجهة الى عمل من كان يهزأ به من قبل . ولم يفلت المبقري الذي جبل زحل عن ان يناله مثل ما نال صاحبيه ، بل انه قد خص بنصيب غير قليل من السخرية ، وقدر كبير من الامتهان . وكان نصيب اخوانه جابلي المريخ وعطارد والزهرة على الاخص مقذعاً مؤلماً

***

في هذا الشأن كتبت مجلدات ضخام ، ونشرت رسائل شتيتة . وراج سوق القول والكلام ، فكم من كلمات جامحة أُثرت ، وكم من اقوال حكيمة قيلت . وكثر التراشق بسهام القول واتخذت السخرية سلاحاً للانتصار في معركة الكلام . ومضت المعركة القلمية بتسرة اللظى مشبوبة النيران زماناً بين الاحزاب المختلفة ، ولم يصمت المتثابذون الا بعد ان تدخل « ديمرجوس » الابدي في الامر ، فأذعنوا صامتين يستمعون الى كلماته الآتية : « ان في اعمالكم لأوجهاً من الخير والشر معاً ، لانكم ان كنتم قد خصصتم بقدر كبير من قوة الفهم ، فانكم لم تخصوا بالقدرة على بلوغ الكمال . وان ما صنعتم من نظام لن يُغَيَّر اكثر من مائة مليون من السنين ، تكونون في خلالها قد حزتم قدراً اكبر من المعرفة ، وقسطاً اعظم من الفهم ، فتبرزون اعمالاً اتقن وأبقى . وانا وحدي القادر على خلق اشياء كاملة خالدة »

***

هذه هي الحكمة التي كان يلقيها أفلاطون تلاميذه . فلما فرغ من كلامه صاح أحدهم قائلاً :

« هنا اخذتك اليقظة ، وفارقك الحلم اللذيذ »

| نقلها اسماعيل مظهر |

موعد

للشاعر الفرنسي « سولي برودوم »

يعد « سولي برودوم » بحق الشاعر الفرنسي رأس المدرسة البرناسية التي تؤمن بالفن للفن وتتفهم الجمال للجمال ، ولكن « سولي برودوم » شاعر لم يقو فنه على قتل عاطفته ، ولم يقتدر خياله على قتل قلبه . فهو مزيج من تلك العاطفة الهادئة وذلك الفن الجميل والغاية العميقة لانه استطاع ان يؤلف بين الفلسفة والشعر تأليفاً هادئاً لا يطغى عليه اضطراب العاطفة ولا ثورة الاحساس ومقطوعة « موعد » المنتخبة من ديوانه « الحنان الضائع » تمثل فنه ومذهب هذه المدرسة في تفهم الجمال والفن والتعبير عنها

(خ . ه)

في هذا الموطن الثاني حيث نحن الآن وحدنا ،
ما احلى الذهول عن الناس مهما كانوا دانين منا !
اذا اردنا ان نغنم الساعة الهاربة ونتذوق لذاتها ،
فلا نعدو وراء سعادة ذات صخب ولجب ،
لنتناج بخفوت ، ولنحذر من ان تمر من ايدينا بكلمة او بنفس او بحركة ،
ولنمسك بها ان تضيع لحظة واحدة لانها سعادة معاوية .

اذا اردنا ان نتذوق شهدها ونصون عهدها
فليلق أحدنا الثاني دون ان نهمس شيئاً .
ولننشد هذه الراحة البريئة التي ينعم بها ساكنو هذه النحود الدائرة ،
ذوو العيون الناظرة ، الذين هدأت اجسادهم صامتة بعيدة عن ارواحها الطائرة .
يصل بيننا رابطة اسمى من روابط الارض .
ولنهجع بعدئذ مثل هؤلاء الهاجعين ، نضم جنباً الى جنب ، وقلباً الى قلب .

لانا لا يضرم جوانحنا حب غض ملتهب تخمد ناره وشيكاً ،
وقلبانا غنيان لا يفتقران الى قبل تزيدهما ائتلافاً .

لا تقسي لي بأني أحبك !
ولا تقصي عليّ كيف نشأ هذا الحب ودرج ؟
لنذق سعادته ولنرشف هناءته بغير عهود ولا اقسام .
ولتهل — فيما تريه علينا دموعنا الصامتة — ذلك الحنان الذي يجعل من الشقاء الهاً .

في هذه السكينة الدائمة تفنى الرغبات اللذيذة ،
والنفس تشرد حالمة بالحب كما تحلم بالموت .
وكأنما دنت نهاية الوجود ، .
وكأن الوجود يسقط سقوطاً خفيفاً عميقاً ثم يشمله الظلام
وأثقاله المضنية تخف بالفرار المطلق من كل شيء ،
والذاكرة الطافحة تفرغ وتمحي كذوب الثلج ،
والحياة الملتهبة المكتئبة يخيل الينا انها تفنى ويبيد كل شيء حولنا ،
ولا يبقى قائماً الا الحب . . . الحب وحده .

لتطلب الحب بسلام ،
فالليل لا يزال مدلهماً ونور المصباح ضئيل يُحتضر ،
ألا تظنين اننا دخلنا القبر ؟
لنهو في اعماق البحار القاتمة ،
ولنتفان بين ظلماتها المتراكمة .

نحن الآن معاً تحت التراب ،
ألسنا تحته من زمن قديم ؟
فلنسمع في الاعالي التراب الذي يهتز تحت وطء الاقدام !
ولننظر في الآفاق تلك الاسراب السود ، وقد جذب الشمال بأزمتها ،
تلك ليالي الماضي تمر لا يحصيها حساب .
ولننظر في الاجواء ، تلك الرفوف البيض ذاهبة بصفاوة ايامنا الغابرة من
غير اياب .

ولكن — في خارج هذا المحيط الذي تحمل شدته وقسوته —
ما اجمل هذه اليقظة التي يتوثب بها قلبانا !
أنا لا ادري ما هو الحادث الذي اعمى عيوننا ،
ولا ادرك عمر انذهالنا في هذه السماوات ،
فان حوادث الحياة الماضية قد ذهبت بذاكرتي الى الابد ،
ولكنني اذكر — والذكرى بعيدة — انني كنت احبك .

ألا أيّ شيء هيأ لنا هذا المضجع ؟
وأي قران ضم يدي الى يدك ضماً ازليًّا ؟

ولكن ما عمنا يا محبوبتي ؟
فلترقد طي اكفاننا الرقيقة ،
لترقد للخلود السعيد وحدنا

[تقلها خيل هنداوي]

اوطعمة التي نأكلها

ولماذا نأكلها

في الاقوال المأثورة في اللغات الاعجمية قول مشهور مؤداه « قل لي ماذا تأكل وأنا اقول لك من أنت » . وقد عمد احد الكتاب الطبيين والمحدثين الى هذا القول وعدّله وفقاً لاتجاهات البحث العلمي الحديث في الغذاء فقال : « قل لي ماذا تأكل وأنا اقول لك ما عمرك »

بل ان هذا الكاتب يذهب الى ان عمر الانسان يمكن تقسيمه الى فترات كل فترة لها غذاء خاص . فالفترة الاولى عند ما يكون الانسان وليداً يقتصر الغذاء على اللبن الحليب . والثانية على الخبز واللبن . والثالثة على اللبن والبيض والاسباغ . وهكذا كلما تقدم الانسان في السن زادت المواد الغذائية التي يتناولها من لحوم وخضراوات وحلويات على اختلاف اصنافها . ثم اذا درج الى الشيخوخة عاد في غذائه الى بساطة الغذاء الذي يتناوله الطفل فيعتمد على البيض المسلوق سلقاً خفيفاً والخبز المحمر واللبن

لمحة تاريخية

والواقع ان ما نعرفه عن الاغذية المختلفة وفوائدها قد تطور تطوراً عظيماً بتأثير التجارب المختلفة التي قام بها الباحثون في كيمياء الاطعمة وتأثيرها الغذائي

فالطبيب اليوناني ابقراط الملقب بابي الطب — كما يلقب هيرودتوس بابي التاريخ — عاش ما بين السنة ٤٦٠ و ٣٧٠ قبل التاريخ الميلادي وكان يعتقد ان هناك ضروباً مختلفة من الاغذية. ولكن المادة الغذائية فيها جميعاً انما هي واحدة . وظل هذا الاعتقاد سائداً حتى مطلع القرن التاسع عشر . ففي سنة ١٨١٣ كان العالم الفسيولوجي الفرنسي ريشران لا يزال متمسكاً بنفس هذا الرأي . وبعده بعشرين سنة اي سنة ١٨٣٣ اي من نحو مائة سنة فقط نشر العالم بومون كتابه عن « الهضم » واشار فيه الى القيمة الغذائية في الاطعمة المختلفة باسم واحد منهم يمكن ترجمته بلفظ « الغذاء »

وبعده بسنة واحدة فقط قام العالم الانكليزي الطبيب وليم بروت وقال ان في الاطعمة المختلفة ثلاث مواد اساسية مغذية وان تناولها جميعاً ضروري لا ندحة عنه للتغذية التامة . واطلق على هذه المواد الثلاثة اسماء لاتينية معناها الزلاليات كياض البيض والدهنيات مثل الزيوت والادهان المختلفة والسكريات او النشويات

وجاء بعده العالم الكيماوي الالماني جوستوس فون ليبغ فبين ان الادهان والمواد النشوية او السكرية تستعمل في الجسم لتوليد الحرارة والطاقة حالة ان المواد الزلالية او البروتينية كما تعرف في بعض الاحيان يستعملها الجسم لبناء النسج المختلفة

مواد التغذية الاساسية

فلما ارتقى علم الكيمياء بوّبت الاطعمة المختلفة وفقاً لما تحتوي عليه من هذه المواد الغذائية الثلاث . ولكن البحث والتجربة اثبتا انه في الامكان ان تصنع غذاء من مواد دهنية وزلالية ونشوية فيجهز الجسم بما يحتاج اليه من الطاقة اي الحرارة والمواد اللازمة لبناء النسج ومع ذلك يبقى هذا الغذاء غير واف . اي يظل ناقصاً شيئاً او اشياء اساسية لم يعرف اولاً ما هو او ما هي

فاستنبطت لذلك طريقة جديدة للبحث في الطعام وما يجب ان يتوافر فيه لكي يكون غذاء كافياً للجسم . وهذه الطريقة هي طريقة تجربة التجارب بالحيوانات وفي مقدمة هذه الحيوانات الجرذان والفئران والارانب والاراتب الهندية او ما يعرف بخنازير الهند

هذه الطريقة الجديدة من البحث اثبتت او افضت الى مكتشفات ثلاثة على جانب كبير من الخطر

كان علماء الكيمياء وعلماء التغذية قبل استعمال هذه الطريقة يعتقدون ان المواد الزلالية او البروتينية لها قيمة غذائية واحدة لا تختلف باختلاف مصدر المادة الزلالية وسواء اكان مصدرها من النبات ام من الحيوان

الحاجة الى احماض معينة

ولكن البحث اثبت ان بعض المواد الزلالية يفوق البعض الآخر في قيمته الغذائية ثم ظهر ان المواد الزلالية التي تتوافر فيها القيمة الغذائية تحتوي على مركبات تعرف باسم الاحماض الامينية Amino-Acids وان هذه الاحماض هي الفعالة في بناء نسج الجسم . وان المواد الزلالية التي لا قيمة كبيرة لها من ناحية التغذية لا تحتوي على هذه الاحماض او هي تحتوي على مقدار صغير منها

فالتطبيق العملي الاول لهذا الاكتشاف هو ان بروتينات الحيوان اعلى قيمة غذائية من بروتينات النبات وان الام الحكيمة ترتب غذاء صغارها على وجه يمكنهم من الحصول على هذه الاحماض الامينية اللازمة لبناء الخلل مثلاً وغيره من نسج الجسم . وهذا يستطاع باضافة الخضروات واللبن والبيض واللحم الى الاطعمة التي تولد الحرارة كالخبز والزبدة

الحاجة الى املاح معينة

وكان الاكتشاف الثاني الذي نشأ من تجربة تجارب التغذية بالحيوانات ، خاصًّا بما يحتاج اليه الجسم من الاملاح المعدنية

كان الاطباء يعلمون بوجه عام ان الجسم النامي ، حتى وجسم المتقدم في العمر يحتاج الى املاح معدنية ، ليبني عظاماً قوية ودماً كامل التركيب وغيرها من نسج الجسم المختلفة وتحفظها في حالة سليمة . ولكنهم كانوا يحسبون ان الانسان لا يحتاج الى توجيه العناية الى هذه الناحية بوجه خاص ، وان الطبيعة تجهزنا بهذه الاملاح في الاطعمة العادية التي نأكلها اذا كانت تحتوي هذه الاطعمة على العناصر والمواد الاساسية وهي النشويات والادهان والزلاليات

ولكن تجربة التجارب بالحيوانات اثبتت ان بعض الاطعمة التي نعتمد عليها اعتماداً يوميًّا في غذائنا تعوزها املاح معدنية اي املاح غير عضوية

وهذا النوع من البحث افضى كذلك الى زيادة ما نعرفه عن حاجة الجسم الى مقادير يسيرة جدًّا من العناصر مثل الكلسيوم (الجير) والفصفور والمغنيزيوم والصوديوم والحديد والكلور بل مما يبعث على الدهشة والاستغراب ان يكون الجسم في حاجة الى مقادير يسيرة جدًّا من عناصر اخرى مثل النحاس واليود والمنغنيس والزنك ليبقى في حالة صحية

ومما يظهر مثلاً ان حاجة الجسم الى النحاس انما هي لكي يستعمل النحاس في تمثيل الحديد الذي يتناوله ليبني منه كريات الدم الاحمر

ولا يبعد ان يثبت بعد موالاة البحث ان لكل عنصر من هذه العناصر وظيفة خاصة في بناء جزء من اجزاء الجسم ولو كانت المقادير التي نحتاج اليها من كل منها يسيرة جدًّا

اللبن غذاء كامل

ولا يصلح ان نمر بموضوع العناصر والاملاح من دون ان نقول ان اللبن مع احتوائه على المادة الزلالية (البروتينية) والدهنية يحتوي كذلك على مزيج عجيب من العناصر والاملاح المعدنية وهذه تجعله افضل غذاء واحد تمدنا به الطبيعة . فمنه يأخذ الجسم معظم ما يحتاج اليه من الكلسيوم (الجير) مثلاً . والنباتات الورقة تجهزنا بما نحتاج اليه من الحديد . فشرب اللبن وأكل الخضروات الورقة كافيان في الحالات العادية لتجهيز الجسم بما يحتاج اليه من هذا القبيل

ولا يفوتنا ايضاً ذكر مقدار الاطعمة الجامدة التي يأكلها الولد خصوصاً في العشاء . فان كثيرين من الاولاد يتركون وشأنهم فيفرطون ويأكلون فوق الشبع فيقتضي تجنب جميع الاسباب المساعدة على تهيج جهازهم العصبي . كما أنه يستحسن تنويم الولد باكراً وتحاشي كل ما من شأنه تكدير خاطره او تهييج اعصابه قبل نومه ومنه خصوصاً من مطالعة الكتب والروايات التي تحتوي على مناظر ورسوم مخيفة وكذلك حضور السينما والسهر الطويل وسماع الوقائع

***

أما غرفة الولد فيجب أن تكون تهويتها جيدة بحيث لا تزيد درجة حرارتها على ٦٠ بمقياس فنكنهايت وقبيل النوم قليلاً يعطى الولد فنجاناً من منقوع اوراق شجر البرتقال او الزيزفون وعند الحاجة يضع نقط من حشيشة الهر أو بالاحرى قرصاً واحداً من حشيشة الهر وحشيشة الديتار معاً وذلك قبل الطعام بساعة واحدة . وقرصاً آخر ساعة نومه . واذا لم تكف هذه الوسائط فيمكن اعطاء البروموز . وعلى كل حال يجب الوقوف على رأي الطبيب من اول الامر والعمل بارشاداته

الدكتور عبده رزق

تغيير أخلاق الناس

بالحقن او بوصفة كيمائية

مركز الشهوات والعواطف في الجسم

تلخص المقالة التالية لطبيب انكليزي قال :

اذاع طبيب مشهور ان مركز الشهوات في الجسم هو ما يسمى « دايتسيفالون » وسأبسطه لك قليلاً هنا

قبلما يولد الانسان بثمانية اشهر يكون الجهاز العصبي انبوبة من النسيج العصبي مسدودة من الطرفين . وكلما نما الجنين ينبت من احد طرفي الانبوبة ثلاثة رؤوس مدببة يتألف منها الدماغ فيما بعد بأجزائه الثلاثة المقدم والمتوسط والمؤخر ويتألف من بقية الانبوبة الحبل الشوكي

ولكل من هذه الاجزاء وظيفة فأهم وظائف مؤخر الدماغ التحكم في القلب والمعدة والرئتين ووظيفة الاوسط التحكم في حاستي البصر والسمع

واما مقدم الدماغ وهو اهم اجزائه ففي زاويتيه الامامتين برعومان فارغان يتفرعان كشجرة

حتى يفوق في حجمها سائر الدماغ مجتمعاً . ووظيفتها التفكير والتحكم في الغضلات . وفي مؤخرها الدايسيفالون المذكور آنفاً وهو مركز الشهوات والعواطف كما تقدم القول

عرف ذلك السر ولتر لنجدون براون الذي استعفى اخيراً من منصب استاذ الطبيعيات في جامعة كيمبردج . فقد قص في محاضرة اخيرة في جامعة لندن قصة بنت عمرها عشر سنوات كانت ذات مزاج غريب منذ ولادتها ووجه غرابته انها لم تكن تظهر في اعمالها شيئاً من السرور او الخوف او الانفعال اي انها كانت فاقدة لهذه العواطف . ثم مرضت واشتد بها الخطر فلما عرفت انها ماتت قالت بلا خوف ولا مبالاة « شيء لا بدَّ منه »

وشرحت جثتها بعد موتها فوجد دمل في «الدايسيفالون» . وهذا الدمل او الخراج هو سبب فقدها للعواطف المذكورة. ووجد مثل هذا المرض في هذا الموضع من الدماغ من اشخاص كانوا عرضة للغضب احياناً وللخوف اخرى وللاندفاع الى البكاء في اونة غيرها

فاذا عرفنا كيف يتحكم هذا العضو الصغير في العواطف فقد يساعدنا ذلك على تكييف المزاج الانساني والحيلولة دون الجنون وضعف القوى العصبية

والظاهر انهم اهتدوا الى شيء مثل هذا في الغدة النخية المتصلة بالعضو المذكور . فهذه الغدة صغيرة جداً لا يزيد ثقلها على نصف قمحة ولكن مباحث الباحثين فيها تدل على انها مفتاح مجموعة مهمة من الغدد الموزعة في الجسم معروفة باسم الاندوكرين او الغدد الصم

ولهذه الغدة فعلان في تلك الغدد الواحد التهيج والثاني التخفيف . فني البغضاء او الاعتداء تهيج الغدد الكظوية (الادرينالية) التي فوق الكليتين

وفي الخوف تهيج الغدة الدرقية التي مركزها في العنق وفي الحب تهيج وتفاعل الغدد الصم جميعها

ولطالما خطر للعلماء امكان تغيير الامزجة والاخلاق بتغيير عمل هذه الغدد وقوتها وتحدثوا عن مجيء الزمان الذي يمكن فيه تغيير اخلاق انسان ما بحقنة بالمادة الكيمائية الفعالة التي في هذه الغدد فيصبح في الامكان تغيير الاخلاق بوصفة طبية

***

ونحن نعلم ان هناك عقاقير تزيل الخوف والهم بفعلها في العضو المذكور ولكن لها لسوء الحظ تأثيراً آخر ضاراً . وليس ببعيد ان تتمكن يوماً من تحضير حبوب تصفها لشديدي الخوف والهم . او من عمل عملية جراحية لهم اذا لم تنفعهم الحبوب . ولعل ازالة الخوف والتغلب على الهم يكونان مؤذنين بارتقاء الانسان الى درجة السوبرمان اذا كان ذلك مما قدر له

كلمة في ذات الرئة

بقلم طبيب في الدايلي اكسبرس

وقف الملك امام قبر الجندي المجهول يوم عيد الهدنة سنة ١٩٢٨ وبقي بعد تلك الوقفة ثلاثة اشهر بين الحياة والموت . ووقف الاميرال اللورد جليكو على قبر الجندي المجهول يوم عيد الهدنة سنة ١٩٣٥ فمات بعد تلك الوقفة بعشرة ايام وكانت وفاته بذات الرئة (النومونيا)

فلماذا ادى الوقوف دقائق معدودات في يوم بارد على قبر الجندي المجهول الى الخطر في الحالة الاولى والى الموت في الثانية . وقد عرف عن الملك انه وقف ساعات للصيد في ايام لا يقل بردها عن يوم عيد الهدنة وبملابس اخف مما لبس في عيد الهدنة ولم يصب بأذى . وكم وقفة وقفها اللورد جليكو على ظهر بوارجه والبحر عجاج متلاطم الامواج والريح صرصر عاتية فلم ينله اقل ضرر

يذهب بعض الاطباء ان ثوران العواطف في امر ما يجعله اكثر استهدافاً للمرض من اي سبب آخر واحد وأضعف مما يكون عادة لمقاومة جراثيم المرض وهذا هو فعل العواطف جميعاً لا الحزن وحده . فالرجل ذو الهمّ والغلام المذعور اكثر قبولاً للمرض مما يكونان عادة اي عند خلوهما من الهم او الخوف

ومن رأي بعض الاطباء والمعاصرين ان الناس يصابون بالزكام عند خروجهم من السينما لا لانهم يخرجون من ردهة دافئة الى هواء بارد — فالناس يخرجون من الحار الى البارد كل يوم وليكن لان عواطفهم تكون ثائرة من افعال عصابة لصوص على شاشة السينما او مايرون من الجرائم ترتكب امام اعينهم ومن الخاطر والاهوال فتضعف مقاومتهم الطبيعية

ومن حقائق الفسيولوجيا الحديثة ان العواطف توقع الخلل والاضطراب في وظائف الجسم وعملها . ونحن نعلم ان الغضب يملأ الدم بالادرينالين المفرز من غدده

السبب ظاهر : ذلك انه اذا كانت عواطفك ثائرة فان رد الفعل الطبيعي في جسمك يسرع عمله فيزيد احتراق الاكسجين فيه فترتفع حرارتك ويسرع تنفسك وتزداد خفقان قلبك وضغط دمك . فيتقلص لونك لتخفيف ضغط الدم ويحمر وجهك محاولة تخفيض الحرارة . ويبطل افراز الغدد التي في فمك فيجف لسانك وتتسع حدقتا عينيك وتجرطب كفاك

وحالما يهدأ ثوران العواطف يرتخي الجسم ليستعيد ما استنفد من الطاقة ويبطىء عمل جميع الوظائف بعد إسراعها . وفي هذه الحالة من بطء رد الفعل يبيت الجسم اكثر استهدافاً للعدوى

عما يكون عادة . وقد تكون فيه جراثيم كامنة لم تستطع ايذاءه قبل الثوران فتقوى على الايذاء بعده ويصاب الجسم بمرض ما . وأخطر الامراض في هذه الاحوال على بعض الاشخاص ذات الرئة التي ترمح البعض من ٧٢ الى ١٥٠ او ٢٠٠ في الدقيقة والحرارة الى ١٠٤ او ١٠٥ سنتغراد او فوقها قليلاً . ويصاب المريض بالهذيان ويخف نفسه ويسرع

ويقدر في بريطانيا ان كل ١ في ١١ يموت بذات الرئة وهي تصيب الشيوخ والكهول والصغار على السواء ذكوراً واناثاً

ومعظم فتك هذا المرض في الخريف والشتاء ولكنه يصيب الناس كذلك في الربيع والصيف والذين قلوبهم ضعيفة مرضون لها فاذا أصيبوا بها صعب شفاؤهم منها . ويقول الاطباء انها تتعب القلب في ازمنها اكثر مما يتعبه التجذيف في سباق القوارب والتجذيف اكثر الالعاب الرياضية الحديثة ارهاقاً للجسم . وقد وصف لعلاجها وسائل كثيرة وقست جراثيمها اربعة اقسام واعد مصل لكل منها ولكن المصل لم يفد الا في الاضعف

ومن سنتين اكتشف الدكتور آفري — وهو انكليزي يعمل في معهد روكفلر باميركا — اكتشافاً عظيماً . فقد وجد ان للجراثيم غشاء يقيها مؤلفاً من مادة سكرية وهذا الغشاء يمنحها مناعة من كل دواء ما عدا الادوية القوية التي لا يحتمل الجسم حقنها . وعليه جرب تجارب لازالة ذلك الغشاء الواقي للجراثيم بحقن الجسم بمواد مضادة للسولوس قاعدة السكر فاستحضر مركباً من التربة النباتية المعروفة باسم (بيت بوج Peatbog) فوجدها فعالة في علاج المرض

وهناك علاج أحدث من هذا اكتشفه طبيبان من لندن وهما فرايزر زولش من المدرسة الطبية التابعة لمستشفى سنت ماري وقوام هذا العلاج حقن من محلول الزيت وماء الصابون . وقد أفاد كثيراً

ولا بد ان يجيء يوم تخلو فيه بعض اجزاء العالم من ذات الرئة كما خلت من الطاعون والكوليرا . ولا تزال ذات الرئة اليوم خطراً على الحياة بل من أعظم اخطارها . وقد عرف عنها انها ليست من الامراض التي تصيب طبقة معينة من الناس لانها تصيب الغني والفقير على السواء فقد راح ضحيتها ادجار وليس (الكاتب الروائي والقصصي المشهور) والرئيس هاردنج (الرئيس الاميركي الذي جاء قبل هوفر) ويموت بها اصحاب الملايين من الاميركيين كثيراً والفقراء في منازلهم الحقيرة

ولكن يقال عن ذات الرئة انها على كونها خطراً كبيراً على الحياة ليست بالخطر الذي يخشى منه فهي مرض يتقى ويمكن الوقاية منه . فالرجل الذي يعيش عيشة منظمة اقل استهدافاً لها من الذين فقدوا النظام في اكلهم وشربهم ونومهم ورياضتهم . وفي جميع الامراض تعد قوة المقاومة المتوى ٩٠ في المئة من المعركة

باب الأخبار العلمية

هل يستطيع العلم ان ينقذ الحضارة ؟

رأي للعلامة الدكتور كارل

الدكتور كارل اشهر من ان يعرف . فهو احد نائلي جائزة نوبل الطبية . ومن الاسماء التي قام عليها البحث الطبي في معهد روكفلر . وصاحب التجربة المشهورة التي حفظ فيها قطعة من نسيج قلب الفرخ (الكتكوت) سبع عشرة سنة او نحو ذلك حية في زجاجة . والآراء التالية مقتطفة من كتابه الجديد «تجديد الانسان»

يقلب الانسان طرفه في نواحي الحضارة الحديثة فيرى رجالاً في مكنتهم ان يصنعوا آلات عجيبة في دقة تركيبها واحكام عملها . وآخرين يضعون القلب البشري ثم يخيطون الجرح او يعيدون الى الكفيف بصره او ينقذون الطفل المقرفص فيتموا او يجدون علاجاً لداء وداء . فيسأل : أليس في وسع هؤلاء ومن كان على غرارهم ان يبتكروا علاجاً أو انواعاً من العلاج لادواء الحضارة ؟

اما الدكتور كارل فيرى ان ذلك في وسعهم لو لم تعترض سبيلهم عقبتان

فالعقبة الاولى انهُ يتعذر على اي انسان ان يتوفر في خلال سني حياته على جميع فروع المعرفة الانسانية توفراً يمكنه من حل المشكلات الاقتصادية والاجتماعية التي تعانيها الحضارة . وهو لذلك يقترح ان ينشأ معهد خاص وينظم فيه اذكى الشبان الذين في الخامسة والعشرين من العمر الآن واكثرهم ألمعية ويتركوا خمساً وعشرين سنة يتوفرون في خلالها على دراسة كل ما يستطيع العلم ان يقوله في الانسان . وعليهم ان يعيشوا عيشة زهد وتقشف كنساك العصور القديمة فلا « جولف » ولا « بردج » ولا « سينما » ولا « راديو » ولا حفلات اجتماعية ومآدب . .

فاذا بلغوا الخمسين من العمر كان في امكانهم ان يرسموا للعالم الطرق التي عليه ان يسلكها ليجتنب الحروب والازمات المالية والتعطيل عن العمل وما الى ذلك من الشرور الاجتماعية

خطأ قديم

اما العقبة الثانية فهي ان معارفنا العلمية في الزمن الحاضر غير وافية . فنحن نعلم شيئاً

كثيراً عن الشموس والمجرات والذرات وشيئاً غير قليل عن العظام والغضلات والڤيتامينات . ففي وسعنا ان نقي انفسنا من أدواء وامراض مختلفة وان نصنع آلات ومحركات قوية للنقل والانتقال والرفع والخفض . ولكننا عاجزون عن الملاءمة بين نفوسنا والعالم الميكانيكي الذي خلقناه ولذلك يتعذر علينا ان نعيش في سلام وفي رغد فيه . والباعث على ذلك خطأ قديم

ولعل القارىء يذكر غاليليو . ذلك العالم الايطالي العظيم الذي قام في القرن السابع عشر فكان اول عالم طبيعي مجرب في العصر الحديث . ان آثاره في الرياضة والطبيعة والفلك لا تحصى وعظمها في المقام الاول في تاريخ العلم

ومما فعله غاليليو انهُ فرق بين خواص الاجسام الاولية كالابعاد والوزن وهي مما يسهل قياسه والخواص الثانوية كاللون والرائحة وهي مما لا يقاس . فغاليليو فرق بين الكم والنوع وعني بالاول فأفرغه في قالب رياضي فأرتقى العلم المبني عليه وكانت انتصاراته الباهرة

إلاّ ان اتباع غاليليو ارتكبوا خطأً فاحشاً حين حصروا همهم في « الكم » وأهملوا « النوع » . فحماستهم في سبيل الوزن والقياس حوّلت الانسان الى عوالم الطبيعة والرياضة والكيمياء

هذا الخطأ يجب اصلاحه قبل ان يتمكن العالم من انقاذ الحضارة لان في الانسان شيئاً اكثر من الطبيعة والكيمياء ونواميسهما

يقول الدكتور كارل « ان الصفات التي لا تقاس في الانسان اهمها الصفات التي تقاس » وهو يقول كذلك « ان وجود الفكر في الانسان في قسم المقام كمعرفة التوازن الكيماوي الطبيعي في مصل الدم »

المادة والروح

ثم هنالك خطأ آخر نشأ عن مباحث الفيلسوف الفرنسي ديكارت مع ان ديكارت نفسه لا يحمل تبعته . فالاشياء المادية بعد كتاباته فصلت عن الاشياء الروحية . فأصبحت مظاهر العقل بعد هذا التفريق مما لا يمكن تفسيره . وغدا بناء الجسم وطريقة قيامه بوظائفه المختلفة في نظرهم اشد ثبوتاً من الفكر والنشوة والحزن والجمال . وفي التعليق على هذه يقول الدكتور كارل عبارته المأثورة : —

« هذا الخطأ حوّل الحضارة الى الطريق التي افضت الى انتصار العلم وانحطاط الانسان »

فنقدو العالم الذين يريدهم الدكتور كارل يجب ان يتوفروا على دراسة الانسان من ناحيته الكمية والنوعية معاً . وعليهم في المقام الاول ان يدرسوا العقل الانساني وهو المجهول العظيم الذي شرع علماء النفس في العهد الاخير يرودونه بأساليبهم المختلفة

ويرى الدكتور كارل ان تقدم العلم في كل ما له صلة بالغذاء والرياضة البدنية والصحة وشفاء الامراض والوقاية منها — كل هذا قد تمّ على حساب النمو العقلي . وهذا في رأيه هو التفسير المعقول لما نراه في حضارتنا . نحن

لا نرى اننا مع ما بلغناه من ارتقاء في جميع هذه النواحي لا نزال عاجزين عن فض وجوه الخلاف من دون الالتجاء الى الحرب ، وعن توزيع الطعام وغيره من الحاجات المادية الاولية توزيعاً عادلاً على الناس ، وعن منع خطف الاطفال والجرائم على اختلافها

الدين والتصوف

ولا يريد الدكتور كارل ان يحصر درس العقل في اساليب التفكير وامتحانات الذكاء بل يريده ان يمتد حتى يشمل كل ما له صلة بالدين والتصوف وعلم الجمال والظاهرات الروحانية . وهو يعتقد ان الظاهرات الروحانية ظاهرات صحيحة على ندرتها وانها جديرة بدراسة العلماء ولكن يجب ان لا تترك لهواة هذا البحث ولو كانوا من اكبر العلماء فالخروج من ميدان الاختصاص محفوف بالمزالق ولو كان الخارج من طبقة بيوتن وكروكس ولودج

وعنده ان اجدر الناس بامتحان هذه الظاهرات ودراستها هم العلماء الذين حذقوا الطب السريري (الاكلينيكي) وتعمقوا في معرفة الجسم الانساني وافعاله الفسيولوجية والعصبية وغيرها من الظاهرات الخلقية والنفسية التي لها اساس فسيولوجي او تشريحي او ما كان من هذا القبيل

وأمله ان يمد هؤلاء الى اساليب الفسيولوجيا والطبيعة للبحث في التخاطب عن بعد (التبثة) وما اليها من الظاهرات النفسانية

غذاء للعقل

ومما يعرض له الدكتور كارل في كتابه موضوع الغذاء . فهو يقول ان معرفتنا في ميدان الغذاء لا تزال محدودة قاصرة . فنحن لا نعلم الا يسيراً ما هو تأثير المركبات الكيمائية التي يحتوي عليها غذاؤنا في افعال الجسم العقلية والفسيولوجية . وذلك لان التجارب في هذه الناحية لم تجرب مدة كافية في الناس لتعرف نتائجها على وجه واف

ولا يبعد في رأيه ان تسفر هذه التجارب متى تمت عن حقائق جديدة من شأنها ان تعلمنا ان غذاء الحكام والمبدعين يجب ان يختلف عن غذاء العمال والموظفين العاديين في المعامل والمكاتب . فالسلالة البشرية في رأيه لا يمكن ان ترتقي اذا اكتفينا بتغذية الاطفال والمراهقين باللبن والقشدة والفيتامين

وقد يكون من الخير في رأيه ان نبحث عن مركبات ومواد جديدة لا يكون الغرض منها زيادة حجم الجسم ووزنه بل اذكاء القوة العقلية ونشاطها

مقام النساء

والراجح ان زعيمات الحركة النسائية لن يرضين بالمقام الذي يعينه الدكتور كارل لهن . فهو يقول بوجوب عودتهن الى البيت ولكن قوله هذا تختلف نزعته عن نزعة الحاكمين بأمرهم الذين يقولون بما يماثله . فهو يبحث في الموضوع

كما يرى ان المرأة والرجل غير متماثلين وغير متساويين

فللمرأة اهم من الرجل في حفظ النوع ومقامها أعلى من مقامه في ترقية الحضارة. فعليها ان تتبع بهذا العمل العظيم بدلاً من ان تسعى الى تقليد الرجل ومنافسته. وهذا افضل للجنس ولها

« والواقع — يقول الدكتور كارل — ان بين المرأة والرجل فروقاً اساسية. فكل خلية من خلايا جسمها مطبوعة بطابع جنسها. وعلى ذلك يجب ان تمارس في تعليم الفريقين وتهذيبهما وسائل واساليب تتفق مع خصائصها الطبيعية. فبين الجنسين فروق لا سبيل الى محوها ومن الواجب ان يعمل لهذه الفروق اهم حساب في بناء الحضارة الجديد »

*

العسل وتضميد الجروح

كان العسل يستعمل في القرون الوسطى في تضميد الجروح بل ان استعماله هذا كان شائعاً في عهد الامبراطورية الرومانية وقد اشار المؤرخ الكبير بلينيوس الى انهم كانوا يستعملون في عهده مرهماً مركباً من العسل ونوع من دهن السمك لمعالجة الجروح. ولا يعد ان دهن السمك هذا كان « زيت السمك » الذي يشرب الآن منقى مما يحتوي عليه من الفيتامين المانع للكساح

وقد جاء في رسالة العلم الاسبوعية ان اطباء مستشفى الصليب الاحمر في مدينة همبرج عنوا في السنة الاشهر الاخيرة بتجربة التجارب المحكمة في هذا الوجه من فائدة العسل فثبت لهم ان له تأثيراً بليغاً في تنظيف الجروح حتى الجروح الملوثة. ولكن ثبت لهم كذلك انهُ مع تنظيفه للجرح لا يؤثر تأثيراً يذكر في تعجيل اندمالها. ولما كان زيت السمك يساعد على تعجيل الاندمال فقد مزج هذا الزيت بالعسل فكان لهم مرهم ينظف الجروح ويعجل في شفائها

وعلى ذلك نكون من هذه الناحية قد عدنا بعد طواف طويل الى ما كان يعلمهُ الناس بالاختيار والتجربة العملية في عهد بلينيوس اي في اوائل العهد المسيحي

ولكن كيف يفعل العسل هذا الفعل العجيب؟ هل يحدث تخمراً يقتل الجراثيم؟ واي عنصر من العناصر الداخلة في تركيبه يفعل هذا الفعل؟ هل هو سكره او املاحه المعدنية او احماضه النباتية أو ما فيه من الكحول او مواد التخمير؟ هذا ما لم يعن به المجربون الالمان بعد. ولكن لا بد ان تتجه اليه عنايتهم فيجربون التجارب المحكمة لمعرفة تأثير كل من هذه المواد على حدة في حالات مختلفة

*

الميكروبات في اعالي الهواء

اعلن الدكتور ووكر احد اطباء جامعة جورج هبكنز الاميركية ان الهواء على ارتفاع يختلف من ٢٠ الف قدم فوق سطح البحر الى ٢٨ الف قدم خال من الجراثيم

وليس الدكتور ووكر اول من عني بهذا

البحث . فقد سبقه اليه طائفة من البحاث كالاستاذ روكنر احد علماء معهد مساشوستس التكنولوجي والمستر ماير احد علماء وزارة الزراعة الاميركية والكولونل لندبرغ . ولكن اعلى ما وصل اليه هؤلاء الباحثون في بحثهم ٢٠٦٠٠ قدم فوق سطح البحر . الا ان الدكتور ووكر حلق في تجربته الاخيرة بطائرة من قاذفات القنابل في الجيش الاميركي الى علو ٢٨ الف قدم وجلس هو في حجرة الجندي الذي يطلق المدفع الرشاش وفي جدار هذه الحجرة شق كان العالم يمد منه يده الى الخارج وهو حامل بها لوحاً مطليًّا بشاء من مادة تصلح لنمو الجراثيم . وقد فعل ذلك باثني عشر لوحاً دلت التجارب ان لوحين منها فقط يحتويان على مكروبات . وهو يعتقد ان مصدر هذه المكروبات يداه وملابسه . ولذلك يرى ان التجربة ليست حاسمة ولا بد من تجربتها ثانية

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد ان حرارة الهواء خارج الطائرة كانت تحت درجة الجمد قليلاً وكانت الطائرة سائرة بسرعة ١٥٠ ميلاً في الساعة . وكان العالم يبقي كل لوح من الواحه معرضاً مدى نصف دقيقة . وقد تهرأت اصابعه من البرد

*

مدينة ترتفع وتنخفض

مدينة بتسبرج من اشهر مدن اميركا الصناعية وهي مشهورة بوجه خاص بكل ما يتعلق بصناعة الحديد والفحم . إلا أنها ترتفع وتنخفض كل يوم من ١٣ بوصة (أكثر من قدم قليلاً) إلى ٢٣ بوصة (أقل من قدمين قليلاً) كل يوم بفعل جذب القمر

يعلم القراء أن دوران الكرة الارضية على محورها كل اربع وعشرين ساعة يعرض كل بقعة على سطحها لجذب القمر . وهذا التأثير يظهر أعظمه في غلاف الكرة المائي فيرتفع وينخفض وهذا هو المد والجزر . والمد والجزر اظهر ما يكونان في مصاب الانهر الضيقة الطويلة وعلى بعض الشواطىء

وقد سبق لنا فكتبنا في « المقتطف » قبلاً ان بعض العلماء المعنيين بدرس جذب القمر لسطح الارض اثبتوا ان تأثيره في جذب قشرة الارض اليابسة يقرب شواطىء أوربا إلى شواطىء اميركا بضع اقدام

والآن اطلعنا على بحث للعالم الاميركي الدكتور بول فوت خلاصته ان قياس جذب القمر لقشرة الارض مدة طويلة اثبت له ان الارض التي تقوم عليها مدينة بتسبرج الاميركية ترتفع وتنخفض كل يوم من نحو قدم الى نحو قدمين

*

سرعة الطيران في الطبقة الطخرورية

قد لا تصدق ايها القارىء اذا قلنا لك انك ستسمع قريباً عن طائرات للركاب تطير بسرعة ٤٠٠ إلى ٥٠٠ ميل في الساعة فتستطيع ان تدور حول الارض في نحو يومين ونصف يوم

ولكن هذا القول محتمل كل الاحتمال . واحتماله مبني على ما هو معروف في دوائر الطيران العالية . فالعلم يقتضي والتجربة قد أيدت ما يقوله العلم ، أن الطيران على علو ٣٠ الف قدم او ٣٥ الف قدم فوق سطح الارض يزيد سرعة الطائرة زيادة كبيرة لاسباب متعددة أهمها لطافة الهواء وقلة مقاومته وعدم هبوب رياح عكسية تعيق تقدم الطائرة وتزيد ما تنفقه من الوقود . وقد أثبت ولي بوست — الذي قتل من عهد قريب هو وول روجرز — ذلك اذ حلق بالطائرة « ونى ماي » الى علو ٣٥ الف قدم وطار من شاطيء اميركا الغربي الى شيكاغو بسرعة ٣٥٠ ميلاً في الساعة . فتقطع المسافة بين سان فرنسسكو وشيكاغو في ٧ ساعات على ما نذكر . وهي لا تقطع عادة في اقل من ١٥ ساعة

ولكن الطائرة التي تطير على هذا الارتفاع يجب ان تكون متصفة بصفات خاصة في بناء محركها وحجرة الركاب ، تقتضيها طبيعة الجو. وهذه الشؤون هي موضوع عناية المهندسين الآن وقد لا يطول الانتظار قبل الفوز بهذا الطراز من الطائرات

*

ملاريا القردة والشلل العام

يعلم قراء « المقتطف » أن الطبيب النمسوي الشهير فاجنر يوريج اكتشف من سنوات طريقة لمعالجة الشلل العام الناشيء عن الاصابة بالزهري وهي معالجة الداء بداء آخر على حد ما قال المتنبي : اذا استشفيت من داء بداء . والداء الذي استعمله الدكتور فاجنر يوريج لمعالجة هذا الضرب من الشلل كان داء الملاريا وقد منح جزاء على هذا الاكتشاف جائزة نوبل الطبية

فالمصاب بهذا الضرب من الشلل يحقن بطفيليات الملاريا فيصاب بقشعريرتها وحماها والظاهر ان حماها العالية تشوي جراثيم الداء الغريب المتأصل في جسم المصاب فيشفى المصاب من دائه الاصلي ثم يعالج للشفاء من الملاريا بالاساليب المعروفة اي الكينا وما اليها

ولكن الملاريا ليست بأصنافها المختلفة مما تحمد عقباه دائماً ثم انه من اشق الامور على مركز طبي حفظ البعوض الملوث بالملاريا لاستعماله في نقل الملاريا الى مصاب بهذا الشلل عند ما تقتضي الحاجة ذلك وبوجه خاص اذا كان هذا المركز الطبي في بلاد ليس فيها ملاريا او بعيدة عن بلاد فيها ملاريا

وقد قرأنا الآن ان الدكتور فان روين من اطباء جامعة ادنبره والدكتور بل في بيمارستان مدلوثيان ويبلز قد وصفا في المجلة الطبية البريطانية استعمالها ملاريا القردة في معالجة الشلل العام الناشيء عن الزهري

وهذا النوع من العلاج يمتاز على العلاج بالملاريا البشرية من نواح مختلفة أهمها ان حفظ القردة في حالة عدوى مدة ستة اشهر وتعمر مدة الحضانة وخفة الاصابة وسهولة علاجها بالكينا

البنزين من الفحم

ان عمل تحويل الفحم الى بترول وبنزين ليس عملاً صعباً او متعذراً من حيث المبدأ. فجميع اصناف الوقود مركبة من كربون وايدروجين. ولكن نسبة الايدروجين في البترول اعلى منها في الفحم ثم ان الفحم يحتوي على مقدار من الاكسجين اكبر من مقدار الاكسجين الذي في البترول. اضف الى الفحم مقداراً جديداً مناسباً من الايدروجين واضبط مقدار الاكسجين الذي فيه وذلك بترول ينسكب في حوض

ولكن التطبيق صعب. والواقع ان العلامة برجيوس الالماني الذي ابتدع الطريقة العملية لذلك قضى سنين من البحث والدأب قبل أن يتوصل إليها سنة ١٩١٤ فلما كانت سنة ١٩٢٨ كان برجيوس يصنع ٣٠٠ الف برميل من البنزين كل سنة. ومما لا يرتاب فيه الباحثون انه لا تنقضي سنة ١٩٣٦ حتى تكون بريطانيا والمانيا تصنعان نحو ٤٠٠ مليون غالون من البنزين بمعالجة الفحم والفحم الاخضر وقطران الفحم الحجري بالاساليب الكيائية. وانه لا تنقضي سنة ١٩٤٠ حتى تكون المانيا قد اصبحت في غنى تام عن مصادر البنزين الاجنبية

ان الطبيعة سلخت ملايين من السنين في صنع البترول ولكن الالمان والانكليز مختصرون العصور الجيولوجية في بضع دقائق. الا ان هذا النجاح يقتضي منهم ثمناً فادحاً من المال والطاقة. فهم يحتاجون الى درجات عالية جداً من الحرارة ودرجات عالية من الضغط كذلك ليحملوا الفحم على الاتحاد بقليل من الايدروجين والاكسجين حتى يتحول الى بنزين. وانفقت معامل الصناعات الكيائية الامبراطورية حتى الآن مليون جنيه لتتغلب على بعض الصعاب الفنية الصناعية مع انهم كانوا يعرفون اساليب برجيوس الالماني. اما ما انفقه برجيوس قبل تحقيق مطلبه اولاً فلا سبيل الى معرفته الآن

وقد انشأت الصناعات الكيماوية الامبراطورية مصانع في بلفهام — انتحت من نحو بضعة أشهر — لصنع البنزين من الفحم (اليتومين) وكان القصد اولاً صنع ١٠٠ الف طن في السنة من البنزين ثم يزيد هذا المقدار الى ١٥٠ الف طن ولا ريب في ان نجاح هذه الصناعة سيكون له تأثير طيب في انعاش صناعة تعدين الفحم التي ضعفت بسد الاسواق في وجهها وبفضل الازمة العالمية

اما مراتب العمل فهي كايلي: المرتبة الاولى تنظيف الفحم بازالة الرماد ثم طحنه ممزوجاً ببترول فيصنع معجوناً اسود يدفع في حوض تحت ضغط ٢٥٠ جواً حيث يتحد بالايدروجين. ولا بد في هذا من حرارة عالية جداً ويتحول المعجون الى سائل عند درجة ٤٥٠ سنتغراد من الحرارة

هذا السائل هو نوع من الزيت الوسخ الطيار. ثم يلي ذلك تكريره الى ثلاثة اصناف من الزيت احدها ثقيل والثاني متوسط والثالث بنزين. فيزال البنزين ويعاد علاج الزيت الثقيل فيتحول الى زيت متوسط وبنزين. فيزال البنزين. ثم يجمع مقداراً الزيت المتوسط ويعالجان كما تقدم حتى « تحلب البقرة تماماً »

لبنان في عهد الامراء الشهابيين

وهو الجزء الثاني والثالث من كتاب « الدرر الحسان في اخبار ابناء الزمان » للامير حيدر احمد الشهابي عني بطبعه وتعليق حواشيه ووضع مقدمته وفهارسه الدكتور اسعد رستم احد اساتذة التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الاميركية وفؤاد افرام البستاني استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

كان الدكتور فان ديك الكبير في اوائل عمره يقيم في عبيات وهي قرية لآل تلحوق بين شملان من سوق الغرب فركب يوماً فرسهُ وسار الى قرية اخرى فلقيه صديق وقال له « الى اين يا حكيم » قال الى القرية الفلانية لكي افتح فيها مدرستين قال الا تكفي مدرسة واحدة فلماذا مدرستان. ولعل السائل كان من المشايخ آل تلحوق وكان بينه وبينهم مساجلات لطيفة . فاجاب الدكتور فان ديك بقوله اني في الحقيقة ذاهب لانشاء مدرسة واحدة فتى علم الآباء اليسوعيون بذلك اسرعوا وانشأوا مدرسة اخرى. قلت وقد كان التنافس كبيراً بين الآباء اليسوعيين والمرسلين الاميركيين هؤلاء من الكنيسة الانجيلية واولئك من الكنيسة الكاثوليكية فاذا انشأ الاميركان مدرسة اسرع الآباء اليسوعيون وانشأوا مدرسة اخرى. اما الآن فيقوم استاذان كبيران احدهما من الجامعة الاميركية والآخر من جامعة الآباء اليسوعيين ويتفقان ويتعاونان على اصدار هذا الاثر النفيس ولو سمعنا ذلك في الماضي لما صدقناه اي لو سمعنا ان الدكتور كربليوس فان ديك الانجيلي والاب لويس شيخو الكاثوليكي اتفقا على تأليف كتاب في الجدل الكنائسي مثلاً لقلنا ان القائل قد اضاع رشده أيتفق فان ديك وشيخو هذا مستحيل

أما الآن فقد جمع المؤلفان الفاضلان بين المتناظرين وآلفا بين الضدين احدهما من الجامعة الاميركية والآخر من جامعة الآباء اليسوعيين فنشرا كتاباً واحداً وطبعاه في مطبعة واحدة هي المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين وهي والمطبعة الاميركية في نظري خير المطابع العربية بلا منازع فعسى يأتي يوم تكون فيه الاديان والمذاهب واحدة في نظر العقلاء فقد كان اهل لبنان لا ينظرون قبلاً الى الدين او المذهب بل الى ما يسمونه الفرض او الميل السياسي فيقولون مثلاً فلان قيسي او يمني من اي دين او مذهب كان وقد كان امراء لبنان ومقدموه ومشايخه وعامته اما مسلمون او مسلمون شيعيون او دروز او مسيحيون لا فرق بينهم الاَّ في الفرض او المذهب السياسي فلما دخل في امورهم رجال الدين ومعظمهم من مرسلي الاجانب انقلبت الحال ولا محل للبحث هنا في اسباب تنصر الامراء الشهابيين المسلمين والامراء اللمعيين. الدروز وليتهم لم يفعلوا ولو كان ذلك لما كانت الحرب الاهلية ولما دخل اجنبيٌّ الى لبنان وسورية وفلسطين

وليحذر اهل لبنان من الدسائس فهم اهل وطن واحد فلو دخل فيهم الطاغون مثلاً كان عرضة للاصابة به جميع الناس على السواء .

ثم ان في اول الكتاب مقدمة جاء فيها نبذة عن المؤلف وترجمة حياته وفيها تمحيص دقيق لما ورد عنه في المؤلفات العربية وقد انصف الناشران في ما ذكراه عنه إنما انصاف ولا سيما في ماجاء في كتاب السباق على السباق ولا يخفى ان الامير حيدر كان مسيحيًّا مارونيًّا وكان متمسكاً بدينه . وهناك مسألة قلما انتبه لها أحد وهي ان الامير حيدر كان كريماً أي جثلان كما بينت في تفسير هذه الكلمة في جزء ماضٍ من المقتطف فتعمده لم يجعله يكتبها سريانية بل بقي كريماً فيه دم الشهابيين كما يستدل من عبارة قالها في اول الكتاب وهي حقيقة لا ريب فيها قال في الصفحة الاولى ما يأتي : ذكر ما حدث إلى الفرنساوية من الانشقاق والنفاق والخصام وخروجهم إلى الديار المصرية وما تم لهم بتلك الامصار بنوع الاختصار . والحمد لله العلي الجبار الذي ارواح منهم هذه الديار . انتهى فكيف يقول ذلك مارون قلت يقوله اذا كان شهابيًّا ويقولها غير الشهابي

معصر الجديدة امين المعلوف

من بعيد

للدكتور طه حسين — ١١٣ ص. من القطع الصغير

«هذه فصول متفرقة لا يكاد يجمع بينها الا انها كتبت من بعيد . كتبت من بعيد في المكان وكتبت من بعيد في الزمن ايضاً » — بتلك الجملة يستهل المؤلف مقدمته شارحاً عنوان كتابه باسطاً السبب الذي من اجله اعاد طبع مقالات كان قد نشرها من قبل في الصحف السيارة

ومهما يكن من امر فان مراجعة تلك الفصول لمتعة للقارىء بل للقارىء الذي يحب ان يستفيد من طريق المتعة . فما لا شك فيه ان الدكتور طه حسين عرف كيف يتشيء اسلوباً يملك عليك عقلك ويغذيه في آن ، أسلوباً اذا مشى انطلق وعدا ولو بما اكره القلم على الجريان اسلوباً خفيف الموقع تضطرد فيه المترادفات والاعتراضات في رشاقة ، اسلوباً بليغ لا يكلفك عناء على اختيار الالفاظ فيه . اذاً هذي فصول تضم وصف رحلات وبسط علم وخواطر سائح ودراسات في الادب وآراء في الفلسفة . وليست هذي الفصول منسجمة الا ان الاسلوب الواحد يجمع بينها وروح المؤلف المطردة تؤلف بين اجزائها

ولنشر الى فصلين منها . اما الأول ففصل « الادب والادباء » وما نظنه الا دخل في تاريخ الادب العربي الحديث اذ يتناول فيه الدكتور طه حسين قصة الخصومة القائمة بين انصار القديم وانصار الجديد تلك الخصومة التي قلنا لها وقتنا لشر سنين خلت . واما الفصل الثاني فعنوانه « بين العلم والدين » وهو بحث لم يكد احد يجرؤ على القدوم عليه والفصل فيه . فمثل هذين الفصلين يدلان على مكانة الدكتور طه حسين في التفكير ايام نهضتنا هذه ويسجلان اسمه تسجيلاً

تطور الاساليب النثرية في الادب العربي

الجزء الاول — تأليف انيس المقدسي استاذ الأدب العربي في جامعة بيروت الاميركية — ٤٤٨ صفحة من قطع المقتطف — طبع مطبعة سركيس في بيروت

الاستاذ انيس المقدسي علم من اعلام الرأي في الادب العربي ، اخرج منذ ثلاثة اعوام كتابه «أمراء الشعر العربي في العصر العباسي» فكان كتاب عامه ، وها هو يخرج في هذه السنة كتابه النفيس «تطور الاساليب النثرية في الادب العربي» فاذا الكتاب الجديد كتاب عامه

وهو يتناول في هذا الكتاب النثر العربي وخصائصه الفنية منذ بزوغ الاسلام الى النهضة الاخيرة ويتخلله دراسات تحليلية لنخبة من امراء الاقلام وعرض كثير من نصوصهم الانشائية . وقد تعمد المؤلف عدم التعرض للنثر الجاهلي إلا ما توصل الى تحقيقه عرضاً في اثناء البحث وما ذلك إلا لان المواد النثرية التي بين يديه من العصر الجاهلي لا تسوّغ له تناول ذلك بطريقة علمية . على انه يستدل على قدم النثر المطلق بما ورد في القرآن الكريم من اشارات الى التقدم التجاري الذي بلغته قريش في الجاهلية ، وهذا التقدم لا بد له من استعمال الكتابة وقد ورد في القرآن ما يشير اليها مما لا يدع مجالاً للشك في استعمالها كما ان روايات المؤرخين تزكي ذلك فلقد ظهرت الدعوة الاسلامية وفي قريش كتّاب وللنبي كتّاب

ولقد تناول المؤلف البحث في النثر عند ظهور الاسلام فوجّه نظره شطر الرسائل النبوية التي بعث بها النبي الى الزعماء يدعوهم فيها الى الاسلام ، وذكر المزايا التي يلاحظها فيها من ايجاز وبساطة ومن اوضاع خاصة قلما يعثر عليها في غير هذه الرسائل ومن تتابع العبارات في كثير منها بعطف او غير عطف من دون تكلف التعادل بينها او صحة التقسيم

ثم التفت المؤلف الى ناحية الاسلوب القرآني فتكلم عن ظواهر بلاغته مقتصراً على اربعة انواع منها هي : الاحتباك ودقة الاشارة ، وحسن الايقاع ، وروعة الانتقال ، وجمال التمثيل ثم ختمه بالرد على المستشرق (نولدكه) الذي يرى في قصص القرآن وجوه ضعف منها النقص في التسلسل اي ان القصة لا تروى في طريقة خبرية منظمة بل يعتريها التقطيع والتشويش حتى يصعب فهمها على من لم يطلع عليها في مصدر آخر . ومنها تكرير بعض الالفاظ او العبارات وكثرة الانتقال في سياق الكلام من صيغة الى صيغة او حال الى حال زاعماً ان كل عالم أوربي يقرأ الكتاب بروح الانصاف يرى رأيه . فيقول الاستاذ المقدسي : —

« ومن الانصاف هنا ان نقول ان نولدكه لم يصب كبد الحقيقة فيما ذهب اليه من نقد الاسلوب القرآني . اذ لا يجوز مقابلة هذا الاسلوب بأسلوب القصة في التوراة لاختلاف الغرض فيهما ففي التوراة عدا اسفار الانبياء والأمثال والأناشيد الروحية حوادث تاريخية منظمة تجري فيها

بين الاسد الافريقي والقمر الايطالي

في ١٤٠ صفحة كبيرة — ثمنه عشرة قروش — ويطلب من مكتبة المعارف بالفجالة

عني بوضعه وتأليفه الاستاذ محمد لطفي جمعه الجماي ، وصاحب المؤلفات الكثيرة في المسائل الشرقية . وتولت طبعه ونشره مطبعة المعارف طبعاً أنيقاً على ورق صقيل

وقد رجع المؤلف في بحثه الى عشرين مؤلفاً سرد اسماءها في آخر الكتاب ، ليعود اليها من اراد زيادة البحث والاستقصاء . ويمتاز كتاب الاستاذ لطفي جمعه بتناسق الفصول والعناية بالبحث والتحليل والقصد في الكلام . ففيه مقدمة وتسعة عشر فصلاً يدرك القارىء منها علاقة الحبشة بمصر والاسلام قديماً وحديثاً ، وطموح مصر الى فتوح افريقيا ، وعلاقة مصر بالحبشة وايطاليا ، وعصبة الامم والمشكلة الحبشية ، ومن موقعة قرع الى موقعة عدوة ، والنظام الفاشي وغيرها

الحبشة او اثيوبيا في منقلب من تاريخها

٢٤٠ صفحة متوسطة . ثمنه ١٠ قروش . ويباع في مكتبات القاهرة

تأليف الاستاذ الشيخ بولس مسعد ، المعروف بباحثه المتعددة في شؤون تركيا وسوريا ولبنان . وقد زوقت طبعه المطبعة العصرية مزيناً بعدد كبير من الصور

قال المؤلف في المقدمة : « الحبشة امة شرقية جديرة بأن تدبر امرها ونعتبر بما نفيدنا سيرها ونتظر الى ما تهيىء لها الاقدار في هذا المنقلب الخطير من تاريخها الذي نرجو ان يكون فاتحة عصر جديد حافل بمجالي الخير والاقبال . وقد مهّد للكلام عن الحرب الحاضرة بفصول عن جغرافية الحبشة وزراعتها وحاصلاتها ومواصلاتها وسكانها وطوائفها وعاداتها واديانها وعلاقتها بمصر خاصة والدول عامة وما أسفر عنهُ تنافس انجلترا وفرنسا وايطاليا فيها من النتائج ويختلف عن عما سبق بوفرة مباحثه الجغرافية والتاريخية وزيادتها فيه على النظر في الحرب الحاضرة ومقدماتها

الاسلام في الحبشة

١١٠ صفحات كبيرة . ثمنه خمسة قروش . ويطلب من المؤلف بالمطرية والمكتبات في القاهرة

الفه الاستاذ يوسف احمد الفقش السابق في مصلحة الآثار العربية وعنوان الكتاب يدل على الغرض الذي قصده المؤلف وهو التعريف بحالة الاسلام في الحبشة منذ هاجر اليها المسلمون في صدر الاسلام هرباً من اذى المشركين وما لاقوه من حفاوة النجاشي بهم . ثم يتناول الاسلام في الحبشة من بعد الهجرة . وانتشار الاسلام في الحبشة . وأول دولة اسلامية في الحبشة . والاسلام والحبشة في القرن الثامن . ووصف السلطنة الاسلامية . والمذاهب الاسلامية في الحبشة . ونشاط المسلمين التبشيري في الحبشة الخ الخ . وهذا البحث الخاص ، لم يعن كاتب عربي بجمعه وترتيبه قبل الاستاذ يوسف احمد ، فيسر للقارىء العربي الاطلاع في ساعات على ما لا يمكنه مراجعته في الكتب القديمة في سنة

توفيق حبيب

العراق في دوري الاحتلال والانتداب

يعد الاستاذ عبد الرزاق الحسني بحق من اشط الكتاب العراقيين ومن اغزرهم مادة ومن اكثرهم توفيقاً في اختيار الموضوعات التي يعالجها فقد تم له في خلال السنوات الاخيرة اخراج سلسلة كتب قيمة نافعة آخرها كتاب « العراق في دوري الاحتلال والانتداب » فقد جمع فيه اخبار النهضة العراقية وتحولها من ابتداء الحرب العظمى في سنة ١٩١٤ الى يومنا هذا ويتألف هذا السفر الثمين من جزئين بين يدينا الجزء الاول منه وقد طبع طبعاً متقناً في مطبعة العرفان صيدا على ورق جيد وعدد صفحاته ٣٢٠ صفحة بالقطع المتوسط

وهذا الجزء مقسم الى ستة اقسام فالاول خاص بالحرب التركية الانكليزية في العراق. والثاني عن الثورات الموضعية. والثالث عن الثورة العراقية الكبرى. والرابع عن الحكومة المؤقتة. والخامس عن مشاكل العراق الخارجية وصلاته بايران وتركيا ونجد والحجاز. والسادس عن مشاكل العراق الداخلية ، وقد كتب كله بأسلوب جزل طلي ، جذاب ويزيد في خطورة شأن هذا الكتاب ما ضمه بين دفتيه من وثائق تاريخية ثمينة عني المؤلف الفاضل بجمعها واثباتها في مواضعها ، وكذلك في الكتاب ثلاث خرائط مع عدد كبير من الرسوم للزعماء الوطنيين ورجال السياسة الذين ورد ذكرهم وللحوادث نفسها

ولقد كتب الاستاذ امين سعيد مقدمة هذا الكتاب توصف جهود المؤلف الناضة وأطراها وما قاله « ان قراء العربية سيقابلون على اختلاف الوانهم كتاب الاستاذ الحسني الجديد بالاعجاب والتقدير شأنهم في كل ما يكتبه ويحبره لتعزيز النهضة القومية وخدمة العلم والادب ، فهو مما لا يستغني عنه باحث ولا كاتب ، ولا مؤرخ ، ولا سياسي ، بل ولا عربي فنحن في اشد الحاجة الى دراسة تاريخ نهضتنا القومية والاحاطة به وتتبعه في ادواره ومراحله ، والوقوف على دقائقه وتفاصيله فاذا كان هنالك ما يفيدنا ، اخذنا به وسرنا عليه ، واذا كان هنالك ما يضر اهملناه او نبذناه وسلكنا سبيلاً آخر ، يهدينا الى الصراط المستقيم صراط خدمة العرب وايقاظهم ونشر ما انطوى من آثارهم ومفاخرهم ، واحياء دولتهم واعلاء كلمتهم الخ »

وبعد فكتاب « العراق في دوري الاحتلال والانتداب » درة من الدرر الغوالي وفتح جديد في تاريخ العرب السياسي ، فهنيء مؤلفه الفاضل بما ادركه من نجاح راجين له ان يوفق في اصدار جزئه الثاني كما وعد وتتمنى لجزئيه السابق واللاحق « ومقدماً » الرواج والانتشار

ويطلب الجزءان من المكتبة العصرية ببغداد ومن المكاتب الشهيرة في العراق وثمنه ٢٥ قرشاً صاغاً

***

فهرس الجزء الثاني من المجلد الثامن والثمانين

١٦٩ التوسع بالفتح : لافائدة منه ولا حاجة اليه

١٧٦ الحق والحسن (قصيدة) لعبد الرحمن شكري

١٧٨ الغاز الحربي الكامل

١٨٥ البترول والحضارة : لحبيب اسكندر (مصوّرة)

١٩٦ بورجيه : لعلي كامل (مصورة)
أكتفي (مصورة)

٢٠٤ عجينة تحقيق الشخصية : لعوض جندي

٢٠٩ فلسفة التاريخ : لحنا خباز

٢١٤ النباتات المصرية القديمة : للدكتور حسن كامل

٢٢١ احوال المطبعة : لاحمد فؤاد الاهواني

٢٢٥ مفردات النبات : لمحمود مصطفى الدمياطي

٢٣٠ أبدع طرق الشام وأروعها : لوصفي زكريا

٢٣٦ الاذاعة اللاسلكية والثقافة العامة

٢٤٣ الالعاب الاولمبية (مصورة)

٢٤٥ موقعة ناقارين : للدكتور علي مظهر (مصورة)

٢٥١ سير الزمان * تحوّل المشهد الاوربي. روسيا والمدنية الحديثة : لابرهيم ابرهيم يوسف

٢٦٥ حديقة المقتطف * الطريقان : لوو منغ فو : ترجمة امين الريحاني . حلم افلاطون : عن فولتير : لاسماعيل مظهر. موعد : للشاعر سوللي پرودوم : نقلها خليل هنداوي

٢٧٣ التربية الصحية * الاطعمة التي نأكلها . صحة الاطفال : للدكتور عبده رزق تغيير اخلاق الناس . كلمة في ذات الرئة

٢٨٢ الاخبار العلمية * هل يستطيع العلم ان ينقذ الحضارة . العسل وتضميد الجروح . الميكروبات في اعالي الهواء. مدينة ترتفع وتنخفض . سرعة الطيران في الطبقة الطخرورية . ملاريا النردة والشلل العام . البنزين من الفحم

٢٨٩ مكتبة المقتطف * لبنان في عهد الامراء الشهابيين . من بيد . تطور الاساليب التربية . المسألة الحبشية . بين الاسد الافريقي والنمر الايطالي . الحبشة واثيوبيا . الاسلام في الحبشة . العراق في دور الانتقال